الحكاية الشعبية العربية

شوقي عبد الحكيم

شكرا لمن رفع الكتاب على الشبكة، قمنا بتنسيق الكتاب وتخفيض حجمه
مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com



دار ابن خلدون

هذا الكتاب

يتعرض هذا الكتاب بالدراسة النظرية والميدانية، للمنابع والأصول الأولى المبكرة لتراثنا العربي على الرقعة الكونية، والمؤثرات التي طرأت عليه، من سامية، وفارسية ايرانية.

من ذلك حكايات الجان والعفاريت والنداهات والمردة الخرافية، والحكايات الهزلية والانتقادية والنوادر والفصول المضحكة.

وحكايـــات الأطفـــال الموعودين، والجواري والزوجات المضطهدات، والتضحية بالاطفال، والختان، وأخذ الوشن.

كذلك يولي الكتاب اهتماماً بحكايات اللصوص والمكارين والشطار والابطال النزقين والافاقين، وتحولات هؤلاء الابطال وسخطهم الى حيوانات وجماد.

ولا يغفل الكتاب التعرض للرموز والتضمينات الفولكلورية والأسطورية، مثل: الخمسة وخميسة، دق النواقيس، قراءة الفنجان، الطهارة، والنجاسة، ماء الحياة، وماء الخلود، وصراعات تملك المياه، وأساطير الأرض أو الأوطان الموعودة، وتابوت العهد، وقميص يوسف - وعثمان -، وعصا شعيب وموسى، وشارة الصليب والهلال.

ويجيب الكتاب على العديد من الاسئلة، حول الحكايات والفابيولات التاريخية والأسطورية، مثل: ملحمة جلجاميش، الحكيم احيقار، ولقمان، ويونس والحوت، ويوسف وزليخة، وعزيزة ويونس، والمسيح كشخصية فولكلورية، وحاتم الطائي، والخضر، وجحا بالاضافة الى فراعين مصر، ونماردة العراق، وعمالقة فلسطين.

« الناشر »

الثمن
١٣ ل.ل.
أو ما يعادلها

حقوق الطبع محفوظة

لدار ابـن خلـدون

بيروت ـ كورنيش المزرعـة ـ بناية ريفييرا سنـتر
هاتف : ٣١٢٣٣٥
ص . ب : ١١٩٣٠٨

الطبعـة الاولى
١٩٨٠/٢/١

شوقي عبد الحكيم

الحكايات الشعبية العربية

دراسة نظرية ميدانية مزودة بالنماذج

دار ابن خلدون

الإهــداء

الى كل القوى الثورية الوحدوية العربية ، المتحركة دومـا باتجـاه عقلنة تراث ما قبل العلم والعقل هذا ، والخروج من اسره وضغوطه الخانقة، والمتاجرة به على طول الشارع ـ الطبقي ـ السياسي العربي ، لتعويق قوى الثورة واطلاق طاقاتهـا المبدعـة المقوضة لبناءات قلب العالم القديـم المتهافت حتما وبالضرورة ـ امام تعاظـم زحف جحافـل انتصارات الاشتراكيـة العلميـة الى كل الجهود المحاربة المشيـرة بكـل اتهـام ، لآفات هذا التراث الغيبي الاسطوري ، وكافـة منتجاته ـ السلعية ـ الروحيـة .

مقدمـــة أولى

مدخل لدراسة الحكايات الشعبية العربيــة

اذا كان الهدف الاخير لهذه الدراسات في حقل الفولكلور ، واخصه الحكايات والقصص ــ واشلاء ــ الاساطير من خرافية لطوطية ، لشعائرية، لتعليميــة .

هو اعادة التعرف على طفولة وتطور وتحولات المخيلة البشريــة ، بهدف اعادة صياغة الانسان العربي المتقدم الجديد ، الذي لا بد وان تشكل مثل هذه التركة المتوارثة المتواترة ، جوهر بنيته ــ الفوقية ــ الثافيــة ، بالمعنى المتفق عليه ــ انثروبولوجيا ــ اي بالمعنى الحضاري الشامل لكـــل ممارســة اخلاقيــة وسلوكية ، بدءا من ــ شعائر ــ الجماع والطعـــام والتطهر ، وانتهاءا بالممارسة السياسية على طول الكيانات العربية ، والتــي فيها وعبرها تتفجر اقصى طاقات الخلق ، عبر كلا الفكــر والفعل المكتمــل والمتحقق فــي الثورة .

فحصيلة مثل هذه التركة الفولكلورية ، ولنقل الماضي الحي ، ما هي سوى « الحياة الواقعية » بفجاجتها وبهيمتها ومأساويتها في ذات الآن .

ففي اعادة الصحوة ، لسلبيات مثل هذا التراث قبل الايجابيـــات والقوى الدافعــة القادرة على تحويل جدلية الممارسة الحاضرة الى ممارسة اجتماعيــة واعية ، مجالهــا الاخير هــو التنميــة والتحولات الاجتماعية

والتنوير .

وهو ما حدث بالنسبة للعالم المتحضر ، شرقا وغربا ، منذ ان ارتاد الاخوان جريم هذا الحقل ، اي الفولكلور ــ كنواة علم ــ خاصة في موسوعتهما المعروفة المتصلة بدراستنا هذه عن الحكايات الفولكلورية العربية ، وهي حكايات الاطفال والبيت وكتاب « الادا » و « هنريش المسكين » ، وهي الكتب الثلاثة الهامة التي شهد صدورها مطلع القرن ١٩ عصر الصناعة الحديثة المصاحبة للتنوير ، في الغرب عامة .

فالملفت ان هذين الاخوين اعتبرا منذ مطلع القرن الماضي ، الحكايات الشعبية حطام اساطير ، او بقاياها واشلائها المتأخرة .

وهذا صحيح الى حد كبير ، اذا اعتبرنا ان الاسطورة ، ما هي سوى مرادف للدين ، والقوى العلوية السماوية لعالم الارباب والطواطم والآلهة .

ونظرا لحلول الاديان التوحيدية ــ من يهودية ومسيحية واسلامية ــ توارت اساطير ــ ما قبل التوحيد ــ لعالم الآلهة وقواها السماوية، ومن هنا تستر الآلهة ، تحت جلد الملوك والحكام ذوي البصيرة الخارقة ، كما يتضح في جانب كبير واضح من حكايات وفابيولات هذا الكتاب .

فاذا ما اعتبرنا الفولكلور صدى للماضي ، الا انه في ذات الوقت ــ صوت الحاضر المدوي .

انه الماضي الحي ، بوظيفته الاجتماعية والاحتجاجية ، كانعكاس ومعادل للصراع الطبقي وسلاحا له كما يقول يوري سوكولوف .

لكن على ان هذا السلاح ، سيكون في صف الثورة مرة ، ومعاكستها الثورة المضادة في معظم المرات ، ولنقل التوالي التاريخي ، وتواتر جزئيات هذا التراث المتوارث تحت مختلف المؤثرات والمعوقات والضغوط ، سواء أكانت العادة وثقلها ، او اللغة وسحرها كوعاء او علامات كلامية ، هي في احسن حالاتها واحوالها ، تلعب دور الحارس الماثل على الدوام ، في حفاظة على البنية الاسطورية ، وبالتالي الخرافية وبالتالي ــ اكثر ــ الاجتماعية الطبقية .

واذا ما جرى سريان هذا القانون العام بالنسبة للغة ــ اللغات بعامة ــ فانه ينطبق ــ بدقة ــ على لغتنا العربية التي ــ كما نعرف جميعا ــ مكبلة بالاسطورة واعرابها قلبا وقالبا ، منذ ذلك التاريخ ــ الخرافي ــ

الصاحب ليعرب بن قحطان (١) ـ اول من تكلم العربية ـ ابو العرب الساميين .

كما ان من بين عوامل ومؤثرات توالي الاستمرار ـ لصدى الماضي ومخلفاته عبر الحاضر الآني الماثل وما يزخر وينخر فيه من خرافات وخزعبلات ـ للحفاظ على بقية الابنية ، من قرابية اتصالية ، الى اجتماعية طبقية . الى عمودية فئوية عنصرية طائفية ، الى نوعية تتصل بعلاقات الرجل بالمرأة ، بدءا بالسيادة للذكر ، مرورا الى الميراث ، وتربية الاطفال وتنشئتهم ، وهو ما اكتمل في البنية الاسرية .

ولعل اقرب مثال يمكن طرحه بالنسبة لواقع الشارع العربي ـ ولنقل السامي ـ واحداثه الدامية بل مهاتراته ، اليوم والآن ما يفضي بالضرورة مشيرا في اتهام الى ازمة حضارية ماثلة ومحققة .

ففي كل الحالات والازمات يطل هذا التراث ـ جاثما ـ من خرافات وخزعبلات وحكايات وحواديت ، وامثال ، وفابيولات تجري على السنة الطيور والحيوانات والزواحف والحشرات ، انتهاءا بالجراثيم ، وهو ما سنقدم بعض نماذجه وقصصه النمطية ، او المعاشة التي توصلت الى جمعها ، مع اخضاعها للمقارنة والاحتكاك مع بقية النماذج والتنويعات العربية (١) ، في الاطار الكوني .

وعليه . يحسن بنا أن لا نتأفف ونضجر من بشاعة او سذاجة النماذج المنشورة سواء تلك التي توصلت الى جمعها من افواه الناس ، خاصة فلاحي مصر ـ الوسطى ـ على مدى ربع القرن الاخير ، وظلت حبيسة عندي في انتظار تراكم عينات تجيء من مختلف بلدان الوطن العربي، لا من المنطلق القومي فحسب ، بقدر ما ان الغاية هنا علمية . ذلك ان اي محاولة دراسية لهذا التراث العربي اولا ـ والسامي في المحل الثاني ، لا تجيء على المستوى القومي ، تجيء مبتورة محبطة . فالوحدة الثقافية والتراثية تجيء في المقام الاول كنتيجة حتمية للوحدة اللغوية ـ للفصحى ولهجاتها ـ سوى من بعض السمات والخصائص التي يتطلبها الموقع العربي بين الشرق والغرب او بين العواصم الاسيوية ،والافريقية،

---

(١) مع الاخذ في الاعتبار ان تسمية العرب ـ بحسب المنطق الصوري ـ التجريدي لسمية لغوية : عرب ، يعرب ، اعراب ـ الخ .

(١) برغم اخفاقي في الحصول على نماذج كافية ، خاصة بالنسبة للمغرب العربي : ليبيا وتونس ، الجزائر ، المغرب .

والاوروبية ، بالاضافة الى سمات البحر المتوسط بعامة .

لذا فان محاولة الدراسة لهذا التراث ، تتسم بالوعورة المرهقة ،من جانب ، ومن الجانب المقابل يتطلب الامر ، الاحاطة بالحضارات التي اقيمت على ساحات قلب العالم القديم ومؤثراتها ، من حضارات سامية لفرعونية لفارسية ـ آرية ـ لهلينية ، ورومانية ، وبيزنطية ، وتركية ـ وهكذا .

ذلك اذا ما توفرت الرغبة في اعادة المعرفة اليقينية بدور وحجم هذا التراث من فولكلوري وشعائري معط او منزل متوارث ، بلا مخاوف ومحرمات ومغالطات تجيء بها محاولات دراسية ادبية او حلقية او عنصرية (غير) علمية ، وغير مستوعبة لما انجز في هذا الحقل ـ ـ الاثنوجرافي ـ منذ قرون ، بمعدلات متوافقة طبعا ، مع منجزات العلم الطبيعي .

ففي توافر المواد لعينات ونماذج الحكاية الفولكلورية بافرعها المختلفة من شفاهيات البلدان العربية ، ما يوفر اتاحة الدراسات المقارنة للحكايات الشعبية العربية على المستوى القومي العربي ، دون عزلة ولنقل مغالطة عن مقومات البنية السامية التي نحن جزء جوهري منها ، بخصائصها القبلية الحلقية المحددة السمات ، والتي لا تبعد كثيرا عن جذور ومكونات المخيلة السامية ـ المتفق عليها ـ وحضاراتها ، منذ السومريين اللاساميين الالف الرابع ق.م ، وورثتهم البابليين والكلدانيين ، والاشوريين والكنعانيين والفينيقيين والعبريين والعرب ـ البائدة ـ الجاهليون وغيرهم .

فمن المتفق عليه ان روافد وقنوات المنطقة العربية او السامية القديمة ، لن يتكشف ويتبلور ملمحه الفولكلوري والتراثي بعامة ، الا تبعا لايقاع المستقبل وتوالي المزيد من عمليات الكشف الحفري الاركيولوجي ، للتراث السامي الام والمنبع ، بما يسهم بالتالي في اضاءة جوانب فولكلور وتراث عالمنا المعاش اليوم . كما انه في مقدور هذا المعاش اليوم ،اناره جوانب الماضي التاريخ .

ولعلني مقتنع برأي عالم الفولكلور الفنلندي انتى آرني Arnee في قصر الدراسات الفولكلورية على مجالها وحقلها ، قبل النظر اليها كعامل ـ جانبي ـ مساعد لحقول اخرى مثل الاساطير او الشعر الملحمي ـ مثلا ـ وهو ما يؤخذ على الاخوين جريم ، خاصة يعقوب ، الذي اعتبر الحكايات الخرافية الشعبية « ذات اهمية لفهم الشعر

والاساطير والتاريخ القديم »وهو بالطبع راي سديد ، في حالة الاخذ في الاعتبار ان لهذه الحكايات الخرافية دورها ـ لذاتها ـ القاصر عليها وعلى مشاكلها وقضاياها لذاتها .

من ذلك ان الحكايات الشعبية يمكن ان تكون بلا فائدة تذكر ، ما لم يكن تاريخها قد تقرر خلال الفحص والاستقصاء المقارن . وبالطبع لا يمكن عقد هذه المقارنة دون توفر وتراكم الجزئيات Motifs او عناصر واحداث الحكاية الشفاهية ـ والمدونة ـ الفولكلورية بانواعها وانماطها وتصنيفاتها المختلفة . خاصة التصنيف المعدل المتفق عليه لعالم الفولكلور الامريكي سيث تومسون ، الذي نشره في قاموسه ـ الفهرست ـ طرز الحكاية الشعبية وقسم فيه الحكاية حسب موضوعاتها الى خمسة ابواب و٣٢ مدخلا . ذلك مع الاخذ في الاعتبار الجزئيات او العبارات او التضمينات المتناثرة لكل حكاية ، وتصل الى اعداد بالغة الضخامة ، فيقدرها البعض ، مثل كراب. بانها تزيد (١) على العشرة آلاف جزئية ، ومنها بالطبع ما هو ثابت، وما هو مستحدث مستجد ، امكن للدراسات والمناهج الجديدة ،رصد التوزيع الجغرافي ، لمختلف انشطته الفولكلورية ، سواء أكانت حكايات خرافية ، او حكايات فشر من امثلتها :

ياليل ياعين ما عرفش أكذب .
« والضفدعة راكبة مركب »
« وابو فصادة حارسها »
« والقط لسود ريسها »

أو كانت حكايات جان وعفاريت وعالم ما تحت الارض ، او كانت حكايات هزلية ، أقرب في تعميمها الى النكات والقفشات والنوادر ، المرتبطة اكثر بالحياة اليومية وضغوطها . فهي غالبا ما تتندر بغياب العدالة ، والقضاة المرتشين ، والحكام السفهاء ، والوزراء الحمقى ، وافعوانية وتهافت ونفاق المشعوذين وتجار الاديان وخصيان السلطة .

فمثل هذه الحكايات الهزلية قد تخلو من عناصر الخرافة والخارقة، واذا وجدت فهدفها بلورة الموقف الانتقادي الساخر ، وخير مثال لهذه الحكايات : حكايات ايسوب ، والديكاميرون لبوكاشيو .

واقدمها أوديسة هومير الذي سخر من آلهة الاولمب الى حد

(١) علم الفولكلور ـ كراب رشدي صالح دار الكاتب العربي القاهرة ٦٧ .

المسخرة ، وبلاوتوس ـ الجندي المجيد ـ والمؤرخ الهليني اليهودي فلافوس يوسيفوس ـ وبوكاشيو ـ في ليالي الديكاميرون ، وسترابا رولا في العصور الوسطى .

وحتى لا نخرج على موضوعنا ، نعود الى تأكيد ان قنوات رصد مختلف افرع الحكايات الفولكلورية ، شديدة التخصص ورصد الجزئيات او العبارات او المقولات الرئيسية ، التي كما ذكرنا تصل الى آلاف مؤلفة منها : سكك السلامة والندامة ، واللارجعة ، وتحولات الانسان الى حيوان ، والجارية او الزوجة المضطهدة ،مثل هاجر، وراحيل (١) ـ ام النبي يوسف ـ ورجم القردة والحيات والقنافذ ـ غنم سيدنا شعيب ـ الزانيات ، وكذا تحولات سحر الشبيه ـ او الشبشبة ـ الذي ينتج الشبيه ، وتأثير الاشياء المتصلة في بعضها البعض عن طريق الاثر او الاتر (٢) ، كوسيلة لاخضاع الظواهر الطبيعية ، وكذا سحر المشاركة والتمثل او التوسل بالضحية ، او خروف العيد ـ الكبير ـ والتضحية بالابناء فاتحي الرحم ، وكذا الاطفال الموعودين الذين تصاحب الخوارق او الكوارث مولدهم ، مثل ابراهيم ويوسف وموسى وسمير اميس ، واوديب والمئات غيرهم .

خلاصة القول انه اصبح اليوم في مقدور اي باحث ان يرسل في طلب منوعات اي فكرة او جزئية محددة او عينية من احد المراكز الدولية للفولكلور لتصله على الفور هذه المنوعات ومترادفاتها على مستوى القارات الخمس ، يكفي ـ مثلا ـ ان تطلب منوعات جزئية الاطفال الموعودين .. وكذا ما يتصل بطرح الطفل حديث الولادة في الماء ،للتعرف على شرعية تملك الطفل ، حين يطفو على وجه الماء ، وما يتصل برجم الحيوان ـ الثور ـ النطاح او الزاني ، وقدح يوسف ، وقراءة الفنجان والمندل ، ودق النواقيس والاجراس ، وفولكلور المعادن ، والاشجار والطيور والحيوانات ، وجلد الماعز ، ودم الحيض ، وتقديس الارقام (٥ ـ ١٢ ـ ٧٢) والطهارة والنجاسة ، والاستنجاء ، وتقديس عتبات البيوت ، والاحجار ، والجهة ـ مثل القبلى ـ واربعة اركان التابوت ،او الجهات الاربع ، او الاقطاب الاربعة ، وكذا الصيام ، والعدد واقلاله البركة .

---

(١) راشيل ومن اسمها اشتقت تسمية اسرائيل .

(٢) الاثر او الاتر . تعبير شائع من السحر والشبشبة .

وكذا الختان ، واخذ الوش ــ غشاء البكارى ــ والثنائيــة او صراع النور والظلمة ، وخرافات الجان والعفاريت والهواتف والنداهات، وحكايات اللصوص والشطـار وذوي العاهات والابطال الخرافيين ، او المغامريـن النزقين الذيـن يغلب عليهم الذكاء وسعة الافق والحيلـة ، وهي خصيصة يتميز بهـا فولكلورنـا المصري والعربي ، فـي اطـار فولكلـور البحـر المتوسط بعامة .

ومن هنا تشتد الحاجة الى محاولة وضع تصنيف للحكايات العربية، من منطلقها الاشمل اي العربي السامي، مع مراعاة الخصائص والسمـات القومية المميزة، سواء تلك التي جرى الاتفاق عليها، ممن تعاقبوا عـلى دراسة فولكلورنا وكذا شعائرنا ، منذ روبرتسون سميث ــ وموسوعتـه عن الاديان السامية ، ونولدكه ، وتيودور بنغي حتى روبرت جريفز ،وليفي شتراوس وتباعا حتى سميث وغيرهم . ،

كما تجدر مراعاة الخصيصة الاستراتيجيـــة او الجوهرية لهـذا التراث القبلي المحمل ببذوره ومكوناته الاولى الفاشية العنصرية، فـي تشريعها بل تقديسها للحرب والابادة وصراعات تملك المياه (مـن ابـار ماء، لانهار، لمجتمعات زراعية) وكذا صراعات الهجرات وتملك الارض او الحما، والتوسل من اجل هذا باساطير ارض الميعاد، التي لم يبرأ منهـا شعب او قبيلة او رهط او جماعة، من كيانات وحضارات الشرق الادنى القديم، خاصة بالنسبة للمجتمعات البدوية الرعوية، في اليمن والجنوب العربي او الجزيرة العربية بعامة ، دون اغفال لاسطورة ارض الميعـاد ــ العبرية ــ ، وما ترتب عليها من اغفال للحق التاريخي لارض ــ شعـب ــ فلسطين (١) .

وعلى هذا فرضت على هذه الخصيصة القبائلية ان أولي اهتماما مفردا لها من حيث التصنيف للحكايات ــ القبائلية ــ الاسرية او القرابية، بدءا مـن حكايات وفابيولات انا وابن عمي على الغريب و «انصر اخاك ظالمـا او مظلوما » ومرورا ، بم فات قديمه تاه وانقطع ، وكيف ان الغربـة عـن الحما ــ حما القبيلة ــ الذي اتفق على حدوده الامنة بسماع نباح كـلاب القبيلة ــ تقل الاصول وتزول . مع ملاحظة ان الحما هو بذاتـه ــ مـا

(١) فاستنادا الى هذه الاسطورة ، ماطل المفاوضون الاسرائيليون وعلى راسهم الارهابـي الصهيوني مناحم بيغن ، بادعائه الملفق لارض فلسطين باسم يهودا والسامرة باعتبارها جزءا من ارض الميعاد ، او وطـن الميعاد الخرافي ، كمنتج غيبي اسطوري .

اصبح ـ الوطن بمفهومه الحلقي المحلي، للكيانات والمجتمعات الصغيرة المغلقة، بسماتها .. من قرابية عشائرية لعنصرية طائفية .

بل ان هذا الملمح القبلي لفولكلورنا وحكاياتنا هذه ، بالاضافة الى الملاحم والسير بخاصة، فرض وجود بطن او فخذ من داخل كل قبيلة ورهط وكيان، يحفظ لها انسابها، التي غالبا ما تنتهي عند شيت (١) ابن ادم «الذي عنده تنتهي انساب جميع البشر» .

وهو بالطبع ملمح او خصيصة لا يقتصر علينا ، بقدر ما هو منسحب على العالم القديم برمته، فاهل نيوزيلنده القدماء لديهم ـ كما يذكر كراب ـ من تخصصوا في حفظ الانساب القبائلية، ونفس الشيء بالنسبة للقبائل العبرية، وقبيلة الماجي ـ المجوسية ـ عند القبائل الفارسية، ثم النسابة العرب .

وطبيعي ان يرتبط بالقبلية والعشائرية ، تقديس مطلق للارض والدم والثأر، ونظم التوريث وحفظ النسل، والزواج ـ من داخلي لخارجي وابوي بطركي ، لاموي ، وما يتبع هذا من الاخذ بنظم تقويمية او قمرية كما يشير بهذا الفولكلوريون الانثروبولجيون، وهو ما لا يزال ساريا بالنسبة للتقويمات العربية الاسلامية القمرية او الهجرية، وكذا العبرية.

كما يرتبط بهذه القبائلية وسماتها المحددة، الاغراق في تقديس الاسلاف الموتى ، من الاباء والجدود، الى حد العبادة، او ما يعرف بعبادة الاسلاف وتمثل وصاياهم ، ورموزهم ـ راس ادم ، تابوت العهد ،عصا (١) شعيب ـ حمو موسى ـ وموسى ، قميص يوسف، قميص عثمان،الصليب شارة الهلال ـ وهكذا .

ولعلها آفة السلفية المصاحبة لحضارتنا هذه القبلية العربية والتي تطل براسها مفرطة في هذه الحكايات، وتدفع بنا لا شعوريا اليوم الى طبع الماضي على الحاضر، على طول الكيانات العربية . فهي بذاتها «المياه الجوفية » ، والتي بمثابة الاوبئة،التي كلما تفاقم طفحها تزايدت معها صداماتنا الطائفية العنصرية العرقية، واستغلت كمنتجات روحية ، ومقدسات .. لمختلف الاغراض الطبقية السلطوية .

فتستخدم ـ آفاتها هذه ـ اشد الاستخدام من جانب الطبقات

---

(١) والذي ينسب له ايضا انه كان اول من عرف الكتابة ، ويتوحد في الميثولوجيا العربية والاسلامية ، بالنبي ادريس ، واسمه كما يلاحظ مشتق من درس وتدريس.

(٢) نبي او طوطم سلف القبائل السينائية ، في سيناء ، وكان القنفذ حيوانه المقدس .

السلطوية على طول عمليات التضليل التاريخية الى ايامنا وواقعنا الماثل.

وتجدر ملاحظة مدى الحفاظ على هذا التراث . الذي يتغلف جانبه الروحي ـ الانيزمي ـ متسترا بالتقديس ، بل هو بذاته ما تسرب الى الثقافة الرسمية، وسخرت له اجهزة الاعلام (١) ـ الاليكترونية ـ التي من مهامها الاولى ، التخلص من براثنه والافلات من اسره وسحره الدفين وجمالياته الخادعة المغيبة لكل حس تطوري بروليتاري .

فمن الثابت ان الفولكلور لعب الدور الرئيسي في ادب القرن الثامن عشر، اما في القرن العشرين فكل مدرسة ادبية جديدة يمكن ارجاعها الى الفولكلور : الرمزيون ، المستقبليون ، الخياليون ، هذا في الغرب ، فما بالنا بما خارج الغرب ، اي عندنا على المستوى العربي بخاصة.

فاذا ما كان احد اهتماماتنا بالنسبة لفولكلورنا العربي، هو مدى انعكاس الحياة ومفهوم العالم فيه، ومن منطلق اكثر حيادية وتدخلا، مما تسمح باباحته المدرسة الديمقراطية الثورية السوفيتية ، في مغالاتها بحثا عن التعابير الكاشفة لعوامل الاحتجاج والثورية في الفولكلور .

ذلك ان الحيادية، ولنقل افتراض الشخص الثالث، كما يعرفه جان جاك روسو، وبعده كلود ليفي شتراوس ، تتيح للباحث التوصل الى نتائج اكثر ايجابية في محصلتها النهائية، وان كان مدخلها هو افتراض السلب، بهدف الوصول الى سمات لموقعنا الحضاري، اقرب الى ما توصل اليه ، لويس مورجان ـ المجتمع القديم ١٨٧١ ـ في تمييزه بين الفترات الاثنولوجية : الوحشية البربرية المدنية ـ وكيف ان الوحشية والبربرية ما تزال ترتع تحت جلد عالمنا المعاصر . وان المؤسسات المنزلية لاجدادنا من المتوحشين، ما زالت امثلتها موجودة في اجزاء من العائلة الانسانية بالتمام والكمال الى ايامنا .

ولعله بذاته ما لا نزال نعايشه على طول الكيانات العربية، خاصة الاوطان والمجتمعات الاكثر جدبا وفقرا، وتعكسه حكاياتها وفابيولاتها ، سواء على المستويات الوحشية، ولنقل الحيوانية، سواء في تقديس الحيوانات من حمير ـ الهة ـ (سنفرد لها فصلا خاصا) لماعز وكلاب ، وجمال . مرورا بالطيور من ، ابي قردان، للغراب النوحى، وهدهد سليمان وحمام الارض الموعودة، وحمامة الايك، ثم الزواحف والحشرات، من سحالى وعناكب، وضفادع، خاصة الحيات، التي ما تزال تحمل لها

---

(٢) من راديو وتلفزيون .

المأثورات والتعابير الشفهية ـ التسمية الاولى التي عرفها بها جلجاميش. حين اطلق عليها بعد سرقتها لماء الحياة او نبات يعيد الشيخ الى صباه ـ منذ خمسون قرنا ـ : اسد التراب .

الحكايات الطوطمية

فما اكثر تردد جزئية او فكرة علاقة الانسان بالحيوان وزواحف الارض من ثعابين وابراص وحيات، خاصة تلك ـ الحية ـ التي يتعرفها بطل الحكاية او الخرافة ، حين يصادفها تخون زوجها ـ الثعبان ـ وتزني، فيقتلها او يرجمها، فيكافئه زوجها او حبيبها، وقد يدله على كنز، او ينقذه من اسر او شر يلحق به .

ولعل الخرافة التي جاءت بها المصادر العربية المدونة ـ الاغاني ٢٣ـ٤٠٥ـ٤٠٩ بيروت ، وعجائب المخلوقات ص ٢١٥ القاهرة ١٩٥٦ ، عن ذلك الشاعر الجاهلي عبيد الذي اتاه الهاتف في المنام بكبة من شعر (١) ـ بفتح الشين ـ القاها في فمه، فقام يرتجز الشعر . مع ملاحظة العلاقة بين الشعر والشعر ، التي لا تهمنا هنا،سوى ان عبيدا هذا اصبح شاعر بني اسد، وكان يسير في قافلة «وهم بشجاع يتمعل على الرمضاء فاتحا فاه من العطش،فنزل وسقى الشجاع حتى روى وانتعش، وانساب في الرمل .

والشجاع هنا هو ، الحية الفخمة، التي زارت عبيدا في المنام وانشدته شعرا، واهدته ـ بكرا ـ او جملا فتيا، انقذه ـ فيما بعد ـ من تيه الصحراء .

بل ان هذه الجزئية او التضمينة ـ لقتل الحية ـ او الثور (٢) ـ الزاني ـ التي حدد عمرها وموطنها الاول مهاجرة من المؤلف الهندي ـ الكلاسيكي ـ مونباتيكاريترام .

الذي عرفه تيودور بنغي ، وموقعه من تراث الحكايات الهندية ، وهو ما سنتعرض له في حينه .

فالاخذ بالثأر والانتقام ونداء الدم وروابطه السحرية ـ لا يقتصر على الانسان، بل يشمل الحيوان ويتبدى في الفولكلور العربي بكثرة

---

(١) لاحظ العلاقة اللغوية بين الشعر،والشعر التي تكشف عنها هذه الخرافة العربية.

(٢) « اذا نطح ثور رجلا او امراة فمات، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه» خروج ١٢:١٨ .

ملفتة وهو ما سبق للدارسين ، تتبع اثاره الهمجية والمعاشة في الخرافات المتبقية ، فحتى وقت قريب كانت تعقد المحاكمات ، لمحاكمة وادانة «الحيوانات التي تؤذي الزرع كالفئران مثلا،وكانت هذه الحيوانات تستدعي للمثول امام القضاء ، ويعين لها مدافعون عنها ، فاذا لم تحضر الفئران حكم عليها بالنفي او الحرمان من رحمة الكنيسة» .

وعلى هذا فالمزيد من الحيادية في جمع ودراسة التراث، هو ما سيوقعنا على الجوانب المظلمة البهيمية العاجزة في فولكلورنا، واخصه الحكايات الخرافية الحيوانية الطوطمية .

كما ان مثل هذه الحيادية ستوقفنا على التركيبات الاجتماعية وخنق ووأد الاطفال حديثي الولادة ، او فاتحي الرحم، ناهيك عن الموقف من المرأة ووادها بشكل جماعي في المجتمعات الصحراوية ، ليس من منطلق العفة والشرف، وتابوات المرأة ، بقدر ما هو الجوع والضنك ورعب الفاقة ، بما يدفع الى ـ ديانة ـ وأدهن كشكل من اشكال تحديد النسل الجماعي البدائي .

وبالطبع تعكس الحكايات السورية والفينيقية اللبنانية بشكل عام ، مدى قتل الاطفال ـ والى جوارهم اواني الطعام والشراب والتضحية بهم، ودفنهم احياء، في مقابر جماعية، وهو ما كشفت عنه الحفائر، والمباني والمنشآت العامة ولها تنويعاتها في خرافات مصر .

بل هي ما لا تزال متداولة الى حد انها تسربت الى قصص يوسف ادريس، عن تدشين اساس المباني بدم الاطفال الذبيحة، خاصة في حالات التعامل مع الآليات الحديدية . بما يحيل مثل هذه الحكايات ـ الشعائرية ـ الخرافية ، الى فولكلور الحديد والمعادن والمنشآت .

كذلك يضاف للحكايات الطوطمية، ويشكل جانبا كبيرا منها، حكايات الاشجار او ما يعرف في الفولكلور الاوروبي ـ بفولكلور الاخشاب، واستطاع الشاعر الانجليزي روبرت جريفز، رصد وحل ابجدية (١) الاشجار واخشابها .

ـ المناهج التي تعاقبت على دراسة الحكاية ـ

فاذا كنا نتعرض للمناهج الكثيرة المتشعبة التي تعاقبت على دراسة

---

(1) white godess .

الحكاية الشعبية ذات الميل الخرافي، منذ ان ارتاد يعقــوب جريم هــذا الحقل في كتابه « الميثولوجيا الالمانية » ومن خلفوه،لين مانهاردت ، ومايرِ، وموللر. لحين اكتمال المدرسة الانثروبولوجية ـ الانجليزية ـ بريــادة ارثر تيلــور وتلميذه اندرو لانــج مــع مطلــع قرننــا الحالــي من جانب ، ومن الجانب المقابل المدرســة الهندوآريـــة او الشرقية التــي ارتادهــا المستشرق الالماني تيودور بنغي ، الذي اولى اهتمامه للمعرفــة بأصــول ومنابع التراث الاوروبي، وقنوات هجراته، الى ان وصل بها الى الوحدة ـ اللغوية او الاثنوجرافية الهندو أوروبية ـ وهي العناصر المعروفة بالآرية في البنجاب وكشمير وراجبوتانا ـ والتي خلفت تراثها المعروف بالفيدا، اي المعرفة، واقامت دولة بهاراتيا، نسبة الى ملحمتهم الشهيرة المابهاراتيا(١)، التي امتصت معظم الجسد الفولكلوري والاسطوري الاسيوي ومنه الريج فيدا، او اشعار الفيدا .

اما الآرية فمعناها العشائر ، ذلك انهم عندما نزلوا سهول السنــد والجانج، نزلوا كعشائر قبلية، وعلى هذا النحو هاجروا الى ايران ثــم أوروبا ، ومن هنا تشكلت الرقعة ـ اللغوية ـ الآرية ، التي وصل حمــاس تيودور بنغي لها الى حد طرح الرأي القائل بانتماء معظم اصول الحكايــات المتداولة على رقعة العالم اجمع الى موطن اول أم، هو الهند .

وهو الراي الذي كبر الاهتمام به في ألمانيا ومعظم دول اوروبــــا الشمالية الى ان اكتملت معالم منهج ـ معدل ـ للمدرسة الفنلنديـــة ـ الفولكلورية ـ التي اصدرت منذ ١٨٤٠ اول جورنال متخصص ـ للفولكلور في العالم واتجه العلماء الفنلنديون منذ البداية الى محاولة ارســاء منهج متكامل حمل اسمهم فيما بعد، وعرف بمنهج « فنش للبحث والاستقصاء» وعن اصول المواد الفولكلورية خاصة الحكايــة ورائدهم هنا « انتي آرني » الذي نبه الاذهان الى ان على الفولكلور كعلم ان يرسي حقله المستقـــل المحدد ، ويعمل على انجاز مهماته في هذا الحقل ، لا ان يصبــح ـ مجرد ـ عامل مساعد او تابع لدراسة اي علم اخر خارج مجاله كالاساطير.

فهو اول من نبه الى اهمية البحث عن جذور ومنابع الحكايــــات النمطية ، من تاريخية وجغرافية ، كما اوضحت ، دراسة آرني ان لكــل حكاية مفردة، تصميمها الخاص بها، وموضوعها الموحد بالاضافة الـــى

(١) اطول قصيدة في التاريخ، ١٠٧ الف بيت شعر، من ابيات الشعر الثمانية المقاطع، وتتعرض لحروب قبائليــة موغلــة في القدم ، مثل سيرة بني هلال ..

الانتقادات القومية التي وجهها لنظرية تيودور بنفي ـ الشرقية ـ عن المنابع الهندية ـ لانماط الحكايات ـ فاثبت ان الكثير من الحكايات تنتمي لمختلف المجتمعات بعامة، ومنها بالطبع المجتمعات الاوروبية، منذ العصور الوسطى .

والقى آرني كثيرا من الضوء على تيه وهجرة وتبادلات وتزاوج ـ اجزاء ـ الحكايات الشعبية من الشرق الى الغرب .

وحدد الاشكال والملامح والخصائص المحلية للكثير من الحكايات النمطية .

كما انه استطاع ان يحرك زمن ومولد بعض الحكايات الشعبية من اقدم مصادرها ونصوصها الاثرية الحفرية ، الى ازمانها التاريخية المؤكدة اكثر .

من ذلك ان كثيرا من الحكايات ـ النصية ـ التوراتية التي تحدد عمرها بامكان العثور على ازمانها ، مهاجرة من اصولها الاكثر قدما ، سواء أكانت الدولة القديمة في مصر الفرعونية ، او تراث ما بين النهرين بعامة ، من سومري، وبابلي واشوري وفينيقي وكنعاني، او تراث الجزيرة العربية خاصة الجنوبي ـ القحطاني .

ويمكن القول بأنه كان للفنلنديين اليد الطولى في اكتمال النواة او اللبنة الاولى للمنهج الجغرافي التاريخي للبحث والتنقيب والاستقصاء عن موطن وعمر وهجرة المواد الفولكلورية وبشكل ادق هجرة وتغيرات هذه المواد او العناصر ، في ادنى جزئياتها التي امكن التوصل اليها وحصرها. فالحكاية التي نسمعها يمكن تقسيمها او تشريحها الى افكارها وجزئياتها الرئيسية ثم الجانبية او المساعدة .

من ذلك افكار خلق المراة من ضلع الرجل، وتوحد الخالق بالماء والبحث عن ماء الخلود، والرحلات العبورية، والضربة الواحدة للبطل «ضربة الرجال ما تتناش ـ لاتثنى ـ وهكذا .

فنظرا لغياب وافتقاد مثل هذا المنهج التاريخي ـ خاصة من جانب الدارسين العرب في حقل فولكلورنا ، ونظرا لما يتطلبه هذا من المام كاف بالشفاهيات ثم بالمدونات ـ الحفرية ـ لروافد الحضارات السامية ، المتتابعة التوالي الزمني التاريخي والتي لا ينقطع لها المجيء بالاكتشافات النصية الجديدة ، في معظم ارجاء الوطن العربي الذي شهد مولد الحضارات الاولى، خاصة فيما بين الرافدين .

نظرا لغياب مثل هذا المنهج، تتعثر محاولاتنا الدراسية في مجمل

انشطة وحقول الفولكلور العربي المترامية ، واخصه الحكاية التي تميزه، كواحد من اهم ثلاثة خزانات كبرى كونية .

ـ المعوقات والمناهج العربية المغلوطة ـ

يضاف الى مشاكل ومعوقات دارس التراث العربي، سواء فيما يتصل بضياع وافتقاد المصادر ـ الام ـ المدونة ، او تعددها ، او الجدب العام بالنسبة للدراسات النظرية والتطبيقية ـ الميدانية ـ كما وكيفا، اي من حيث غياب وافتقاد المنهج والنظرية العلمية الصائبة، التي عن طريقها تستقيم جزئيات ومكونات وديناميات تركتنا الفولكلورية العربية. ولتوقفنا على مدى ما يعلق بها من رواسب واثار بربرية ، عبودية ووحشية همجية، ما تزال تمارس متواترة هائمة بتمامها.

ويلي غياب النظرية العلمية الثورية في التعامل مع هذا التراث ، مشاكل الاهمال الذي تعانيه الجهود الميدانية لجمع اشلاء هذا التراث، باستثناء بعض الجهود المحلية العربية في العراق وسوريا وتونس والمغرب، والاردن.

فمشكلة قلة وندرة المواد الخام، التي تسهم حين طرحها للمقارنة، في المزيد من انارة طريق البحث والاستقصاء تأخرت كثيرا، على المستوى القومي العربي .

ثم تأتي مشكلة المشاكل المتصلة بالمناهج القاصرة المغلوطة، وما تفرضه من منع وتحريم، يصل الى حد الارهاب في بعض المجتمعات والكيانات العربية ، بالاضافة الى افتقاد معظم الباحثين ـ في هذا المجال للمنطلقات العلمية البديهية الا بعد ادراكها من العقل الغيبي، والمتجاوزة للمنتجات الروحية ، وتكبيلها المعوق للبحث المنهجي العلمي .

يلي هذه مشاكل المصنف ـ او الدارس ـ ذاته بازاء مواده ، نظرا للتداخل الشديد بين جزئياتها ـ من رئيسية وجانبية ، وهو ما يعرف بالتزاوج والهجرات الداخلية ، لاعضاء او جزئيات الحكايات . فتصل هذه الهجرات الداخلية الى حد التداخل بين جزئيات السير والملاحم مع الحكايات بانواعها ، فما اكثر حجم الجزئيات والتضمينات (١)

---

(١) بل ان هذه الجزئيات للحكاية الخرافية، او الانتقادية المزاجية، تعرفت عليها عام ٦٤، خلال نشري لمسرح الفلاحين لمدة اربعة اسابيع بجريدة الاهرام، لنصوص الكوميديات المرتجلة ـ ١٦ نصا مسرحيا ـ لحكايات خرافية ممسرحة، يجري تقديمها فيما يعرف بالافصال، او الفصول المضحكة .

المهاجرة من السير والملاحم والقصص الشعرية الاستطرادية ، الى الحكايات والخرافات المحلية ، والعكس طبعا اكثر دقة .

ومن هنا فأي محاولات للتصنيف والأرشفة ، قابلة على الدوام للتعديل والاعادة ، سواء بالنسبة للحكايات النمطية ، او لجزئياتها . كما ان من الاجدى والاكثر تصويبا ان لا نتمادى في الاخذ والنقل الجاهز لما انجز في مجالات التصنيف والارشفة والتنميط ـ بالذات ـ فالمطلوب هو ما يفيد حركتنا العربية الوليدة ، وكذا بالنسبة للتمييز بين الحكاية الخرافية وما يشاكلها من انماط اخرى ، من حكاية يطلق عليها شعبية ، واخرى للبطولة ، وثالثة ـ اسطورية ـ تتصل بالعوالم الفوقية للالهة ، ثم الحكايات الطوطمية التي تجري على السنة ابطالها وشخوصها من حيوانات وطيور وزواحف ونباتات ، وهي ما تعرف بالفابيولا فهي مأثورة حيوان او نبات لها غرضها الاخلاقي ، ومن خصائصها قصرها ، ودقة بنائها وتصميمها المنسق مع مضمونها التعليمي ، وهي هنا اقرب الى المثل المتداول ، واشهر انماطها حكايات ايسوب، ولقمان الحكيم ، خاصة مع اسرة التسعة الشهيرة ، وكذا حكايات ومأثورات فراعنة مصر ، ونماردة العراق ، وعمالقة فلسطين .

صحيح ان من واجبنا في محاولة البحث المنهجي لفولكلورنا وتراثنا العربي ، عدم اغفال ما انجز في هذا العلم ، من مشاكل التصنيفات والمناهج ،بدءا بجهود الاخوان جريم وسيث تومسون ، والمنهج الفنلندي ، والمدرسة الشرقية ، والجهود الايرلندية . الا ان كل هذا لا يبعدنا عن نقطة انطلاق عربية في محيطها السامي، لاعادة التعامل مع التراث ، بما يحقق فائدة ، اكثر قومية واكثر تجاوزا لما سبقنا من جهود ، واخيرا بما يحقق فائدة اكثر مباشرة لما نعانيه من قضايا التنمية واخصها العقلية .

فلتكن نقطة الانطلاق المتخلصة من شوائب ومعوقات الذهن الغيبي التهويمي ، المنتكس في كل حالاته ، والمحبط بمخاوف تدفع به الى كل اختباء ورومانتيكية وهروب . وليكن واضحا ان هذه الثقافات المتبقية او الموروثات ، هي بذاتها ما تشكل الجانب الاعظم حجما وكيفا بالنسبة للتراث العربي بعامة ، وعيون كلاسيكياته وشعائره ، مرورا بأدبه ـ الرسمي ـ الوسيط والمعاصر والحديث .

بل هي تشكل مجمل البنية ـ الانيزمية الطقسية بديناميتها وادق خلجاتها . بدءا بتعاويذ وايماءات الشعائر اليومية ، وتابوات الطهارة

والنجاسة ، والمرأة الطامث ، ـ والطفل حديث الـولادة ، والاتصالات ، ومنهـا مصافحة (١) الرجل الطاهر للانثى في عمومهـا ككائن نجس ، كما هو معروف ومتفق عليه خرافيا .

باختصار فكمـا اوضحت في محاولاتي الدراسية السابقـة لهـذا التراث ، من المدخل النظري ، اميل الـى استخدام بعض المناهج الاكثـر احقيـة وفائدة ، ومنهـا المنهـج البنائي . في شمولية فهمه للظاهـرة وابعادهـا وعلاقاتهـا المتشابكـة ، وابرزهـا بالطبع التركيبات الاجتماعية الطبقيـة .

ـ البناءات الطبقية ـ

وهي كما يتضح خاصة في الحكايات السودانية والعربيـة بالمعنـى الجغرافي ـالجزيرة العربية ـ تضرب في العبوديـة والبربرية ، وان كانت تستبدل هذه العبوديـة في مصر ـ بعلاقات السخرة التي عرفتهـا مصر علـى طـول تاريخهـا .

ففي النماذج السودانية ، عادة ما يصحب البطل او الشاطـر خلال رحلاته وافعاله ـ عبده ـ الذي قـد يحل محـل البطـل فـي التنكر والحيل والمآزق . وفي حكاية « النيتو » ، يقوم العبد باقتحام الصعاب ، تلبيـة لاوامر سيده ، فـي معرفـة حبيبته ـ النيتو ـ ويعـود ليصف لـه محاسنهـا .

اما العبد المصاحب للحبيبة ـ النيتو ـ فانه يتطلب من الحبيـب « قنطارا من الذهب مهرا لها » .

وفي نماذج سودانية اخرى ، عادة ما يضطلع العبـد بدور الراعـي المكلف من سيده بذبح الابنة ، او اطلاقها لوحوش الجبال او البريـة كما ـ نلمسه في النماذج الهلينية ، والايجية والفينيقية .

ففي حكاية « فاطمـة البريئة » ، يصطحب العبـد فاطمـة ـ التي كادت لهـا زوجة اخيهـا واتهمتها بانها حملت سفاحا ، لكي يذبحهـا ـ العبد ـ ويملأ القدر من دمهـا ويسد فوهته باصبعه كما امـره سيده » .

---

(١) فالاتصال الجسدي هنا بالمصافحة ، ينقض او يفسد التطهر ، مثله مثل المضاجعـة ، وما تستلزمه من اغتسال جسدي، والا اصبح كلا الطرفان تحت التابو، الذي قـد يوجب القتل والكوارث القدرية، وللاستـزادة انظر باب «التابو» في كتـاب « الفولكلور والاساطير العربية دار ابن خلدون ـ ٧٧ » .

لكن العبد يتركها الى ان تلد عجلا ، بما يشير من جانب الى ان ثمة علاقة حيوانية او بهيمية بين فاطمة والعجل ، ومن جانب ثان الى ملامح العلاقات العبيدية ، التي عادة ما تستبدل بالخدم ـ السخرة ـ في النماذج السورية والمصرية .

اما في حالة تبدي العبد في النماذج المصرية، فهو عادة شريرا منازعا للبطل كما في «دبايح المحرقة» حيث يسرق العبد ابن سيده ـ الموعود ـ الذي تنبأت له جنيات البحر، بانه سيكون « كامل العقل، وكل ما يطلب ينول» . ويمضي العبد يأخذ مكان سيده الى ان يتزوج بعروسته ابنة الملك، التي تنقذ حبيبها في النهاية ، حيث ينقلب العبد الى بغل».

فملامح العبيد في الحكايات المصرية تتبدى شريرة، بما يشير الى انهم اسرى، اكثر منهم عبيد «فلم يثبت وجود العبودية في السجل الاركيولوجي لمصر في ما قبل التاريخ،وحتى في العصور التاريخية المبكرة، رغم استخدام الاسرى كعبيد» كما يشير جوردون تشايلد .

اما الاستثناء الوحيد للبطل ـ العبد الصالح، فيتبدى في الصراع بين الفراعين ـ وليس الملوك ـ كما في حالة موسى والعبد، الذي كان يقهره سيده ـ الفرعون ـ بعد ان حبسه في طاحون او هودية ، الى ان حقق ـ العبد ـ انتصاره الاخير، بان اخذ مكان الملك الفرعون الظالم .

وهي خرافة كما يتضح من شخصياتها وجزئياتها، وما داخلها من مؤثرات عبرية سامية، من ذلك شخصية موسى ـ كبطل شعبي ـ وتوحد العبد بشمشون ، والاسر داخل الطاحونة. وهو ما سنتعرض له في الفابيولات الموسوية .

مع الاخذ في الاعتبار ان غياب العبيدية من البنية الطبقية الجوهرية للمجتمع المصري منذ عصوره المبكرة، لا يعني استبعاد العلاقات والتركيبات العبودية، ذلك ان ـ فلولها ـ موجودة منذ اقدم العصور ممثلة في الاسرى والنوبيين ، حتى اسرة محمد علي ، سوى انها غير مؤثرة في البنية الاقتصادية المصرية، بالقدر الذي تشكله مثلا في بقية الاجزاء والكيانات والحضارات العربية، خاصة الجزيرة العربية، وما بين الرافدين والسودان وهو ما تعكسه حكاياتها .

يضاف الى هذا ان بنية المجتمع المصري، تشير بوضوح فيما يعكسه فولكلوره وحكاياته هذه المنشورة، الى ما هو افدح من العبودية، وهو نظام السخرة الذي عبرت عنه قوة العمل المعجزة التي اقامت « حضارة السخرة» الحجرية الانشائية، من اهرامات ومعابد ومقابر على طول وادي النيل.

فهي قوة عمل جماعي تقودها اسواط المشرفين وتستخدم في قطع الاحجار الجلمودية الجرانيتية ونقلها من اقصى مصر العليا، الى الوسطى ــ الجيزة، واهناسيا والفيوم ــ بل وحتى فاروس او الاسكندرية القديمة، اي بدءا من اسوان حتى الاسكندرية .

بل لعلها هي ذات قوة العمل الجماعي التي حفرت قناة السويس، وبقية اعمال السخرة التي ما زالت ماثلة في الوجدان الشعبي الجماعي لمعدمي فلاحي مصر، بل هي ما تزال ماثلة في عمال التراحيل حتى ايامنا.

فمن المفجع ان البنية الطبقية للمجتمع المصري ، بدءا منذ حضارات ما قبل التاريخ ــ الاسرات ــ في الفترات البربرية التي عثر على ملامحها ومخلفاتها في حضارات (١) ارمنت والبداري،والعمرية او الامارات (٢) ،

وجزوه ــ ببني سويف ــ والسمانية ،وهي ما تزال مخلفة مؤثراتها الى اليوم بالنسبة للتركيبات الاجتماعية، واحوال هولاء العمال السخرة الذين لم يكونوا، كما يذكر جوردون تشايلد « اختصاصيين متفرغين يعملون بالاجر، اي يتعيشون كلية من فائض الانتاج الاجتماعي المتمركز في يد الفرعون. فكانوا في الاغلب يأكلون ويلبسون على نفقة المستخدم ــ مقاول الانفار ــ طيلة وجودهم» الذي قد يمتد لسنوات .

اما الفرعون او الملك، فهو في كل الاحوال تجسيدا للطوطم والالهة، وبذا تحول العمل الاختياري ــ في العشيرة البربرية ــ الى سخرة اجبارية من اجل الدولة المشخصة في فرد ــ او الكل في واحد ــ مما دفع بالفرعون لان يأخذ مكان ــ الطوطم ــ السلف المقدس او الاله .

فلقد كان الفرعون بالطبع الها منذ ــ ما قبل التاريخ ــ ومنذ اول فراعين مصر «زير» و«زيت» في مقابر البداوي ــ منذ الاسرة صقر ــ التي اكتشفها ديزير في ابيدوس ومكانها اليوم العرابة المدفونة .

فلعل المكانة المتميزة الى اقصى حد لفرعون ما قبل التاريخ، ووضعه ــ المحاط بهالات التقديس والتابو ــ فوق المجتمع المصري، لعب اخطر الادوار على طول تاريخ مصر الاجتماعي والسياسي الى اليوم .

انها بمثابة ــ شعيرة ــ واصلت سريانها تحت الجلد ــ او السطح ــ لذلك السلف العشائري سليل الطوطم، الى ايامنا، للدولة المشخصة

---

(١) اكتشفها موندو مايرز عام ١٩٣٧ .

(٢) مع ملاحظة ما يتردد عن الامير والامراء، سواء في الحكايات الخرافية، او لغويا من تكريم وقدسية وجلال .

في فرد . كما انها تبدت بوضوح كاف في الفولكلور المصري بعامة ، والحكايات الخرافية المصرية التي نحن بصددها، في اطارها العربي القومي.

فاستنادا الى ميكانيزم الوراثة الاجتماعية ـ للتراث ـ وكيف انه اكثر سرعة بالنسبة لنظيره البيولوجي، يمكن القول بان التراث ـ الدعائي والاعلامي ـ للوضع الطبقي داخل مجتمع ما ـ خاصة مصر ـ واصل توارثه في تقديس ذلك السلف وريث الطوطم او الاله، وهو الفرعون او الزعيم ، الى حد اضفاء صفة القدسية على ملوك مصر القريبين (١) وكيف انهم ـ منسبين ـ وهكذا .

كما ان هذا التوارث ـ التراثي ـ واصل سريانه وتوالده الذاتي، في اتجاه اضفاء صفة القداسة والطهر على ملوك وامراء الحكايات المصرية، فهم في كل حالاتهم ملوك وامراء بسطاء طيبين منزهين «مكشوف عنهم الحجاب» يجوسون الاسواق متنكرين في ثياب مهلهلة حفاة، يتسمعون شكات المحتاجين، ويحققون رغبات الفقراء، ويطرحون الغازهم السحرية.

كما قد يكونوا امراء وابناء ملوك طيبين، اختطفوا منذ المهد، من جانب قوى الجن او لعنات القدر الباطش، او خدمهم ووزرائهم الشريرين الخونة، تعلوهم في كل الاحوال هالات الاضطهاد والقهر. الى ان ينتصر الخير لهم، فيعودون ملوكا وامراء كما كانوا .

وهناك ملمح اخر يتكرر بكثرة في الحكايات المصرية، فعادة ما تزور الهواتف الملوك والامراء في المنام ليخبرونهم بسنوات الفقر والذل وزوال الملك عنهم ، كما في خرافة « نعناعة » حين زار الهاتف الملك في المنام وهمس له :

ـ قوم اسعى يا ملك . انت حاتتفقر سبع سنين .

وفي خرافة «قطع ذراع الكاتب» نجد الملك الاسد في ـ نماذج ـ الحكايات المصرية والسورية والسودانية والعراقية باسمه وشخصه. فهو حاكم طوباوي، الغى البيع والشراء في مملكته او مدينته الفاضلة، مثله مثل الملك معروف ـ في سيرته المصرية ـ حين زاره الهاتف في المنام ، واخبره بزوال ملكه . فبينما عمل ملك الاسد ـ في النصوص المصرية والسودانية ـ والسورية «حمارا وفطاطريا ، تأكيد لمقولة» « اذا اقبلت (٢) باض الحمام على الوتد . واذا ادبرت شخ الحمار على الملك الاسد» .

---

(١) حتى الملك فاروق، الى ما نشهده من تخاذل وسلبيات بازاء مغتصبي السلطة.

(٢) اذا اقبلت الدنيـا .

لجأ الملك معروف الى صبغ نفسه بالنيلة الزرقاء «بلون جلد الخدامين» والعبيد .

وكلاهما بالطبع خاض رحلة عبورية ومخاطرات الى ان تعاوده ــ الدنيا ــ وتزول عنه اللعنة، فيعاود استرداد ملكه وصولجانه .

★★★

لذا راعيت في هذه المحاولة الدراسية ما يلائم خصائصنا بالنسبة للتصنيف، من ذلك العلاقات من طبقية، وقبائلية تفضي الى الانساق القرابية ونظم الزواج والميراث .

كما راعيت الانيزمية الطقسية، وما تقتضيه من ذهن غيبي او جبري يفضي بدوره الى آفات القدرية والسلفية، والاعتماد على البركة ــ وتوابعها ــ في مواجهة العلم .

بالاضافة الى مراعاة ــ شعائر الانتقالات ــ خاصة بين اطوار العمر من ولادة وزواج وموت، بما لا يغفل وضع المراة، وكافة الاضطهادات من عبودية فئوية طائفية، وافقية تتصل بالانقسامات النوعية، وطرق التربية، واضطهادات اطوار العمر بما يفضي في مثل مجتمعاتنا السلفية هذه الى تقديس الشيخوخة، والتبرك بالشيوخ، والتجبر في اطاعتهم، واطاعة الوالدين بعامة .

اما الذين يقللون من اهمية ولا جدوى جمع ودراسة فابيولات وخرافات الجان والسحالي والحيات ــ الزانية ــ والخصائص الصوتية لجلود القمل ــ البري السوداني ــ حين تشد الى طبل النحاس، وخوارق الاطفال القدريين المحجبين، منذ بطون امهاتهم، ثم ذلك الفيض من التفنن في ذكر الطعام واصنافه، ومشهياته وعوالم قصور ومدن ما تحت الارض المسحورة، وتلك المجتمعات الاشتراكية ــ الفاضلة الخيالية ــ عن مدن ــ دول ــ الغيت منها النقود و ــ مقاولات ــ البيع والشراء، ولكل ما يحتاجه، والنفي والطرد مصير الجشعين والخطافين .

فالذين يقللون من اهمية ولا جدوى هذه الحواديت بدعوى انها تنتمي الى عوالم آفلة منقضية، فيكفي انتشار الترانزستور، واضاءة القرى واحلال العامل ــ البروليتاري ــ المكوكي لكي ينقشع كل هذا ويذوي ويموت من تلقائه ، هؤلاء واهمون ، لا يضعون المبضع على اصل الداء .

صحيح ان عبدالله الطوخي في احدى قصصه القصيرة لاحظ اختفاء ــ حكايات ــ عفاريت قريتهم ونداهاتها وجنياتها ، التي كانت منتشرة على

طول القرية وازقتها وسواقيها الخربة وحقولها الممتدة علــى مشارف المنصورة، حين دخلت الكهرباء، ونفس الشيء تلمسه قصاصنا فهمـــي حسين، مع دخول الكهرباء قريتهم، وتبدد فلول وخزعبلات الليل، كذلك فقد ابدى احمد بسام ساعي (١) ملاحظة قيمة في حكاياته التي جمعها من اللاذقية، حول علاقة هذه الحكايات بالليل والاظلام وكيف ان كثيرا مــن الرواة والحكواتية كانوا يرفضون القص الا في الليل، وكأن الليـــل هــو مستودع الحكايات فلا تظهر الا فيه «وما يزال يتردد الى اليوم المثل الشائع لدى سكان الفرات « اللي يخورف بالنهار يصير حمار» .

والملفت هنا ان هذا المثل المأثوري، يعرف هذا التراث بانه تخاريف، او خرافة لكن ما يمكن قوله، ان ذلك الاظلام المصاحب للخرافة ، واصــل تعايشه ـ قبل دخول الكهرباء ـ على شكل هجرة جماعيـــة الى كافـــة معتقداتنا قبل المعرفة ـ اصلا ـ بالكهرباء منذ اكثر من الف سنة .

وتكفي اطلالة ، على مدى تقديسنا للجن وعوالمهـــم وشياطينهـــم واقتسامهم لحياة الاحياء بدليل انقسام العالم الخرافي ، الى انس وجن .

والسؤال التقليدي المتكرر في هذه الحكايات المنشورة، حين يلتقي كائن باخر، فيبادره على الفور :

ـ انس ولا جن ؟

كما يكفي ان في الخروج على ـ تابوات ـ هذا العالم ـ العفاريتـــي الجني ـ وعدم الايمــان به خروج وكفر يستوجــب القصاص .

كما يكفي في هذه الحالة، مهزلة حروب الجان ـ وعبور ـ الملائكـة بجند مصر كما صورته اجهزة الاعلام المسمومة المأجورة، خلال كل حروبنا التحررية ، وبشكل مزري مع حرب اكتوبر في مصر، خدمة ـ اعلامية ـ للمصالح الامبريالية ، ـ وتفويتا ـ على الاسلحة السوفياتية العامل المنتصر الحاسم في ذلك العبور في ايدي شباب مصر وفلاحيها .

صحيح انه عالم مقزز، يطفح بالفقر المدقع وقطعان العبيد والخصيان والمرضى وذوي العلل، الا ان هذا هو واقعنا، على طول بلداننا العربية.

هذا العالم الخرافي، الذي يحكم ناصيته مجموعة عوالم او خصائص مغلوطة سالبة حجر زاويتها في تراثنا العربي، هنا والذي هو موضوعنا ، عبر قنوات حكاياته ومأثوراته وفابيولاته المتوارثة .

حجر زاوية هذا التراث العربي ـ الاسلامي ـ السامي ، هو القدرية

---

(١) حكايات من اللاذقية ـ سوريا .

ومترادفاتها من دهرية ووعيدية. اي الايمان المفرط في القدرية والوعيدية والدهرية .

ويمكن تلخيص محاولتي لدراسة الفولكلور المصري، في حضن نظيره العربي ـ السامي ـ بهدف التوصل الى بلورة منهج ، تبدت ملامحه الاولى في كتابي « الفولكلور والاساطير العربية » . من منطلق ان تراث المنطقة العربية ما هو سوى الكم الاكبر المكون ـ بشكل جوهري ـ لما يعرف ـ لغويا ـ بالفولكلور او التراث السامي .

ذلك في مواجهة التقسيمات ـ اللغوية ـ القارية من آرية وكلتية ولاتينية وسلافية وهكذا. ومثل هذا المدخل المنهجي للتعامل مع التراث العربي السامي، يفترض التوحد التراثي ـ طبعا ـ لكلا التراثين العربي والعبري والسرياني ـ الماروني ـ طالما ان التعريف العلمي ـ للكيان التاريخي الجغرافي ـ للسامية والساميين هو تعريف في المحل الاول لغوي ـ اثنوجرافي ـ بما يستلزم الالمام وتحري المقارنة ـ المفضية الى التطابق.

وانا هنا لا افرض على الفولكلور العربي، رأيا متعسفا، من حيث انتمائه كجزء اعظم مكمل لتوحد وملمح رقعة ما يعرف بالفولكلور السامي. وما قيل وتحدد وبذل بالنسبة له، من دراسات وجهود طويلة مضنية منذ اواخر القرن الماضي سواء بالنسبة للفولكلوريين او الانثروبولوجيين، في حقل الفولكلور والدراسات السامية بعامة .

اما ما قادني واوصلني، الى الاخذ بهذا المنهج في التعامل مع تراث الكيانات العربية مفردة او مجتمعة على المستوى القومي، فمرجعه هنا هو تجربتي الذاتية او الشخصية في حقل الجمع الميداني للفولكلور المصري ـ والعربي بشكل محدود ـ وهو ما استغرقني على مدى ربع القرن الاخير، وضمنت بعضه كتابي ـ البسيط ـ «ادب الفلاحين» الصادر عام ١٩٥٧ وقدم له د. مصطفى مشرفة .

فلقد استوقفني طويلا مدى حجم التزاوج بين كلا التراثين العربي والعبري، داخل الشفاهيات الشعبية من اشلاء سير وملاحم ـ سارة وهاجر، ويوسف وزليخة، وحبيب ابن مالك ومأثورات، وبالاد، وحكايات استطرادية وخرافية بخاصة .

آلاف مؤلفة من الحكايات التي تحكي عن طفولة الخليل ابراهيم كطفل ـ خارق، وعن صراع الضرتين ـ العبرية والعربية ـ سارة وهاجر، وعن

ـ صدر للمؤلف عن دار ابن خلدون ـ بيروت ـ ١٩٧٨ .

سيدنا ـ يعقوب، الذي سمى اسرائيل كتاجر سامي حاذق بحق ـ كما وصفه فريزر ـ وصراعه مع اخيه وتوأمه الرجل الاشقر عيسو او العيص ابن اسحاق، نبي الادويين في الصحراء الادومية بسوريا والاردن. وترد حكاياتهما وتنتشر بشكل خاص في الشام وفلسطين والاردن وبشكل اقل في الحكايات المصرية والسودانية. وعن صراع الاخ الموعود ـ يوسف ـ اصغر ابناء يعقوب، مع اخوته الاكثر عددا، ودوره الخارق في تفسير الاحلام، وعلى الجانب الاخر، صراع الضرتين ـ ليئة، وراشيل ـ او الزوجتان البدوية والحضرية . وهي لازمة او جزئية اساسية ترد بكثرة مفرطة في الحكايات العربية خاصة الشطار. يضاف الى هذا وعلى مستويات وتنويعات عدة، حكايات ومأثورات موسى، وحموه شعيب وطواطمه ـ الصحراوية من القنافذ «غنم سيدنا شعيب» .

ويمكن القول بان ثمة اهتمام كبير خاص، اصبح يوليه دارسو الفولكلور، للرقعة السامية متضمنة للعربية .

وان كانت مثل هذه التقسيمات ـ اللغوية ـ القارية من آرية ، وسامية وكلتية الخ ما تزال لا ترضي كل الباحثين فيهذا الحقل او العلم.

ويفضل البعض، ومنهم الاستاذ سيث تومسون استخدام تعبير ـ جغرافي ـ بديل هو فولكلور الشرق الادنى .

وان كان هذا التعبير او المصطلح لا يبعد كثيرا عن سابقه، ذلك ان تومسون يقصره ويعني به ايضا فولكلور الشعوب ـ التي تتكلم ـ العربية ، وما يجانسها ـ بالطبع ـ من عبرية وسريانية .

ففي كتابه عن «روعة فولكلور الشرق الادنى» يؤكد تومسون ان التراث الفولكلوري للشرق الادنى، يعد دائما عظيم الاهمية سواء للشرق او الغرب ، وفيما عدا ما عثر عليه من تراث ادبي وحفري لحضارات هذه المنطقة القديمة، فان الفولكلور المعاش لهذه المنطقة، ما يزال خبيئا لم يستكشف ويفجر بعد .

فلقد اجمع كل جيل الفولكلوريين الاكاديميين على انهم تعرفوا على نبع قصة التراث الاوروبي في الهند، وكان نتيجة هذا مثابرة طويلة على جمع ودراسة الحكايات والخرافات والاساطير الهندية، دون تبصر الحقائق عن اهمية الشرق الادنى، فبدى هؤلاء الدارسين بعيدين تماما عن منابع تراثهم، فكيف يفسرون دور الشرق الادنى كمعبر، لطرق الارتحال من الشرق الى الغرب والعكس، ما لم يولونه الاهتمام الكافي بقليل من الاعتبار والتأمل التاريخي او الجغرافي او مجرد الحياة الجمعية خلال اختلاطاتها

الاقليمية، والاسواق وتبادل السلع والتجارة ، ففيما يتصل بالحفريات الادبية الخالصة، فان الانتقالات (تحولاتها) من الشرق الى الغرب واضحة تماما ، ويمكن تتبع اي عمل ، خلال تنوعاتها وتأريخاتها المحددة (في الزمان والمكان) عندما تأخذ طريقها الى الفرس والعرب ـ والسريانيين والعبريين واليونان واوروبا،ثم تراث الآداب اللاتينية في العصور الوسطى وينطبق هذا على « الحكم السبع » ومحيط القصة وكل الكلاسيكيات الهندية، خاصة اذا ما كانت الوسيلة او الوسيط هنا، هم العرب واليهود المثقفين .

فهذه القنوات الادبية التي اينعت عبر الشرق الادنى وحددت مسار التراث اضافت وحذفت الكثير منه، بما يدفعنا من جديد الى اعادة التعرف على الشرق الادنى وفولكلوره .

ثم ماذا عن الحكايات وتقاليد حياة الجماهير اليومية، في ايران وفي مسبوتاميا ـ اسيا الصغرى ـ وتركيا وسوريا وفلسطين . وحتى جيلنا هذا، فان مجموعات فولكلور هذه الاراضي ما تزال ضنينة غير مستكشفة كما ينبغي .

ولقد تحركت اخيرا بعض الدول، وانجزت بعض الواجبات المصاحبة لحركة الاحياء والنهضة العامة ، خاصة تركيا التي يقف وراءها الاساتذة المتخصصون «ابيرهارد وبورتاث» فدرست بعض انماط الحكايات الشعبية وبعض الفارسيات الجديدة، والمجموعات العربية والعراقية ذات القيمة العالية، لكن هذا ليس كافيا لتغطية احتياجات فولكلور هذه البلاد، وحيث تروى الحكايات بشكل متواصل كجزء من النشاط الدائم في الاسواق (البازارات) . ويضيف د. تومسون قائلا مشيرا الى اهمية الفولكلور الفلسطيني :

وعلى رأس كل فولكلور الشرق الادنى، تقف شفاهيات فلسطين، هذا على الرغم من عدم معرفتنا بها، وتوجد بعض ـ المدونات ـ المجموعات القديمة لتراث القرن التاسع عشر الشعبي خاصة في سوريا وبلاد المغرب، انه شيء مدهش الحصول على بقايا اساطير وحوادث الاولياء ـ والملوك المقدسين مثل سليمان، وداود ويوسف ـ وبعد مرور ثلاثة الاف سنة.

وكما يضيف الاستاذ تومسون ، فان الحيرة ـ التي تصادف دارسي فولكلور الشرق الادنى تتمثل في دراسة التراث الفلسطيني (١) .

---

(١) استجابة لتساؤل الاستاذ تومسون، فقد اضطلع مركز الابحاث الفلسطينية ببيروت، باصدار بضعة دراسات حول التراث الشعبي الفلسطيني ـ المؤلف .

وللمنطقة بوجه عام تاريخها المعقد، واليوم ومع التقدم المقتحم والتغير المتلاحق ومرة اخرى وعلى طول الف عام من التوغل القومي، لدرجة ان القراءة الواضحة للتراث المدون كانت معضلة مثلها مثل حل الغاز المخطوطات .

ولذلك فان دراسة علم مثل الفولكلور لا تجدي مع الهياب لكنها تجدي فقط مع اولئك الراغبين في ان يهبوا ويكرسوا كل جهودهم لنداء الواجب، مما يتطلب الاطلاع الواسع والطاقة التي لا حد لها، الى جانب التحايل الذوقي ، والعدالة،وارجو ان يلعب جيلي دوره في ايجاد الحلول الميسرة لما يعترض من مشاكل وغموض .

ولعلني اتوقف هنا، مختتما هذه المقدمة، حول قضايا واصول ومنابع تراثنا العربي الفولكلوري بعامة، وجانب الحكايات فيه بخاصة، والذي هو موضوع هذا المؤلف .

وترجع هذه الاصول والمصادر الاولى لتراثنا الى عصور موغلة في القدم، اي منذ الحضارة المبكرة، فيما بين وادي الرافدين اي منذ السومريين اللاساميين الذين توارثهم الساميون .

مقدمة ثانية

نقطة بدء لحركة احياء لفولكلورنا العربي

واذا كنا في بعض الاحيان، يجنح بنا الطموح الى حد طرح منطلق نحقق بمقتضاه حركة احياء للفولكلور العربي على طول بلداننا العربية، قد تجيء ـ فرضا ـ تحت مظلة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية ، ومن مهامها بالدرجة الاولى انجاز مشاريع قومية للتراث العربي، قد يتبلور في نهاية الامر في تنشيط واستنبات حركة جمع للتراث الشفهي، تسمح في الاسهام كنقطة بدء لاطلس للفولكلور العربي ، بمجالاته المختلفة ، الادبية : من شعر ، وحكايات ، ومأثورات ، وبالاد ، واساطير ، وسير وملاحم بالاضافة الى بقية الانشطة الاخرى،من تشكيلية وتعبيرية قوامها الفنون الزمنية من رقص وموسيقى ومسرح ـ مرتجل ـ .

كما قد ينتهي المطاف بنا الى ـ مجرد ـ التوصل الى قاموس للفولكلور العربي وتاريخه اقرب الى ذلك الذي انجزه د. ريتشارد دورسون الذي كان حتى وقت رئيسا لجمعية الفولكلور الامريكية ، واستاذ هذا العلم بجامعة انديانا، وسبق له ـ بمعاونة الجمعية ـ وضع قاموس في اربعة مجلدات عن الجزئيات (Motifs .) او العبارات الفولكلورية، وعادات الفلاحين واساطير البدائيين في ثلاثة اجزاء، واخيرا مؤلف عن

تاريخ حركة الفولكلور الانجليزي ـ ٥٠٠ صفحة : اكثر من مليون كلمة ـ.
وقد تنتهي امالنا في متحف للانسان العربي وحضارته، على غرار المتاحف الاثنوجرافية ـ للانسان وثقافته واهمها هنا متحف الانسان بباريس. او متحف وليم كامدين في لندن ـ احد الكتاب الكلاسيكيين الانجليز في القرون الوسطى ـ ١٥٥١ : ١٦٢٣ . والذي كان اول من اشار بان تسمية بريطانيا متواترة من تعابير خرافية ، امكن له تعقبها والعثور عليها في الانتيكات التاريخية ـ الاركيولوجية ـ المندثرة ، ايدتهاالحكايات الخرافية الانجليزية فيما بعد .
كذلك قد ينتهي بنا البحث عن طريق الجمع الميداني والتصنيف داخل المجتمعات والبيئات والحضارات العربية، لجمع الحكاية الخرافية، وبما لا يمنع من مواصلة جهود النقل بالاقدام على ترجمة بعض المجموعات القومية الموسوعية المتفق عليها في حقلي الفولكلور والانسانيات بعامة ، مثل موسوعة «الحكايات الخرافية في الادب العالمي» التي وصلت في الاونة الاخيرة الى اكثر من خمسين مجلدا .
على ان لا يفوتنا الاستفادة من الاعمال الموسوعية في هذا الحقل، سواء التي انجزتها هيئات او افراد مثل وليام جراهام سمينر ـ ١٨٤٠ : ١٩١٠ ـ ومؤلفه الرائد «الاساليب الشعبية» الذي استغرقه اكثر من نصف قرن، رغم انه لم يبدأ كتابته الا في عام ١٨٩٩، وصدرت الطبعة الاولى ١٩٠٦ اي قبل وفاته في السبعين من عمره باربعة اعوام لا غير.
على ان لا يغيب عن انظارنا في كل الظروف، ان منطلقنا، وليكن منهجنا للتعامل مع تراثنا الفولكلوري العربي في اطاره او منبته السامي وحتى لا ننجرف الى هوة الدوران في الحلقة المفرغة للمناهج السلفية الغيبية المغلوطة التي لا ترى في التعامل مع التراث بعامة، سوى مجرد احيائه وبعثه من مدخل سلفي ، اكثر منه علمي يضعنا في كل الاحيان عند محاولات طبع الماضي على الحاضر الماثل، بمتطلباته ومتناقضاته، وما يفرضه من حتميات .
لذا يفضل في مثل هذه الحالة الاخذ بشعار ، اعادة الاحياء للتراث بعامة، واخصه الموروث الشعبي، بما يسمح بالتدخل الايجابي المستقيم مع احتياجات التنمية. اي مع عدم فقدان توجيه الفكرة في التعامل مع هذا التراث الفولكلوري بهدف تحقيق غايات التنمية لمجتمعاتنا العربية، من مادية وعقلية .
على ان هذا كان على الدوام المنطلق الذي اتخذته الدراسات

الفولكلورية .

ولعلنا نذكر هنا ان كلمة «فولكلور» ترددت للمرة الاولى في اغسطس عام ١٨٤٦، حين نطق بها اسكتلندي متخصص في اللغتين الفرنسية والاسبانية هو وليم جون توماس واعقب ذلك بفترة، انشاء الجمعية الفولكلورية الانجليزية بلندن عام ١٨٧٨ وكان على راس اغراضها القومية «ارساء دعائم علمية هدفها اعادة بناء وجهة نظر لعالم ما قبل التاريخ ــ الثقافي ــ البدائي من خلال فولكلور ومعتقدات الفلاحين المعاصرين » .

ذلك على الرغم من ان جامعي الفولكلور الانجليز الاوائل ، لم يولوا ادنى اهتمام يذكر في تعقب جذور واصول موادهم الميدانية، التي توصلوا الى جمعها من افواه الفلاحين الانجليز، للتعرف على منابعها وما طرأ عليها من تغيرات وهجرات ومزاوجات خلال الحضارات والاجناس والقبائل القديمة التي تعاقبت على انجلترا، مثل ما قبل الكلت، ثم الكلت والرومان والساكسون والنورديين وغيرهم .

كما يجدر الاهتمام بجهود المدرسة الشرقية، ورائدها المستشرق تيودور بنفى ، ومن تعاقبوا بعده من الدارسين الفنلنديين الذين ارسوا ملامح المدرسة الفنلندية لمنهج الدراسات الفولكلورية الذي اسسه يوليوس كرون، ومن خلفوه من الدارسين، خاصة ابنه كارل كرون ١٩٢٦ .

واكتمال هذا المنهج واستقامته على يد انتي ارني ــ هلسنكي ١٩١٠ ــ في الدليل الذي وضعه عن «انماط الحكايات الخرافية، وانواع الحكايات الشعبية»، وهو التصنيف القيم الذي اكتمل في عدة مجلدات عن عبارات او جزئيات الحكاية الشعبية في فولكلور العالم، المعروف بفهرست الموتيفات الاساسية ، للحكايات الشعبية،والاساطير ، والبالاد ، وخرافات وقصص ومأثورات القرون الوسطى، بالاضافة الى الحكايات الطوطمية والهزلية والمحلية، وبالاضافة الى ان هذا الجهد التصنيفي يهمنا هنا جيدا، ذلك ان الجانب الاعظم الذي تضمنه هذا الدليل ــ الفنلندي ــ المرموق يخص تراثنا العربي باحتوائه على الالاف المؤلفة من جزئيات الحكايات الفينيقية، ولنقل ــ السامية ــ العربية لتراث الشرق الادنى القديم المهاجر الذي حمله الفينيقيون من البحارة الشوام ــ اللبنانيين ــ والفلسطينيين، وطوفوا به منذ اقدم العصور ــ الالف الثالث ق.م ــ في كل بقاع العالم البحري، خاصة البنية التراثية، بل والسكانية التي استوطنت اقصى ــ شبه ــ الجزر الاسكندنافية، وفنلندا .

ومن هنا يحق لنا رعاية هذا الدليل الفنلندي باهتمام خاص .

وبالطبع فهذه مجرد المامة ـ لما حدث في العالم من حولنا من جهود في هذا الحقل ـ او عجالة هدفهـا التوصل الى تحديد نقطـة بدء او منطلق لخطة طويلة المدى ، او استراتيجيـة قومية وبداية لجهـد عربـي آن اوان مجيئه ، ان لم يكـن قد انقضى جـدا .

واتصور ان نبدأ في تنشيط حركة جمع الفولكلور للبلدان العربيـة على النحو التالي :

١) القيام بعمل حصر ميداني لمراكز وهيئات جمع التراث والفولكلور بعامة الموجودة بالفعل في بعض العواصم العربية ، والتي وصل بعضها الى درجـة ملحوظـة من التمرس الميداني ، نذكر منها ، المركز العراقـي (بغداد) ـ والكويتي ، والمغربي ، والتونسـي ، والمصري ، والسوري ـ الاثنوجرافي ـ للوقوف على ما توصلت اليه هذه المراكز من جمع ورصد على كـلا المستويين الكمي والنوعي للمواد الفولكلورية .

مع التعرف على اساليب الجمع والتصنيف المتبعة لدى كـل قطر على حدة بما يوقفنـا على بعض الظواهـر او السمات المحددة ، كأن تولي بعض المراكز اهتماما اكبر ، لبعض المجالات والحقـول الفولكلوريـة والاثنوجرافية على حساب مجالات اخرى ، كاهتمـام المركز السوري ـ مثلا ـ كمـا لاحظت وتحادثت مع مديره د . الحمامي ـ بالازياء ،والفنون والصناعات الشعبيـة ـ ومركز تجميع التكية ومدرسة العظم ـ علـى حساب النصوص الشفهيـة والعكس بالنسبة للمركز العراقـي ، بينمـا تتفوق الابحاث المتصلة باللغة ـ والصوتيات ـ وصناعتها في المغرب .

اما في تونس ، فتستحوذ الالياذة العربية ، او سيرة الهلالية، على الاهتمـام الاكبر من حيث الجمع والبحث ـ الادبي ـ وليس الاثنوجرافي ـ الذي قـد يصل بالسيرة الى ابعاد تاريخية سابقـة على القرن العاشر الميلادي ، بعشرات القرون السابقـة على التاريخ المتفق عليه ، كما قـد يصل بها الى الصمود لكبريات سير الشعر الملحمي ، الالياذة، والمابهاراتا ، وبيوولف ، والكاليفالا الاسكندنافية .

بينمـا يغيب عن المركز المصري الاهتمـام بالتراث الموسيقى والفنون التعبيريـة عامة ، وافتقاده لقواه الدافعـة التي صاحبت مولده ، الـى حـد .

٢) يصبـح مفيـدا اقامـة اتصـالات بهذه المراكـز ، لتقييم حجمها من جانب ، وتعرف ظواهرها ، مـع الاخذ في الاعتبـار

المعرفة ايضا بالوسائل التقنية المستخدمة من صوتية وبصرية ، بالاضافة الى المشاكل ومحاولة تذليلها بالقدر الممكن طبعا .

٣) عمل رصد للمجلات والدوريات والنشرات والجهود الفردية المختصة بالتراث ومدى حجم جمع اشلائه في الاوطان العربية، مع الانتباه للمعوقات .

وستوقفنا المحصلة على جهد لا بأس به سواء في العراق، او السودان او مصر، او الاردن او المغرب، يضاف الى هـذا عمـل المامة للكتاب الكلاسيكيين العرب ، الذين حظيت كتاباتهم باهتمام الرواد من الباحثين، بدءآ بفريزر، وروبرتسون سميث،وشتراوس، والشاعر الانجليزي روبرت جريفز، وروفائيل بطاي، والعشرات غيرهم .

مثل كتابات ابن اسحق وابن الكلبي وابن ديصان، وابن النديم، والميداني واليعقوبي، والهمداني، والجاحظ وغيرهم .

يضاف اليهم الكتاب العرب، المتبحرين في كلا التراثيين العربي والفارسي ـ الآري ـ نظرا لما بين التراثين المتتاخمين من علاقات نذكر منهم : عبد الله ابن المقفع، والدينوري مؤلف عيون الاخبار ، والاخبار الطوال، والبلعمي والمسعودي مؤلف مروج الذهب ـ وغرر اخبار ملوك الفرس، وابن الاثير، وابن قتيبة، والمقدسي ، والاصفهاني ، والبيروني ، والثعالبي بخاصة .

وهو ما سنتناوله في الفصل الخاص « بالعلاقة التاريخية بين العرب الساميين والفرس الآريين » من هذا الكتاب .

٤) محاولة الاهتمام بفكرة د. محي الدين صابر في تنشيط حركة جمع بين طلبة المدارس للمرحلة المتوسطة والجامعية، للمواد الفولكلورية، والعادات والممارسات والمأثورات، وكافة الابداعات الشعبية الجمعية ، بما يسمح للمنظمة ـ بحق ـ ان تصل باذرعها المتعددة الى اخر بقاع ونجوع البلدان العربية. مستنهضة ومهيمنة على حركة احياء، لهذا التراث المهمل المتجه بالضرورة الى الطمس والاندثار، بازاء اتساع رقعة الاعلام الاليكتروني من راديو وتلفزيون وصحف تغلب عليها الامية، بل هي تستهدفها، بما يخدم مصالحها.

ولعلها اقصر الطرق وانجعها فائدة، واقلها تكلفة، في تحقيق درجة قصوى من درجات الجمع الميداني، لن تستلزم من جانب المنظمة باكثر من تحقيق اتصالات وتوعية، وبعض الدورات التدريبية والسمنارات القومية، الى جانب اللجوء في حالة التنفيذ الى الجهاز الاعلامي ـ بالمنظمة ـ

والاستعانة بالراديو لتوصيل مثل هذه التوصيات، المصحوبة بارشادات مبسطة، للمشرفين التربويين ـ خاصة مدرسو المواد الاجتماعية والانسانية بعامة ـ تتصل باعطاء الاهتمام لادق الممارسات والمأثورات، بدءاً بالحكاية الخرافية،وانتهاءاً بالتعاويذ ،والتعازيم، واغاني التخمير، وكيفية الوصول الى الندابات، والقابلات، والنائحات المحترفات، ومنشدو دلائل الخيرات، وشعائر الانتقال عبر شهور الحمل، والازياء واغطية الراس، والرسوم الحائطية للحج والطهور ووحدات الوشم وكيفية التعامل مع شعر العانة او الشعر السري، وانماط الطهور، مرورا بالطب الشعبي وما اضيف (١) حول السير والبالاد والملاحم ذات الملمح العربي العام .

وما اسهل في مثل هذه الحالة اضطلاع المنظمة باعداد المحاضرات والدراسات والابحاث، وترويجها بالنشر، خاصة الراديو في كل ربوع البلدان العربية.

وقد يصل بنا اكتمال مثل هذا التصور، الى حد عقد حلقات وسيمنارات محلية وقطرية، قد ترصد لها تقديرات معنوية وجوائز منها الكاميرات والمسجلات الصوتية، قد تصل مستقبلا الى حد المهرجانات ، واحياء سوق عكاظ القديمة .

ويصل بنا مثل هذا الاستطراد الى اعطاء اهتمام خاص للاحتفالات الشعبية والموالد، التي فيها يطل الاحتفاء بمثل هذه الفنون والثقافات المتبقية ، الى اقصى النشاطات مع البحث في ظاهرة الموالد ذاتها ، التي قد تصل بنا الى بقايا طوطمية، وتقويمية، وتقديس للمحاصيل والاشجار ـ المحلية كما هو معروف .

٥) فمن منطلق البحث في اطر اكثر تميزا لفولكلورنا العربي ومن مدخل انه اصبح في مقدور علم الفولكلور اعادة انارة وتوضيح المدونات التاريخية، واعادة ضبطها وتحريكها من اقدم مواقعها .

ـ الخرافة المحلية ـ

لذا من المفيد اعطاء اهتمام خاص للخرافة المحلية وظواهرها على طول البلدان العربية، نظرا لعلاقتها الشديدة بالاصول والمنابع الاولى للميثولوجيا ـ العربية ـ السامية، وجانبها الشعائري ـ الانيزمي ـ الى اليوم.

فما من شك في ان التوصل الى اضافات ملفتة وهامة، في حالة

---

(١) اي ما يعرف بالتراكم السيري والملحمي ، ويتواتر اضافته عبر العصور .

الاهتمام بالفولكلور العربي الافريقي، في الحبشة والسودان والصومال والنوبة ومصر العليا، وبقية الكيانات الافريقية التي سيشملها الاهتمام، وبالطبع يجيء هذا من المنطلق القومي ـ اللغوي ـ العربي .

ذلك ان الميثولوجيين الساميين سموا كل ذوي البشرة السوداء كوشيين (١) وذلك نسبة الى حام ـ ابن اللعنة ـ الذي تحمل ابناؤه فيما بعد وزر او خطايا ابيهم حام،حين عصى حام اباه نوح، وجامع امرأتهخلال حجهم للبيت، فلعنه نوح«اللهم سود وجهه ووجه من عصى ووطيءامرأته» وعندما ولدت امراة حام غلاما، جاء اسود اللون، وسموه كوشا، وولد لكوش الحبشة ابن كوش، اما شقيقه الثاني الذي لحقته لعنة ابيه ايضا، وهو «ماريع بن حام» . فقد ولد ثلاثة اولاد او اجناس، هم كنعان بن ماريع ، وبربر بن ماريع ، والنوبة بن ماريع .

وكذلك فقد يصل بنا داب الجمع للخرافات المحلية التي خلفتها الاقوام السامية العربية على اعلا قمم (٢) جبال لبنان وفلسطين، مثل جبال السامرية والعربية وجلعاد واليهودية ، الى جانب جبال شعيب صاحب مدين في الشام وسيناء ،وشعيب بن حضور بن آلوت نبي القحطانيين في اليمن، وايضا جبل ضهر في اليمن الذي وحدوه بالنبي هود : «لن نطيع الدهر هودا» وجبلحرمون،او الجبل الشرقي في لبنان اي جبل الحرمان سمى كذلك ، بحسب تفسير القديس «هيرونيم» الذي فسر حرمون بالموت حدادا على هابيل، ذلك لان جنوبي هذا الجبل، يطلق عليه اسم هابيل .

ولقد اورد زكريا القزويني ، حكاية غريبة بسهل عكا في اطراف لبنان ، فقال ان « بها عين البقر ، وهي بالقرب من عكا ، يزورها المسلمون واليهود والنصارى ، ويعتقدون ان البقر الذي ظهر لآدم فحرث عليه ، لاول مرة، اخرج من هذه العين»، وهي نفس العين التي سماها الفرنسيون بعد ذلك في القرن السابع عشر ب : « عين العذراء مريم » .

ونهر القاسمية، كان يسمى نهر الليطاني او الممنوع او الملعون او الحرام ، وكذلك نهر قديشا او المقدس الذي سموه «ليطا» وفسروه بالشرير، اما نهر الاولي، اي نهر المدينة الاولى، فقد سماه العرب قديما بنهر الفراديس،وكذلك فقد استبدلالعرباسم نهر ادونيس،باسم ابراهيم

---

(١) التيجان ـ وهب بن منبه ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) تاريخ لبنان ـ الاب مارتين اليسوعي ٨٩ .

ويشير «رينان» الى وجود علاقة بين ابراهيم وايل اله جبيل، بل ان العرب خلطوا بين ابراهيم وبين الاله ــ بل ــ اله الكنعانيين .

واستنادا الى ما يقوله احد قدامى (١) الرحالة الفرس، فان احد سهول بيت المقدس وهو سهل «الساهرة»، اعتقد العامة في انه سيكون ساحة القيامة والحشر .. : « ولهذا يحضر اليه خلق كثيرون من اطراف العالم ، حتى يموتوا فاذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد »، كما انهم اعتقدوا في ان هذا السهل، هو «بيت فرعون» وسموه «وادي جهنم».

ومن اماكن اليمن المشئومة جبال ختا او خياف، والجبل الاشيب سيد جبال النار، وقطب اليمن، فيقال ان ذلك الجبل، يظهر عليه اهل النار والخراب، وتعوي فيه الذئاب، كما ان من بين الاماكن الملعونة نجران وصعده، وبكلي، ويروي عنها الكثير من الخرافات، واما جبالها المقدسة فهي جبال حضور، وحنين، ورأس جبل على، ورأس صبر وتعكر..الخ. وباليمن وادي، يعرف بوادي عشار « كثير الاخصاب» نسبة الى الالهة ايشار او عشتروت، كما ان اليمنيين نسبوا اقدم قصور اليمن، وهو قصر «غمدان» الى سام بن نوح الذي « ابتدأ بناءه واحتفر بئره» وتنسب حوله الخرافات، ان طائرا اختطف القرانة وطار بها، وتبعه سام، لينظر اين اوقعها الطائر ، ثم اقام البناء» .

كما اعتبرت مدن الشام وقراها، مسرحا لما لحق الخطيئة الاولى .. فيقال (٢) « ان ادم لما اخرجه الله من الجنة (نعيم عدن) ، سكن جبل حرمون ــ جبل الشيخ ــ وان ولديه ــ قابيل وهابيل ــ اقاما طويلا شرقي الفردوس في سهل البقاع، ويستدل على صحة هذا التقليد اليوم من قبور هابيل وقابيل وشيت المقامة في المحل المشار اليه » . ويقال ان تسمية دمشق، نسبة الى اراقة دم قابيل لاخيه هابيل، ويقول القديس «هيرونيم» «ان معنى دمشق شراب الدم»، كما يقال انه من ارض دمشق هذه قيل ــ لهابيل «والان فملعون انت من الارض التي فتحت فاها لتقبل دماء اخيك من يدك» .

« ويقال ان هذا التقليد،كان منتشرا بكثرةفي ايام الحروبالصليبية» كما يقال ان باني دمشق هو « اليعازر » خادم النبي ابراهيم فينفسالحقل الذي قتل فيه قابيل اخاه هابيل .

---

(١) سفر نامة ــ ناصر خسرونامة .

(٢) البطريرك اسطفان الدويهي في تاريخه .

اما دمشق فهي ارض «آدم» التي منها جاءت تسمية آدم ، بمعنى أديم الارض او القدم، ويبدو ان تسمية «ادوم» كانت تشمل جزءا من الاردن ، وهي الارض التي نزلها عيسو او العيص بن اسحاق (١) .

فيبدو ان ادوم كانت تشمل ايضا جزءا من الاردن، ويؤكد هذا الكشوف الحفرية التي توصلت اليها البعثة النمساوية التي اعلنت بعض نتائج اكتشافاتها في يوليو ١٩٧٤ .

وينتشر بين سكان جبل قاسيون شمال دمشق، اعتقاد بأن جريمة «القتل الاولى وقعت في اعلى قمم الجبل»، وينسب القزويني لاحدى صخور دمشق الكبيرة،انها كانت المكان الذي قدما عليه قربانهما « حين تقبل من صاحب الزرع ، ولم يتقبل من صاحب الرعي » وهناك حجر عليه مثل اثار الدم، اعتقد الدمشقيون القدماء في انه الحجر الذي هشم عليه الاخ اخاه، لذا سميت المغارة المجاورة لهذا الحجر «مغارة الدم» .

وبينما يرى المسلمون ان الجريمة وقعت داخل اغوار (٢) صحراء شديدة الجدب، «ومنذ ذلك اليوم لم يقرب الندى جدب هذه الصحراء».

يرى اليهود ان الجريمة وقعت في احدى قرى جبل قاسيون، وهي قرية بسيمة.

ولقد وحد الاقدمون بين قابيل والشيطان «اشمودي» الذي ينسب له تشييد مدينة بعلبك، التي اعتبروها اول مدينة في العالم،اذ ان قابيل ابن آدم عندما اعتراه الارتعاش امر ببنائها ، ولقبها باسم ابنه اخنوخ ـ النبي ادريس ـ واسكن فيها الجبابرة والمهترجية، ولكثرة فواحشهم ارسل الله عليهم طوفان الماء «او طوفان نوح» .

ويسمى وادي البقاع بلبنان بسهل نوح،وبه قبر نوح بالقرب من زحلة ، وان ملكا هو الملك الظاهر ـ عام ١٢٥٨ م ـ اعاد بناء القبر فجعله «واحدا وثلاثين مترا» .

كما ان في الجولان بقايا قبائل الفضل والنعيم وما عرف عنهم من اخصاب ملحمي شعري، قد يقودنا الى اصل ملحمة «سعد اليتيم»المعروفة.

وبالنسبة لابراهيم، فان في مدينة القدس صخرة، يقال ان «عليها آثار سبع اقدام (٣) « وسمعت ابراهيم كان هناك ، وكان اسماعيل طفلا

---

(١) المصدر السابق في تفسير نبوة حزقيال (٨ ف ٢٧ : ٨) .

(٢) تبعد ٩ كيلو مترات عن دمشق .

(٣) خسرو نامة ص ٦٤ .

فمشى عليها، وهذه هي اثار اقدامه : « ويرى البعض ان قبر نمرود الجبار الذي حاربه ابراهيم ، موجود بجبل لبنان » الا ان هناك من يقول ان في قرية «ارواد» اربعة قبور لاربعة من ابناء كنعان .

ويعتقد سكان قرية كفر ناحور بلبنان، ان قبر كنعان موجود على احدى الصخور الموجودة هناك كما يقال ان النمرود بن كنعان هو باني قلعة بعلبك، وفي بعلبك بقايا اثار قصر سليمان ودير الياس، وجبل سعيد الذي على قمته اقدم ابراهيم على ذبح ابنه وبكره اسماعيل.

وفي مدينة عكا، توجد قبور «عك» باني المدينة وعيش وشمعون وذي الكفل ، وهود ، وعزير . وشعيب ، وابنته زوجة النبي موسى . وفي قرية اربل ، اربعة قبور لاربعة من ابناء يعقوب، وكذلك غار، وجد به قبر ام موسى ، ويوشع بن نون بالاضافة الى سبعين نبيا .

اما في جنوب بحيرة طبرية فيوجد بحر لوط (١) ، ويقال ان مدينة لوط كانت تقع على شاطئه .

★ ★ ★

موجز القول ان الاقوام السامية قد خلفت اساطيرها ومعتقداتها الخرافية في عصور الظلمات او عصور ما قبل العالم على اثارها ومنشآتها ومعالمها الطبيعية بشكل غاية في الافراط .

فاستنادا الى القدرات اللامتناهية التي يمكن للذاكرة الشعبية الجمعية تأديتها في استكشاف وايضاح ما هو مغلق ومندثر لكلا الوجهين التاريخي والتراثي لبلداننا العربية، يمكن القول بان في الامكان اعادة التعرف واستجلاء ذلك التاريخ ـ الثقافي ـ اليومي لبلداننا، منذ بدء تواجد الانسان العاقل على الارض العربية.

فلعلني لا امل الالحاح بالقول الدافع الى الثقة في قدرة الذاكرة الجمعية ـ التي تجيء من المنطلق القومي لا التجزؤي الانعزالي ـ على اعادة ايصال واستقامة ما انقطع، وما يعتري احقاب تاريخنا، خاصة الثقافي من اندثار وغموض .

من ذلك ظاهرة تسمية اكثر من مدينة سورية ـ خاصة الشمالية ـ

---

(١) سدوم وعمورة، مدينتا البحر الميت وهو ما اشارت اليه واكدته كشوف او نصوص البحر الميت الهامة .

بانياس، باسم ذلك الشاعر الاسطوري المتعاصر مع منشـــد الالياذة ــ ــ هوميروس ــ وربما كان اسبق منه ــ القرن السادس ق.م ــ .

(فبنياس كان اول من جمع اسطورة الاله ــ الزراعي ــ الممزق، ادونيس، الذي هو احد اوجه او تنويعات اوزريس في مصر، وتموز في وادي الرافدين، وديونسيوس عند الهلينيين ، وديونسيوس زاجريـوس في كريـت ، ومسبوتاميا او اسيا الصغرى بعامة .

فلقد كان الشاعر ــ السوري ــ بانياس، هذا اول من جمع اسطورة ادونيس واعاد نظمها شعرا والذي قد تصل بنا جمع مأثوراته المحلية اليوم، واستطيع ان أجزم بانها ما تزال تعيش على الشفاه، في مدينته السورية التي زرتها متسرعا بدعوة رقيقة من صديقي المفكر القصاص احمد اسكندر وزير الاعلام السوري عام ١٩٧٦، بصحبة زوجتي الباحثة الاجتماعيـة فريـدة الهامى بالقرب مـن اللاذقية ومكتشفاتها الحفرية في رأس الشمرا او اوغاريـت التي ترجع الى القرن الرابـع عشر ق.م. وادت عشرات الالوف مـن نصوصها الاسطورية، والفولكلورية ــ المكتشفة عام ١٩٢٩ الى القـاء ضوء قوي على جذور التراث السامي ــ العربي ــ والعبري، ومنابعه المبكـرة، خاصة الجانب الاعظم من التراث العبري، وبخاصة اكثر التلمود الاورشليمي ــ الفلسطيني ــ .

خلاصة القول ان في تركيزنا على تنشيط استكمال جمع الخرافات المحلية لا لاقطارنا العربية فحسب، بل لمدنها ومعالمها البيئية والمحلية .

من ذلك ما تزدحم به الاقاليم والبيئات السودانية، والنوبية والمصرية والفلسطينية والليبية واللبنانية، سواء في تراث المدن الفينيقية ــ الدول ــ صور وصيدا وجبيل، وبعلبك او بيبلوس الاغريقية ، وتراثها العريق.

وبالنسبة للعراق فما تزال اثار وتجمعات وموروثات بقايا اهم واعرق ملاحم العالم القديم جلجاميش او قلقاميش كما يسميها العرب، فـــي مديريته التي ما تزال تحمل اسمه ــ جلجاميش ــ الى اليوم، وكذا بقايـا موروثات الكلدانيين، والبابليين والاشوريين، والفينيقيين، والقرطاجنيين والحورانيين .

فالمفجع والملفت انه حتى ايامنا هذه، ما تزال تعيش بقايا الحضـارات ــ والكيانات السامية بروافدها المختلفة، مثل الكدانيين ــ الالف الثانـي ق.م ــ المعروفين اليوم بالحرانيين، بحران بالعراق وقصصهم عـن كيف التقى بهم الخليفة العباسي ــ المستنير ــ المأمون، وكان في طريقه الـــى

الحرب وسألهم : هل انتم اهل كتاب، ثم خيرهم بين الدخول في دين او قتلهم وسافر ومات .

ومن معتقداتهم انهم ، يجلسون في الزيت (يقال فلان في الزيت)، ويزعمون ان طبيعة الانسان اليق واشبهبطبيعة عطارد عن سائر الحيوان(١) واقرب اليه بالنطق والتمييز .

وكانوا عقب الموت ينزعون الراس بعد ذلك عن الجسد .

ولهم كتاب يسمى بالكتاب الحاتفي ، وكانوا اول من سمى ايام الاسبوع باسم الكواكبالسبعة السيارة، وهي التسمية السارية الى ايامنا.

ويقولون بان يوم الاحد للشمس واسمها ايليوس، يوم الاثنين للقمر واسمه سين، يوم الثلاثاء للمريخ واسمه اريس، يوم الاربعاء لعطارد واسمه نابق، يوم الخميس للمشترى واسمه بال، يوم الجمعة للات واسمها بلثي ، يوم السبت لزحل واسمه قرنس (كرونس) .

ويصلون ثلاث مرات في اليوم « ولا صلاة عندهم الا على طهور » ويصومون ٣٠ يوما يعقبه عيد الفطر. ويذبحون للكواكب، ومن مس المراة الطامث يتنجس. وحرموا لحم الخنزير والكلب والحمار، ومن الطير غير الحمام،ويفرطون في كراهية الجمل ، ولا طلاق الا بحجة بينة عن فاحشة ظاهرة ولا يرجع المطلقة ولا يجمع بين امرأتين ولا يطأهن الا لطلب الولد.

وعندهم ان الثواب والعقاب انما يلحق الارواح .

والنبي عندهم هو البريء من الذمومات،وينزل الغيث ويدفع الآفات عن النبات والحيوان .

وقولهم في الهيولي والعنصر والصورة والعدم والزمان والمكان والحركة، كما قال ارسطاطاليس، وقولهم في السماء انها طبيعة خامسة ليست مركبة من العناصر الاربعة لا تضمحل، وقولهم في النفس انها دراكة لا تبيد وأنها جوهر وليست بجسم (كما في كتاب النفس) .

وبالعراق ايضا بمدينة الموصل الحافلة باماكن الخرافة المحلية مثل قبر الست ملكة والنبي جرجيس بجوار سوق الشعارين، ومزارات السبعة الحدادون ، قريبا من باب سنجار خارج السور في محل يسمى السبع الحدادون يقول الناس ان فيه قبورهم . وكانوا اخوة يشتغلون بالحدادة.

وخرافات الشيخ الوسواس « من ابتلي بالوسواس الشيطانية والعلل السودائية وزاره يبرأ» .

---

(١) اي الاجرام السماوية .

ومقام الخضر بجوار منبر الجامع النوري، ويقال ان من صلى الصبح اربعين صباحا يجتمع به .

والنبي شيث جنوب الموصل وفي عام ١٢٣١ اعاد بناءه الوزير احمد باشا عبد الجليل زاده .

والنبي(١) يونس بن متى مدفون في قرية نينوى، وجدد بنائه تيمورلنك ٧٩٦، ويصدر من قبره أزيز كأزيز النحل، وكما يقول سعيد بـن جبير، ووهب بن منبه فان يونس ارسل الى اهل نينوى .

عن ابن عباس قال : نودي الحوت « انا لم نجعل يونس لك قوتـا ، انما جعلنا بطنك له حرزا ومسجدا » .

قيل للنبي : انك تحب القرع، قال هي شجرة اخي يونس.. فجعل يستظل تحتها.

كذلك يقال ان نبيا اسمه جرجيس قبره في الموصل، وان تيمورلنك استخرجه وبنى عليه مسجدا، ويقال انه كان من اهل فلسطين، وعن ابن اسحق يقال انه كان ملكا على الموصل، وعن الهمداني : ملـك الشام كلهـا ، وكانـوا يعبدون صنما يقال له «افلون» .

موجز القول ان في اعطاء اهتمام ملحوظ اكبر للخرافة المحلية على طول بلداننا العربية، ودون مخاوف او مخاطر الاغراق المفضي الى النعرات من شوفينية وعنصرية وانقسامات رأسية بعامة ، بل من مدخل الالمام ، وجمع الاشلاء، الهادف الى المعرفة بحقيقة واقعنا، وفي اتجاه المزيـد من تجميع الروافد والقنوات الداعية الى التجدد القومي العربي .

(بازاء اعادة تمحيص مخلفات الماضي المندثر وموروثاته الموغلة مـن تكاملها البنائي الطوطمي ـ القرابى ـ القبلى .

(وفي اتساق محكم متسلط الى ايامنا الماثلة ، يقف مشهرا كـل اسلحة دفاعاته عن البنية الاجتماعية الطبقية اليوم والآن ، بنفس ما كانه ـ هذا التراث ـ بالامس المنقضى الذي قد يصل الى عشرات مـن قـرون الهوان او الوهـم .

★ ★ ★

---

(١) وطوطمه المعروف ، وهو نبات « اليقطين » او القرع .

مقدمة ثالثة

الجمع الميداني البارد للخرافات وممارساتها

ويبدو الأمر اكثر صعوبة اذا ما تصورنا ان الاغراض والنشاطات والمواد والاعضاء التي يمكن للتصنيف ان يشملها قد تستغرق كل ما هو عضوي ـ ومعنوي ـ ولا عضوي من شئون الحياة وما بعد الحياة .

وعلى هذا فاضافة الى ما ذكر ، ويمكن للجامع اليقظ ملاحظته وعدم اهماله ، مما لا يزال متواترا حول فولكلور ومأثورات النبات، والاشجار والف بائها، ثم المعادن خاصة الحديد والذهب، يجيء الدور على الاحجار من كريمة ونصف كريمة (١)، وعلاقتها بالنسبة للمعتقد الشعبي وكلا جانبيه الروحي ـ الانيزمي ـ والطبي ، من منع للحسد وشرور العين وطرد للاوجاع وجلب للرزق، فما ان يضع حامل الحجر ـ العقيق ـ في الخاتم ـ يده في الماء، حتى تتسارع اليه فلول السمك او الرزق. كما ان هناك احجار من خصائصها،اتقاء بعض الامراض ومنها ضربة الدم، ومنها ما يتصل بالحمل وشعائره واشهره التسعة والولادة وحماية الطفل الوليد ، وشعائر انتقالات اطوار عمره ، من فطام ، ومشي، وطهور .

وحكى لي تاجر احجار وانتيكات قديمة، انه احترف تجارته هذه، بعد ان شهد بعينيه تأثير الاحجار ـ الكريمة ـ فقد كان يعمل حلاقا،يمارس عمله بموساه ذات مرة في ذقن زبون،الى ان توقف الموس في يده لا يتقدم مهما سنه وجلخه ، الى ان شد بصره حجر مشع في يد الزبون فطلب منه

(١) مثل العقيق الذي يبعد الضيق .

خلع خاتمه وما ان ابعده ، حتى ـ مشى ـ الموسى حادا على وجه الزبون.
وقس على هذا الاف الحكايات والمأثورات التي قد تسهم في اقامة أجرومية عربية للاحجار ، سواء ما يتصل باغراض تزين نسائيـة ورجاليـة ، او حول الشعائر الدينية ، ومنها المسبحة ، والتبرك بالاحجار واغراضها ، وقواهـا الدفينـة .

كما لا يجب هنا اغفال «عقد شمه» الالهة الام السالفة للقبائـل ـ القمرية ـ الهلالية ودوره المحوري في السيرة ، خاصة الريادة .

ولا يغفل هنا ايضا تقديس الاحجار الاصنام ـ كملمح سامي ـ جاهلي ـ حتى الحجر الاسود ، المعروف بحجر اسماعيل ابو العرب .

كذلك لا يغفل جزئيات الامراض والاوبئة والعلل وهبوب الرياح ـ خاصة ريح السموم في حكايات الجزيرة العربية ـ وما يتبعها من خرافات طوفانات الرياح والعواصف ، وما يتبعها من طواعين وحمى شيطانيـة ، وخرافات جان .

ففي حالة الجمع ـ البارد ـ لمختلف الحكايات والفابيولات والمأثورات يمكن التوصل الى الف باء ات بكاملها عن ما يختـص بالمـواد والعناصر الطبيعية ، من احجار ، واعضاء بشرية ، وماء ونار ، حتـى الاشجـار ـ اخشابها ـ والجسد البشري من عيون (١) ، ورؤوس ـ مكمن للخطايـا ومنها تحريم ـ تابو ـ اكل رؤوس الحيوانات والاسماك في معظم المجتمعات العربية ، والاصابـع الخمسة ـ باسمائها ـ وكفـة اليـد التـي تستخدم في قراءة الكف، وتفسير خطوطها المتقاطعة التي ترجعها المعتقدات الشعبية الى لحظة انبهار الارستقراطية المصرية الذين جمعتهم زليخة ، ليشهدوا جمال يوسف ويعذرونها ، فمضوا يقطعون كفوفهم ـ انبهارا ـ بـدلا من التفاح وهو ما لا يزال محفوظا في الشعر الشعبي، وبقايا بالاد يوسـف وزليخة المندثرة :

بكيت زليخة وقالت
عشت في الذل لمتوني

---

(١) منها العين الحاسدة، والقاتلة، والتي عليها حارس، ومنه تواتر حورس العيـن ، وحور العين ، كمـا ان منها العين القاتلة ، سواء ما جاءت به الاساطير السومريـة والبابلية ، لقدرات عيني الهة العوالم السفلى ـ او هادس البابلية ـ اينانا او اناتا ـ التي تواترت الى انثى ـ التي سلطتها على ابنها تموز او ادونيس فاردته قتيلا ، أو نظرة ـ الالهة ـ العبرية ساره المميتة لاسماعيل ابن هاجر .

في حب يوسف بن يعقوب لمتوني
الا وجالها البيض في اوان عصر
ومالوا وقالو لها :
ـ فين يا زليخة اللي عليه البيبان سكين .
ما فتحت لهم زليخة الباب
ما خرطت يدهم سكين .
قالت لهم : آهو يا مساكين اللى عليه لمتوني .

وتولى ـ جزئيات ـ الحكاية الشعبية المصرية والسودانية اهتماما ملحوظا للاعضاء التناسلية للذكر ـ خاصة الخرافية وحكايات الفرفشة، فما تزال الملامح الاسطورية الفرعونية الاولى تعيش على الشفاه، تأكيدا لما سبق ان لاحظه ديودورس الصقلي، من ان ايزيس جمعت كل اجزاء اوزير، فيما عدا اعضاءه التناسلية، فصنعت له ايرا من الشمع، وفيما جمعته من جزئيات يأخذ السمن، الذي يسيح بالنهار ـ مكان الشمع.

كما لا يبرأ من مشاكل التصنيفات ، معمارية البيوت والمنشآت العامة ، مثل التضحية بالاطفال بذبحهم واراقة دمائهم في اساسها. ومثل ما يتواتر حول عتبات البيوت ومداخلها وشعائر تلفظ الداخل :

ـ يا ساتر (١). يا اهل البيت . ما شاء الله ـ الخ .

وارتباط العتبات بشعائر الذبح، خاصة المرتبطة بالزار، في حالة ذبح الديوك او الذكور. وتخطية العتبة سبعة مرات .

وطبيعي ان يقودنا هذا الى عدم اهمال عوالم ما تحت الارض وطبقاتها السبعة المتوارث منذ السومريين ـ ٤ الاف عام ق.م.

وكذا ابواب جهنم او طبقاتها السبع كما يذكر الميثولوجيون العرب ـ عكرمة ، ابن جريج ، ابن كثير ـ : اولها : جهنم ، ولظى ، والحطمة ، والسعير، وسقر، والجحيم، ثم الهاوية . وهو ما لا يبعد كثيرا عن الميثولوجي السومري ـ اللاسامي ـ الذي يمتد تأثيره المتواتر الى ايامنا . بما يستلزم ايراد فصل خاص .

ويوصلنا الرقم سبعة، الى ـ فولكلور ـ ايام الاسبوع السبعة ، وتسمياتها بحسب الكواكب السبعة السيارة .

وكذلك المنابع الخرافية للتقويمات من شمسية وقمرية او هجرية

---

(١) وكما يذكر آرثر تيلور ، فانها كانت بقايا صلوات وتعاويذ شعائرية في مداها الاكثر قدما .

وعلاقة هذا بتابوات الاكل والمنع وتحريمه ، والاحتفالات الشعائرية التقويمية للقمر ـ عند الساميين بعامة والعالم الاسلامي بخاصة وشارتهم او شعارهم ـ الهلال ـ المعروف منذ عرب الجاهلية الاولى، والذي ما يزال ينظر اليه بالعين المجردة مع اول رمضان في السعودية ومصر،ومعظم الكيانات العربية .

كما لا يستثنى من هذا الرصد، شعائر النجاسة والطهارة، وطرق ذبح الحيوان، والتعامل مع الدم بانواعه، خاصة دم الحيض .

والمباحات والمحرمات التي انتهت في مطبخ اليوم، ثم انواع الطعام، وهو ما توسع فيه العالم البنائي الفرنسي ليفي شتراوس من « النييء الى المطبوخ» .

ويستقطع الماء وجزئياته سواء في الاساطير ـ كمهبط لعرش الله ـ او في الفولكلور ، حيزا اشك كثيرا في حصر جزئياته وما يثار حوله سواء من حيث اعتباره مهبطا لعرش الله ، او من حيث ما ذكر عن سدرة المنتهي ، الذي يخرج من اصلها نهران هما سيحان وجيحان (١) ، وفي اقوال اخرى النيل والفرات .

كذلك اعتبروا موارد الماء مصدرا للبركة، كما اوضحنا، وفي ذات الان مهبطا للشياطين، خاصة ليلى او الليلث، كما سنرى (٢) .

وتفرط جزئيات الحكاية الخرافية العربية في الربط بين الماء والشياطين، او بينه وبين حافر الحصان (٣) .

كما لا ننسى موتيفات «الماء النائم» و «الماء المحجب» الذي يرد العافية للابطال المحجبين، وماء الخلود ، وماء الحياة، الذي يتبدى في عديد من الحكايات، واقدم نصوصه مصاحب للاسطورة البابلية، حين نزلت عشتار الى العالم السفلي لتحضره لحبيبها تموز لتعيد اليه الحياة بعد ان فارقها(٤) .

ويجيء الدور في الفولكلور العالمي، على التعميد بالماء ودور اللعاب او الريق الانساني في المعتقدات الخرافية (٥) .

ولم يندهش الفولكلوريون الاكاديميون فيما بعد كثيرا لاكتشافهم ان

(١) البداية والنهاية في التاريخ لابي الفداء ـ توفي ٧٧٤ هـ ـ ج (١) .

(٢) في الفصل التالي ـ عن المؤثرات السومرية، وتاثيرها الميثولوجي والفولكلوري الاني ، على الرقعة العربية، بل الاسلامية .

(٣) كما سيرد في الحكايات الموسومية .

(٤) كما يرد في النصوص السومرية المبكرة لملحمة جلجاميش .

(٥) خاصة سحر المشاركة، او الاثر .

المسيح شخصيـــة فولكلورية .

ونبهت الدراسات الفولكلورية الانجليزية، الى كيف ان الحدادة التي هي اصل ومنبت الصناعات الحديثة، كانت مرتبطة بالسحر منذ القــدم ، وان السحر بدوره كان دائم الارتباط بكل ادوات ــ الانتاج ــ التي تحتاج الى جهود عضلية، فظلت بقايا السحر عالقة وتابعــة لتـــطــور الحدادة، وتسايرها حتى الثورة الصناعية وما بعدها .

ويسخر دارسو الفولكلور المحدثين، من ذلك ــ الخصام الطفولــي ــ الذي كان يحدث بين المشتغلين بالفولكلور في العصر الفيكتوري امثــال : الفريد نط ، وادوين هارتلاند ، وادورد كلود .

وخلال القرن ١٨ حقق قسيس بروتستنتي هو « جــون برانــد » نجاحا محققا حين نشر مؤلفه القيم «الانتيكات الشعبية» عقب موته، وفيه اشار الى ان الحكايات والمقولات المتواترة اليوم تنحدر من اصول وثنية ، او انها كانت عادات وشعائر وثنية تكثلكت فيما بعد ، مثل المليم الــذي يوضع في فم الجثة للقديس بطرس ــ بدلا من دفع اجرة معدية اوزيريس في اساطير مصر الفرعونية ــ وعادة اكل الخطية، وكذا الرقص فــــي الكنائس خلال احتفالات الكريسماس، ومنها اغلب الاسرار المسيحيـــة المقدسة، المعاشة والمتواترة الى ايامنا .

الفصل الاول

الحكايات العربيـــة الشفهية .. والليالي (١)

اذا ما تعرضنا لتراث الحكايات العربية، فمن المرجح ان تكون الف ليلة وليلة نقطة بدء طبيعية .

ذلك ان الليالي تعد مخزنا لا ينضب معينه لاي دارس في حقـــل الحكايات الخرافية والفولكلور بعامة، ومدى تأثيرها على اوروبا والعالـــم الجديد بخاصة، منذ ان اضطلع المستشرق الفرنسي انطوان جالان منـــذ عام ١٧٠٤ بنقل النص العربي ـ الذي سبـــق ان اكتشفه ليتمان ـ الى الفرنسيـــــة ، فاستحـــوذت واخـذت اهتمامـا كبيـرا فـــي حقل الحكايات الخرافية ، وحكـايات الاصيـــل والخسيس ، او الاخيار والاشرار ـ الثنائية ـ وتلـك الرحـلات العبوريـة ـ والبطوليـة للاسفار والمخاطـر ، وحكايات المساخر والمرح والنـوادر والفوازيـر والالغـاز ، بالاضافة الى خرافات الجان والعفاريت وذلك العالم السحري العربـي ، الذي لا يختلف كثيرا عن ملامح وخصائص نظيره الشفاهي لبلداننا العربية.

وان كان التراث الشفهي للبلدان العربية يحتفظ اكثر فاكثر بالملامح المحلية ولنقل التاريخية والبيئية، لما وصلنا من تراث روافد الحضارات السابقة والمكونة في ذات الان للتراث العربي السامي .

---

(١) الف ليلة وليلة .

وبتبسيط اكثر فان تراث الشفاهيات المصرية اليوم، اقرب الى خصائص وملامح الحكايات الخرافية والسحرية لمصر الفرعونية، منه الى الف ليلة. وان تبدي للجامع مدى تأثير الليالي وما اشيع وتسرب منها من ملامح وخصائص الى الشفاهيات المتواترة على طول البلدان العربية .

كما ان الف ليلة وليلة ذاتها، ما هي سوى محصلة نهائية للحكايات العربية في الجزيرة العربية ودلتا مصر ، والشام، والرافدين بالاضافة الى ان معظم المستشرقين الذين تعرضوا بالنقل والترجمة لالف ليلة وغيرها ، قد استعانوا برواة الحكايات العربية ذاتهم وحفظةنصوصها، حتى جالان نفسه الذي كان يجمع حكاياته من راوي سوري - ماروني - يدعى حنا الماروني ، وضمنها المخطوط الرابع المفتقد من نص الليالي،الذي اعتمد عليه ويرجع - تدوينه - الى القرن الرابع عشر .

ويمكن القول بان الف ليلة وليلة لا يعتبر عملا او مؤلفا عربيا خالصا بقدر ما هو مزيج بين التراثين الآري والسامي. فهو محصلة نهائيةللتزاوج بين هذين التراثين ، خاصة اذا ما اخذنا في الاعتبار ان التراث الآري ، يشتمل - لغويا - على كلا المنطقتين الهندية والفارسية ، ناهيك عن مدى التداخل بين التراثين العربي - الاسلامي - والفارسي .

ومن هنا اجدني اقرب الى ترجيح ان النص العربي لالف ليلة وليلة - ويقع فياربعة اجزاء فقد جزؤه الرابع - ما هوسوىكتاب «هزار افسان» الفارسي الذي ترجم الى العربية في القرن الثامن في بغداد، وهو ما انتقل الى مصر وعرف بالف ليلة وليلة في القرن الثاني عشر الميلادي .

والامر لا يبعد كثيرا عما ذكره ابن النديم - الفهرست - حول هذه الواقعة .

ولعل من الطريف هنا، ان معظم الكتاب الكلاسيكيين العرب اصبحت كتاباتهم منهلا خصبا للدراسات الفولكلورية يستشهد بها في مختلف حقوله، سواء الاسطورية او تقسيمات الحكاية، من خرافية لطوطمية ، بدءاً : بوهب بن منبه،وابن الكلبي ، وابن حجر ، وابن ماجة ، والطبري، والمقريزي ، وابن اسحق ، والثعالبي والقزويني ،ناهيك عنحكايات الحيوان والطير ، عند الجاحظ ، والدميري ، وابن المقفع ، والعشرات غيرهم .

وعما ورد بالقرآن (١) ، وما يزال متواترا حول الخضر ، او سيدنا

---

(١) قارن بالقران الكريم : النحل ٢٤، الانعام ٢٥، الانفال ٣١، المؤمنون ٨٣، الفرقان ٥، النمل ٦٨، الاحقاف ١٧، القلم ١٥، المطففين ١٣ .

الخضر (الرجل الاخضر) ولقمان بن عاديا الكبير ، او الحكيم لقمان، وسطيح الذي يقال انه عاش ثلاثين قرنا، وكان يسكن البحرين، وكذا ما تبقى من حكايات وخرافات العرب البائدة (عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق) واشهرهم خرافات وخوارق عوج بن عناق، والشاعر الجاهلي ـ الخرافي ـ امية بن ابي الصلت، والملك الكاهن الجاهلي، عبيد بن شريه الجرهمي ، وكذا خرافات وضاح اليمن، وامراض العشق في قيس وليلى، وقيس ولبنى، وجميل وبثينة، وجزاء ذلك البناء ـ سنمار ـ الذي يمتلك موهبة اشادة قصر شاهق يدور مع الشمس، وكان جزاءه القتل بان القي من فوق اسواره .

وقد يكون مفيدا الاستطراد فيما ذكره ابن النديم في اول واهم قاموس عربي ـ الفهرست ، استنادا الى الموسوعي العربي محمد بن اسحق مع ملاحظة ذكره لبداية رصد ـ الاصول ـ الاولى لالف ليلة وليلة ، والتداخلات بين التراثين العربي ، والفارسي الآري .

وليس هذا بالتحديد غرضنا من استعارة هذا الجزء عن فهرست ابن النديم، بقدر ما ان غرضنا هو مدى خصوبة المدونات العربية، التي ضاع معظمها وافتقد من المواد الفولكلورية ، بينما يمكن في ذات الان ، افتراض ان معظم هذه المواد ، انتقل مخزونه الى الذاكرة الجمعية الفولكلورية ، لبلداننا العربية الآنية ، وسيوقفنا دأب البحث على الكثير .

وسأورد فيما يلي شذرة بسيطة اقتطفتها من فهرست ابن النديم، حول اسماء المؤلفات من شعبية وفولكلورية، ما ضاع واندثر منها، وما لا يزال في عداد نصف المليون مخطوطة عربية التي لم ترها المطبعة الى ايامنا ـ منذ المعرفة بها في القرن ١٦ .

★ ★ ★

قال ابن اسحق : اول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا واودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان، الفرس الاول، ثم اغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس، ثم زاد بعد ذلك واتسع في ايام ملوك الساسانية، ونقله العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه .

واول كتاب عمل في هذا المعنى هو كتاب هزار افسان، ومعناه الف خرافة، وكان السبب في ذلك ان ملكا من ملوكهم، كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد، وتزوج بجارية من اولاد الملوك، ممن لها عقل ودراية

يقال لها شهرزاد ابتدأت تخرفه وتصل الحديث بما يحمله على استبقائها الى ان اتى عليها الف ليلة ، وهو مع ذلك يطأها ،الى ان رزقت منه ولدا وقد قيل ان هذا الكتاب الف لحماني ابنة بهمن،ويرى ابن اسحق ان اول من سمر الليل الاسكندر ، واستعمل الملوك من بعده كتاب« هزار افسان » ويحتوي على الف ليلة. يقول ابن النديم : وقد رأيته بتمامة دفعات وهو في الحقيقية كتاب غث بارد الحديث » قال ابن اسحق ابتدى ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته، لا يعلق بغيره، واحضر السامريون فأخذ عنهم احسن ما يعرفون ويحسنون ، واجتمع له ٤٨٠ ليلة،كل ليلة سمر تام يحتوي على٥٠ ورقة، ثم عاجلته المنية قبل ان يتم تتمة الف سمر، ورأيت من ذلك عدة اجزاء بخط ابي الطيب اخي الشافعي.

وكان قبل ذلك ممن يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم : عبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون، وعلي ابن داود كاتب زبيدة وغيرهم .وقد استقصينا اخبار هؤلاء وما صنفوه في مواضعه من الكتاب .

فاما كتاب كليلة ودمنة ، فقد اختلف في امره ، فقيل عملته الهند وخبر ذلك في صدر الكتاب ، وقيل عملته ملوك الاشكانية ونحلته الهند، وقيل عملته الفرس ونحلته الفرس، وقال قوم ان الذي عمله بزرجمهر الحكيم .

ولا بأس بالطبع من مجرد رصد عينات لا غير، مما اورد ابن النديم في موسوعته ـ الفهرست ـ من مواد فولكلورية مدونة .

اما كتاب سندباد الحكيم وهو نسختان كبيرة وصغيرة والاختلاف فيه ايضا مثل كليلة ودمنة، والاصوب ان تكون الهند صنفته (١) .

ومن كتب الفرس : خرافة ونزهة ، الدب والثعلب . روزيهاليتيم، مسك زنانة وشاه زنان ـ نمرود ملك بابل ـ خليل ودعد. وفي السير

(١) يلاحظ ان هذا العالم الموسوعي العربي ـ ابن النديم، يستخدم تعبير التصنيف والفهرسة في موسوعته الفهرست بالمعنى الاثنوجرافي الحديث، منذ اكثر من عشرة قرون على مولد هذه العلوم الحديثة التي نحن بصددها .

كتاب : رستم واسفنديار ترجمة جبلا بن سالم ـ بهرام شوس (جبلة شهريزاد مع ابرويز ـ الكارنامج في سيرة انوشروان ـ كتاب التاج ـ دارا والصنم الذهب ـ كتاب اثنين نامة ـ خداي نامة ـ بهرام ونرسي ـ انوشروان .

ويستطرد ابن النديم :

اما كتب هؤلاء الذين نذكرهم ، الف اخبارهم جماعة مثل عيسى بن داب ، والشرق بن القطامي، وهشام الكلبي، والهيثم بن عدي وغيرهم، وكتاب مرقس واسما، وكتاب عمرو ابن عجلان وهند ، وكتاب عروة وعفرا ، وكتاب جميل بثينة، كتاب كثير وعزة ، كتاب قيس ولبنى. كتاب مجنون ليلى . كتاب توبة وليلى ، وكتاب الضمة بن عبدالله وريا ، كتاب ابن الطثرية وحوشية، كتاب ملهى وتعلق، كتاب يزيد وحبابة. كتاب قابوس ومنية. كتاب اسعد وليلى، كتاب وضاح اليمن وام البنين، كتاب اميم بن عمران وهند ، وكتاب محمد بن الصلت وجنة الخلد ، كتاب العمر بن ضرار وجمل. كتاب باكر ولحظة ، كتاب مليكه ونعم وابن الوزير ، كتاب احمد وداجة، كتاب الفتى الكوفي مولى مسلمة وصاحبته، كتاب عمار وجمل وصواب، كتاب المعمر بن ملك وقبول، كتاب عمرو بن يزيد الطائي وليلى، كتاب علي ابن اسحاق وسمنة، كتاب الاحوص وعبده، كتاب بشر وهند، كتاب عاشق الكف، كتاب عاشق الصورة، كتاب عبقر وسحام ، كتاب اياس وصفوة، كتاب ابن مطعون ورتيلة وسعادة، كتاب المخزومي والهذلية، كتاب عمرو بن العنقير ونهد بن زيد مثاه، كتاب مسرة وليلى، كتاب ذي الرمة ومي. كتاب طرب وعجب، كتاب المعذب والغواء والطيرة، كتاب سحر اللهو وسكر ، كتاب احمد ومسنا ، كتاب عباد الفاتك وفنك ، كتاب احمد وزين العصور، كتاب ذوب ورحيم، كتاب سهل وسليمة، كتاب الكاتب ومنى، كتاب عسى وسراب، كتاب عاشق البقرة ـ ريحانة وقرنفل ـ رقيقة وخديجة ـ مؤيس وذكيا ـ سكينة والرباب ـ العطريفة والدلفاء ـ هند وابنة النعمان ـ عبدة العاقلة وعبدة الغدارة ـ لؤلؤ وشاطرة ـ نجدة وزعوم ـ سلمى وسعاد ـ صواب وسرورا ـ الدهما ونعمة، المصري والمكية ـ عبد الله ابن جعفر والشجرة المكتوب عليها ـ الوجيهة والاعرابي ـ الفتى والمراة التي رمت بالحصاة ـ سليمان وشيبان ـ المراة واخوتها والرجل الذي هواها ـ كتاب الكردوحية وابنة الكاهن ـ الاخوين العراقة والمدني ـ المتجرد في النساء ـ حسن واللص الاسرائيلي ـ حافيةابنة هاشم الكندي ـ كتاب المخنث والفتاة التي عشقته .

كذلك (١) يورد ابن النديم اسماء عشاق الانس للجن والجن للانس :
دعد والرباب ـ سعسع وقمع ـ كتاب الضرغام ـ عمرو ودقيانوس ـ الشماخ ودمع ـ الخزرجي المحتال واسما .. الدلفاء واخوتها والجني .

قال محمد بن اسحق : كانت الاسمار والخرافات مرغوبا فيها مشتهاة في ايام خلفاء بني العباس، لا سيما في ايام المقتدر، فصنف الوراقون وكذبوا (٢) فكان ممن يفتعل ذلك رجل يعرف بابن دلان واسمه احمد بن دلان، واخر يعرف بابن العطار وجماعة، وقد ذكرنا فيما تقدم من كان يعمل الخرافات والاسمار على السنة الحيوان وغيره، وهم سهل ابن هارون وعلي ابن داود والعتابي واحمد بن ابي طاهر كما لم يغفلوا الكتب المؤلفة عن عجائب البحر والاسفار وغيره، ويعرف بكتاب صخر المغربي، ويحتوي على ثلاثين حديثا، عشرة في عجائب البر وعشرة في عجائب الشجرة (٣) ، وعشرة في عجائب البحر .

فأما السحرة فزعمت انها تستعبد الشياطين بالسحر والقرابين والمعاصي وارتكاب المحظورات ، واستمالتها بترك الصلاة والصوم، واباحة الدماء ونكاح ذوات المحرم (٤)،وغير ذلك من الافعال الشريرة وهذا الشأن ببلاد مصر وبابل .

وقال لي من رأى السحرة بارض مصر وبها بقايا ساحرين وساحرات وزعم الجميع من المغرمين والسحرة ان لهم خواتيم وعزائم ورقى وصنادل وحزاب ودخن وغير ذلك مما يستعملونه في علومهم .

ويقال ان سليمان بن داوود اول من استبعد الجن .

وكان يكتب لسليمان ان داوود آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان عبراني ويوسف ابن عيصو عبراني والهرمزان بن الكردول فارسي وعبراني .

---

(١) بالطبع فلا باس هنا من ايراد مجرد اسماء هذه المدونات الخرافية الفولكلورية ، والتي قد تشير مجرد اسماءها الى انها بقايا حكايات وسير وبالاد Ballad متحجرة ومندثرة .

(٢) اي انهم الفوا واختلفوا . وقد يكونوا ترجموا بعض هذه الكتب عن الفارسيةوالهندية، كما قد يكونوا جمعوها متواترة على المستوى الشعبي الشفهي ودونوها .

(٣) لاحظ ما اوردناه عن فولكلور والاشجار والاخشاب، واجروميتها عند جريفز .

(٤) اي ذوي القربى من الاخوات والخالات .

وممن الفوا وكتبوا في الجن :

١) لوهق بن عرفج، قديم وله من الكتب كتاب طبائع الجن ومواليدهم .

٢) آريوس بن اصطفانوس بن بطلينس الرومي،ويلقب برشيد قومه وكان من علماء الروم بالعزائم، وله من الكتب كتاب يذكر فيه اولاد ابليس وتفرقهم في البلاد وما يختص به كل جنس منهم في العلل والارواح.

٣) ابن هلال، وهو الذي فتح هذا الامر في الاسلام، وله من الكتب كتاب الروح المتلاشية وكتاب المفاخر في الاعمال .

وابن الامام ـ وابو خالد الخرساني ـ وابن ابي رصاصة ـ وابن وحشية الكلداني ، وهو من ولد سنحاريب، وله من الكتب كتاب السحر الكبير، وكتاب دورا على مذهب النبط وكتاب مذاهب الكلدانيين .

ويلاحظ مدى الاتصال بين اشلاء الحضارات العربية السابقة على الاسلام، بعشرات القرون، من كلدانيين، واشوريين، وعرب نبطيين . وهذه الشرائح الشعبية الجمعية ـ الاسلامية ـ ومنها عيون تراثه ومخزونه في حقل الحكايات، بدءا بالف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وانتهاء بالالاف المؤلفة من المدونات ، التي آثرنا عدم الاستطراد في ايرادها والاكتفاء بما ذكرناه ، والا لاحتجنا الى اضعاف هذا الكتاب ، نظرا لضخامة هذه التركة ـ الخرافية ـ الفولكلورية، للاقوام والحضارات والكيانات المنصهرة على رقعة بلداننا العربية ، بتراثها المتوارث المتواتر ، منذ عصور ما قبل العلم .

★ ★ ★

الفصل الثـاني

منابع الحكايات العربية اللاسامية الاولـى

وطبيعي ان تجيء نقطة بدئنا ومنطلقنا في محاولة ارساء نظرة اجمالية لموقع فولكلورنا العربي مشتملا على حكاياته ومأثوراته القصصية والروائية ـ ولنقل جزئياتها وعناصرها ومأثوراتها ـ من الرقعة الكونية ، من جانب ، ثم ما يتصل بأصول ومنابع هذا التراث، المتوارث جيلا اثر جيل وحضارة تعلو سابقتها ، في محاولة لتحديد مكان الواقع الموضوعي للتاريخ ـ الثقافي ـ العربي ، بافعاله المتبادلة ، ومجموع صراعاته وازماته وحلولها ، عبر عمليات Process التدمير والخلق والتجاوز والاجتثاث ، والثورة وارتداداتها . اي من منطلق الاخذ بأن التاريخ بعامة ما هو في احسن حالاته ، سوى التاريخ الطبيعي للانسان، وما بقية العلوم الثقافية من انثروبولوجيا ، واثنوجرافيا ، وفولكلور ، سوى افرع وروافد للعلم الطبيعي ، الذي وكما يعرفه رادكليف براون، ما هو سوى البحث المنهجي في بناء الكون كما تظهره لنا الحواس .

فاذا ما بدأنا بالتتابع التاريخي لمنابع هذا التراث ، منذ اقدم حضارة سابقة او موازية للدولة القديمة في مصر ، وهي المعروفة بالسومرية والتي يتعاظم في السنوات القريبة الاهتمام بمحصلة مكتشفاتها الحفرية ـ الاركيولوجية ـ والتي لا تبعد عناصرها ومأثوراتها

عما سادنـا من معتقدات ومنتجات روحية ، تبدت بالتالي على فولكلورنا بعامة ، وتراث الحكايات الخرافيـة ـ ومنه الليالي ـ بخاصة .

ويمكن طرح التساؤلات المتتابعة بالنسبة لتعريف الفولكلور السامي ـ الذي يشكل الفولكلور العربي جانبه الاعظم ـ ومدى حجمه واصالته او تفرده بالنسبة للتقسيمات القارية من جانب ، ثم متاخمه ـ او مزاوجة ـ التراث الآري ـ الهندي الفارسي ـ من جانب اقرب .

وكما اوضحنـا فطالما ان السامية والساميين ، تعبير لغوي يشتمل فيما يشتمل على لغات روافد الحضارات المبكرة ، للبابليين والكلدانيين والاشوريين والفينيقيين والعبريين والعرب وغيرهم . وطالما ان اللغة هي حاملة التراث والحضارة فمن هنا يمكن القول بان التراث السامي، هو المصدر الام ، التي التقت روافده في المحصلة العربية ـ والعبرية ـ ثم الاسلاميـة الاخيرة .

ولا بأس هنا من ـ اعادة ـ ذكر ما سبق (١) ذكره في اطـار المعاناة ، بحثا في اطـار المفهومـات حول سمات وانتماءات تراثنـا العربي علـى الرقعة الكونيـة . ومن ثم انتماء الكم الاعظم من تراثنـا هذا السامي ـ العربـي والعبري ـ ، الى سابق لـه لا سامي ، للسومريين الذين استولوا على معظم اراضي الرافدين ، منذ الالف الرابع قبل الميلاد ، واقاموا حضارة ، توارثتهـا بكاملهـا الطلائع السامية للبابليين العراقيين.

فيلاحظ انه في حالة الاحجام عن الاستطراد والغوص في الاصول المبكرة ، لترات حكاياتنا العربية الخرافية وبقيـة افـرع وانشطـة مأثوراتهـا المختلفة ، والتي تعيش على شفاه شعوبنـا العربيـة الى ايامنا، تعلق بالافرع والاثمار دون جذور ومنابت ، بل ومنابع هذه الحكايـات التي لا بـد وانها ولدت يومـا ، مثلها مثل الكائن الحي ، لذا يصبح مفيـدا تعرف تلك الجذور الضاربة ، التي منها تساقت واينعت تركتنـا من الحكايات العربية ، التي ينظـر اليها على المستوى الكوني ، كخزان معدود مرموق ، بالنسبة لتراث العالم اجمع ، ومن هنـا يفضل التتابع الزمنـي التاريخي ، المصاحب للمكـان الجغرافي ، للبحث فـي مخزون حكاياتنا العربية السامية ، المتوارثة بدورهـا من اصـول ـ اسيويـة ـ لا سامية.

ولقد جاءت الكشوف الحفريـة الاركيولوجية السومرية اللاساميـة

---

(١) كتاب اساطير وفولكلور العالم العربي ـ روزا اليوسف ١٩٧٤ ص ١٠٣ وما بعدهـا ـ المؤلف .

في العراق ، فأوضحت الكثير من الغموض بالنسبة للتراث السامي بشكل عام ، والتراث العربي والعبري بشكل اخص . فلقد اوضحت هذه الكشوف السومرية ـ الالف الرابعة قبل الميلاد ـ عن حقيقة « اصل التوراة ذاتها ومنشئها ، وان هذه المجموعة من المآثر العظيمة لم تجيء الى الوجود كالازهار الصناعية وهي كاملة النمو » ، بمعنى انها تنتشر انتشارا واسع المدى في تراث الاقوام المجاورة ، والمتاخمة لها من كنعانيين ، واصحاب الارض الفلسطينيين ، وسوريين وبابليين ، بالاضافة الى مصر الفرعونية .

وليس بغريب ان تراث العبريين هو على وجه التقريب تراث وحضارة اولئك السومريين اللاساميين وصل اليهود عن طريق الوساطة الكنعانية مثلهم في هذا مثل بقية الاقوام والجماعات السامية ، وذلك عقب انتقال ذلك التراث السومري الى الورثة المباشرين ، وهم الكلدانيون والبابليون والآشوريون والحيثيون والكنعانيون والفلسطينيون ، وحتى ـ الحيثيين ـ الاناضوليين .

وعن الكنعانيين ـ الشوام ـ الذين سبقوا العبريين في استيطان فلسطين خاصة بعض مدن الساحل الفينيقي (١) ، سرى الى الوجود تراث تلك الحضارة اللاسامية المندثرة مثلما توارث العرب ـ خاصة القحطانيين سكان اليمن والجنوب العربي ـ حضارات لاحقيهم من القبائل العربية البائدة المندثرة التي ترجع الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد، وهم قبائل عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق وجرهم وعرفات ـ وغيرهم .

وقد لعبت الحضارة الكنعانية ، وطليعتها البحرية فينيقيا ـ نظرا لاقتحامهما المبكر للبحرين الابيض والاحمر ـ دور الوسيط في حمل تراثي مصر وبابل ، والابحار به ونشره على طول سواحل البحر المتوسط، وكذا تواتر دورهم البحري خلال الفتوحات الاسلامية (٢) .

لذا يرى البعض ان كلا التراثين العقائديين العبري اليهودي والفارسي المجوسي ، بالاضافة الى التراثين الهليني والمسيحي ، جاء جميعه تحت التأثير المباشر الكنعاني ، السوري او الآشوري ـ فيما بعد ـ المستمد

---

(١) صور ـ صيدا ـ طرابلس ـ عكا ـ الخ .

(٢) بما يؤكد مدى التوحد والتكامل التراثي الحضاري العربي .

بدوره من سابقه السومري .

ويرى توينبي ، بالنسبة لليهود ، ان شعب مملكتي « اسرائيل ويهوذا قد رفع نفسه مكانا ساميا ، ابان فترة من تاريخه الذي بدأ في طفولة الحضارة السورية وبلغ الاوج في عصر الانبياء » .

ويرجع السبب في تركيزي على الحضارات او المنابع الام او حضارات الجيل الاول في دلتا العراق ، حيث الحضارة السومرية الاكادية ، وفي دلتا وادي النيل حيث الحضارة المصرية الفرعونية الى محاولة تعرف النبتة الاولى لكل جزئية او موتيف اسطوري او فولكلوري وامكانية تتبعه، وذلك نظرا لتعدد المصادر وتنوعها بالنسبة للفكرة او الموتيف الواحد، مما قد يوقع الباحث في الخطأ وفقدان الطريق . واعادة هدم ما اوشك في بدئه . وهو ما اصبح تقليدا ساريا بالنسبة لدارس تراث قلب العالم القديم .

فما من اضافة كشفية اثرية اركيولوجية او نصية ، او شفاهية ، لم تسهم في اعادة تكامل جزئيات هذا التراث الهائل ، مما يترتب عليه دوام الهدم المستهدف – اصلا – لتوالي البناء واستقامته ، واستجلاء اقصى طاقات الغموض .

فيمكن اعتبار الدراسات الفولكلورية – محتوية او متضمنة الاساطير – احد المركبات الهامة اليوم ، في اعادة بناء تاريخ الجسد الحضاري ، لاي شعب او مجموعة من الشعوب ، واخصها شعوبنا العربية ، من المنظور القومي .

مع الاخذ في الاعتبار ، مدى الجدوى التي حققتها المناهج البنائية في مثل هذه العلوم الحضارية الاثنوجرافية التي تستلزم « القيام بدراسة شاملة لحالة واحدة » . فيشير ليفي شتراوس ب « الغاء الحواجز التقليدية – والمفتعلة – بين مختلف النظم وتكوين منهج يعتمد على كل العلوم والدراسات » .

فالاثنوجرافيا – متضمنة للفولكلور – من مهامها جمع المعلومات والمأثورات المتوارثة ، بما يمكن تزامنه مع الدراسات التاريخية في جدلية تواجد العلاقة الحميمة بين البناء الاجتماعي وعلم ما قبل التاريخ والآثار ، بالاضافة الى بقية الميادين والابنية ، ومنها ابنية الاتصال ، من قرابة وتنظيم عشائري ، وانماط الزواج ، والتربية ، واللغة والمعتقدات والمنتجات الطقسية والروحية الدينية .

وكما سبق ان اوضحنا ، فان مثل هذه الدراسات قطعت شوطا

كبيرا ، خاصة فيمـا يتصل بالتصنيف ، اي تجميع وتراكم عينات الفكرة او المقولة الواحدة ، ثم بعـد ذلك ـ اعادة تعرف تاريخ حياة كل فكرة على حدة ، والاخذ بمبدأ ان اي فكـرة او مقولة او شعيرة ، تصبح بلا قيمة، ما لـم يتحدد اصلهـا وفصلها ، ومـا طرأ عليهـا من تغيرات واضافات، من عصر لعصر ، ومن موطن ـ ام ـ لآخر .

وبمعنى آخر فان فكرة خلق حواء من ضلع الرجل ـ مثلا ـ تـرد منحدرة من التراث السومري اللاسامي ، متبدية في التراث السامي عند الورثة البابليين والحيثيين، منتقلة الى الكنعانيين الفينيقيين ،متبدية في اسطورة الاله « موت » السورية الكنعانية .

فكان ان نقلها العبريون الى اسطورة الخلق او سفـر التكويـن ، وكذلك طوف بها الكنعانيـون وطليعتهم ، البحارة الفينيقيون الى الحضارة الايجيـة ومنهـا دخلت هذه الجزئيـة الى التراث الهيليني اليوناني ، ثـم الروماني فيمـا بعـد ثم اللاتيني في العهـد المتأخر .

وبشكل مجمل يمكن القول بان أسفار التكوين الاحد عشر الاولـى ، تنتمي بكاملهـا الى الميثولوجيا الكنعانية المتوارثة مباشرة من الحيثييـن والبابليين .

ومن هذه الافكار ، خلق العالم ، وتوحد الخالق بالماء ، واقدامه على خلق العالم عن طريق رسله الثلاثة ، ثم فكرة خلق الانسان الاول « يوم خلق الله الانسان ، على شبه الله عمله » وهو مـا تتميز به اساطير الخلـق السامية ، على تراث العالم اجمع ، ومنها خلق المراة من ضلع الرجل ، وتوحدها بالحية ، التي توحدت بدورها بالشيطان ، ثم الخطيئة الاولى ، وكذلك تمشي الاله في الجنـة عند هبوب الريح « كقرين للريح ، وعـري آدم عقب الخطيئة وعقاب الاله للخطاة الثلاثة آدم وحواء والحية ، الذين حسدهم ابليس او الشر واضلهم فكـان ان طردوا من الجنة الى ـ الجحيم ـ الارض ، وكان ان دخل الموت الى العالم «فان الله خلق الانسان خالدا، وصنعه على صورة ذاته، لكن بحسد ابليس دخل الموت الى العالم » وما توالى بعـد هذا من عقاب للمراة مثل ادماء حـواء الشهري (الحيض) وتسيد الرجل عليها ، « تكثيرا اكثر اتعاب حملك وبالوجع تلدين اولادا، والى رجلـك يكـون اشتياقك وهو يسود عليك » .

وكان ان قهرت المراة وسلب سلطانها ، خلال توالي هذا التـراث الابوي البطرقي ، الذي سيـد اول مـا سيد الرجل الذكـر على المـراة الانثى ، والحق بهـا وزر الخطيئة الاولـى ، « فمن المراة ابتدات الخطيئة

وبسببهـا نموت جميعا » . ثم يعقب هذا سلسلة الانساب المفقودة ، او المفتقدة ، لحيـن مولد الجبابرة او العماليق او النماردة ، ملوك بابـل والشام . فمن المعتقـد ان اولئك الجبابرة البائدين او المندثرين هم بذاتهم الذيـن حاربهم العرب والعبريون على السواء .

ومن المفيد التعرض بتفصيل ــ قليل ــ لهذا التراث .

فلقد اصبحت افكار القسمة والنصيب وما يستتبعهمـا من قدريـة ودهرية ووعيدية بمثابة الملمح الاول لتراثنا العربي ، ويعني هذا انه اصبح في مقدور اي باحث او جامع في اي منطقـة من العالم الرجوع بأي فكرة او عبارة تعترضه عن النصيب والقدريـة الى موطنهـا الاصلي الام ، وهذا الموطـن الام ، هو التراث العربي ، الذي اصبحت مثل هذه الافكار حقيقته الاولـى ، والملمح الجوهري لتراثه .

بل ان اغلب تصوراتنا عن الحية والعفاريت وام الشعور والنداهات والهواتف والرؤى ، منحدرة من اصول سومرية ، منها سكنى العفاريت الخرائب التي كشف عنهـا النص السومري المعـروف ب « جلجميش وانكيدو وشجرة الصفصافة» ، ومنها اغلب الطلاسم والرقى والتعـاويـذ والمنفرات التيتستعمل لطرد الاوبئة مثل الحمى،ولدغ العقارب والحيات. كما ان من هذه المنفرات ما كان الغرض منه اتقاء الحسد وشرور العيـن والنفس ، اي النفس الخالق ، ذلك المحي المميت ــ الذي وهب الالـه بـه الانسان فأحسن تكوينه ، حين نفخ من حلقة فخرج من دبره ، وهـو ذاته النفس القاتل المميت، ويوصف المريض والمعلول بانه «منفوس». كما قـد يقولون عائن وعيون ، وهو ما تبدى عن السومريين في احد النصوص التي تدور حول عشتروت وابنها الاله المزق تموزي الذي اردته قتيلا حيـن «اسلطت عليه نظرة الموت» وهو ما تبدى في التلمود الاورشليمي في عين الالهة الحاسدة ــ العقيم ــ سارة ، حين سلطتها على اسماعيل ابو العرب العدنانيين فكادت ان ترديه قتيلا .

بل ان اغلب مفاهيمنا الجماعيـة عن ابواب جهنـم السبع، وكذا السموات السبع، ومنه تعبير السماء السابعة المتواترة الى اليوم، ثم فكرة خلق الانسان من طين او صلصال ــ لازب ــ وارتبـاط المصيـر الانساني بالولادة ، كما جاءت به اسطورة خلق الانسان الاول .

ولعلني في هذه الالمامة حول المنابع والاصول الاولى لتراثنا العربـي ــ السامي ــ سأحاول التوقف عند السمات المميزة، التي تسهـم فـي تحديد اكبر قدر من التميز لهذا التراث السامي، مثل اسطورة الخلـق،

وخلق حواء من الضلع ـ السادس ـ للرجل، نظرا لصداها داخل رقعة الفولكلور العربي ، واخصه الحكايات الخرافية ، المنقصة في كل حالاتها للمرأة (١) .

فالارث السومري هو بذاته الذي توارثه الساميون خاصة، ويتضمن اول آراء للانسان في اصل الكون وفلسفة الكائنات ومعظم ما سيصادفنا في دراستنا هذه عن الحكايات العربية المنشورة .

لذا فلا بأس من تقديم المامة موجزة عن ذلك التراث ، بما ييسر ما قد يعترضنا عبر هذه الدراسة عن الحكايات العربية .

فأهم العناصر والاجزاء التي كانت تؤلف الكون في راي المعلمين والحكماء السومريين هي « السماء » و « الارض » ومصطلحه هو (آن ـ كي) وهي كلمة مركبة تعني «السماء والارض» ، فكانت الارض على هيئة «قوس» منبسط ، والسماء فراغ مغطى من اعلا ومن اسفل بسطح صلب. وميزوا عنصرا ثالثا بين السماء والارض دعوه «ليل» اي الهواء (الهواء كالنفس، الروح) ويحيط بالكون السماء والارض، البحر اللامتناهي ، ثم استنتجوا ما يمكن تسميته ب «البحر الاول» اي انه لم يكن هناك وجود قبل البحر (٢).

ويتخلل «الجو» السماء والارض، وتولد من الجو الاجرام النيرة ـ القمر الشمس الكواكب والنجوم، واعقب انفصال السماء عن الارض وخلق الاجرام النيرة ان جاءت الى الوجود الحياة النباتية والحيوانيةوالبشرية.

وافترض اللاهوت السومري منذ اقدم ما وصلت اليه السجلات المدونة مجموعة الهة قوامها كائنات حية شبيهة في هيئاتها بالانسان، لا ترى بالعين المجردة تسير الوجود وتسيطر عليه بموجب خطط مضبوطة، فكل اله مسئول عن جزء من مسار الكون : السماء والبحر والهواء والنجوم وقوى «الجو» وعناصره الرياح والزوابع والعواصف ثم السدود والزرع والمحراث .

ومجمع الالهة يقوم على رأسه ملك، واهم افراده سبعة يقدرون المصائر ثم مجموعة مؤلفة من ١٥٠ يسمون الالهة العظام ثم هناك الهة خالقة، وغير خالقة .

واساليب الخلق للالهة الخالقة، اصبح عقيدة في كل الشرق الادنى، وهو مبدأ القوة الخالقة«للكلمة» ـ الالهية ـ فالاله الخالق ، يصمم ويخطط

---

(١) خاصة بالطبع بالنسبة للميراث « للذكر مثل حظ الانثيين » .

(٢) وكذا الماء مهبط عرش جميع الآلهة بلا استثناء .

ويقول «الكلمة» وينطق بالاسم «اسم الشيء المراد خلقه» . وهو ما لا يزال الى ايامنا ، يعيش لغويا على الشفاه ـ « كن . . يكون » .

وفي مقدمة ملحمة « جلجاميش وانكيدو والعالم الاخر » (١)، التي كثيرا ما تستقل عن جسد الملحمة الام ككل، وتتصل بالخلق، يبدو الاتي:

بعد ان ابعدت السماء عن الارض .
وبعد ان فصلت الارض عن السماء .
بعد ان عين اسم الانسان ـ خلق الانسان ـ
وبعد ان اخذ السماء آن « ـ اله السماء ـ
وبعد ان اخذ الارض « انليل ـ اله الهواء ـ

وعن ولادة اله القمر «سين» فيطلب الاله «انليل» من الالهة العذراء « ننليل » « الراعي الذي يقدر المصائر الاتصال بها . لكنها صدت عنه :

ان مهبلي صغير لا يعرف الجماع
وشفتي صغيرتان لا تعرفان التقبيل

ويغتصبها في مركب في النهر، فتحمل هذه الالهة باله«القمرسين» وعندما فزع الالهة وغضبوا لتلك الفعلة الشنيعة، امسكوا به ونفوه من المدينة الى العالم السفلى، على الرغم من انه كان كبير الالهة .

(عمد) الالهة العظام بمجموعتهم الخمسين
والالهة الذين بيدهم تقدير المصائر، سبعتهم
قبضوا على انليل (وقالوا له) :
ايها الفاسق اخرج من المدينة .

ويرضخ انليل ويرحل الى جحيم ـ سومر ـ ولكن ننليل وهي حبلى تتبعه الى منفاه في العالم السفلي، ويحزن قرارها هذا انليل اذ ان ابنه « سين » الذي ستلده ، والذي قدر له ان يكون موكلا بأعظم جرم سماوي وهو القمر، سيسكن العالم السفلي المظلم بدلا من السماء ، الى ان يدبر خطة يضللها بها . وفي الطريق يلتقي بثلاثة اشخاص، يرجح ان يكونوا من الالهة الصغار ـ وهم البواب الموكل بمداخل الجحيم، والموكل بنهر العالم السفلي، والموكل بالمعبر (مثيل كارون ـ ملاح المعدية ـ عند اليونان الذي ينقل مدنا بقاربه الى الجحيم .) ويتخذ انليل هيئة كل من الالهة الثلاثة بالتوالي (اي يتقمص اشكالهم) وهذا اول مثال معروف عن

---

(١) النص السومري الام .

التحول «كما سنشير بوضوح في باب «تحولات الابطال الخرافيين» او التحولات التي تعد ملمحا مميزا للحكايات الخرافية العربية، بما لا ينفي انــه ملمح عالمي بالطبع .

فحين يتصل بالالهة (ننليل) فتحمل منه :

« قال انليل للحارس الموكل بالباب :

ايها الحارس ، يا صاحب القفل

يا صاحب «المزلاج» يا صاحب « قفل الفضة»

لقد جاءت مليكتك

فاذا سألتك فلا تدلها اين انا

قالت ننليل لحــارس البــاب :

يا حارس الباب يا صاحب القفل

يا صاحب المزلاج يا صاحب قفل الفضة

اين سيدك انليل ؟

اجاب انليل متقمصا هيئة حارس الباب :

انه في استي انه في فمــي

انه قلبي الصادق البعيد

واضطجع معها انليل في الفراش متقمصا شخصية حارس الباب :

« فجامعها وقبلها »

وبعد ان جامعهــا وقبلها

زرع في رحمها بذرة (١) «ميلا متايا»

كما يلاحظ ان هذه الموشحات الشعرية السومريــــة المنبت التــي توارثها ــ العرب ــ الساميون ، هي بذاتها ما واصلت تواترها الى الشعر الملحمي العربي، خاصة سيرة بني هلال، حيــن احتالت **الجازية** ــ الالهــة القمرية لتلك القبائل العربية المتحالفة ــ علـــى حراس بوابــــاب تونس ــ السبع ــ (٢) متنكرة، بل ان في الاجابات الساتيرية الساخرة، لانليل وتقمصاته ما يذكر بشخصية ابو زيد الهلالي وقدرته الفائقة على التقمص عبر السيرة، ففي مرة بهلول ومداح وكاهن وشاعر ــ بل وفي الكثير امرأة.

---

(١) هــو لقب « نرجــال » اله العالم السفلي .

(٢) وهي مــا تزال بقايا بواباتهــا قائمة الى ايامنــا وزرتهــا خـــلال زيارتــي لتونس العاصمة ، بعــد ان نبهنــي د. محيالديــن صابر ، وتعرف ببوابات : البحر وسويقة، والخضره .

فلعل اول افكار عن خلق الانسان من ـ طين العمق ـ وبقية الافكار اليوتوبية الاسلامية لها جذورها السومرية .

وفي عام ١٩٥١ وجدت ترتيلة قوامها (٢٥٠ سطرا) من بين ١٩ لوحا وكسرة من لوح، عثر عليها في تنقيبات مدينة (نو) تصف الالهة «نانشه»:

(١) الالهة نانشة التي تعني بالارملة
التي تنشر العدالة لافقر الفقراء
ان الملكة تأوي اللائذين بحضنها وحماها
وهي التي تهيء المأوى للضعفاء

لقد وجد النص الذي يروي قصة خلق الانسان منقوشا على لوحين مكررين لنص واحد، جاء احدهما من مدينة نفر وهو محفوظ بمتحف جامعة بنسلفانيا، والاخر بمتحف اللوفر، ونشر «ستيفن لنجدون» قطعتين منهما عام ١٩١٩ ، ونشر «ادوارد كييرا القطعة الثالثة عام ١٩٣٤، ثم نشر كريمر «الاسطورة كاملة في كتابه «الميثولوجيا السومرية» ص ٦٨ـ٧٢ .

وتبدأ الاسطورة بتذمر الالهة في الحصول على قوتهم، بعد ان جاءوا الى الوجود، لكن «انكى» اله الماء الذي كان من المتوقع ان يخف لنجدتهم بصفته اله الحكمة،ظل ـ مضطجعا في مياه«العمق» غير مكترث لشكاتهم ثم نجد ان امه الالهة التي تمثل «البحر الاول» (وهي الام الاولى التي ولدت جميع الالهة) تأتي بدموع الالهة الى «انكى» وتخاطبه قائلة :

يا بني قم من فراشك واعمل ما هو حكيم لائق
اصنع عبيدا للالهة عساهم يضاعفون عددهم
فتدبر الاله « انكيى » الامر وقال لامه :
يا اماه ان المخلوق الذي نطقت باسمه موجود
فاربطي عليه صورة الالهة
اعجبني رب الطين الموجود فوق « مياه العمق »

كما يرد في هذا النص اول ذكر لقدر (٢) الانسان ـ ومصيره ـ الملازم لولادته، وهو الملمح او الخصيصة الاولى للتراث العربي الى ايامنا حين يذكر الاله انكى :

يا اماه قدري مصيره، انه الانسان .

---

(١) لها صورها ـ المتعددة في الحكايات الخرافية العربية « خاصة نعناعة» المنشورة هنا .

(٢) فقدر الانسان مصاحب لمولده ،في تراثنا،خاصة في تراث الحكايات الخرافية للاطفال الموعودين ، الذين تعد انماط حكاياتهم على طول البلدان العربية ، ملمحا رئيسيا لهذا التراث .

وعلى هذا النحو الاسطوري السومري الذي توارثه العرب ـ الساميون ـ ولد قدر الانسان المصاحب لمولده، المتبدي بكثرة مفرطة على طول تراثه بدءاً بمنتجاته الروحية، وانتهاء بحكاياته المعاشة ـ هذه ـ ومن هنا جاء الاعتقاد ـ العربي ـ في الاصل المتعال ـ او المتسامي : السامي ـ الذي لا بد وان يجيء عليه تمثله الاجتماعي الطبقي السلطوي .. وهكذا يصبح الانسلاب النظري انسلابا عمليا بتأثيره في الممارسة ويستفحل سياسيا » (١) .

ومن هنا تجيء اهمية التبصر بالمنبع المبكر للتراث السومري ـ الاسيوي الذي تواتر عبر تراثنا العربي ، متمثلا في حكاياته .

فبعد الانتهاء من خلق الانسان الكامل ، تنتقل القصيدة الى ذكر خلق انواع ناقصة التكوين من البشر ، لتفسر وجود مثل هذه المخلوقات الشاذة في الحياة، فتقص علينا كيف ان الاله انكى اولم وليمة، وجمع الالهة للاحتفاء بخلق الانسان (على ما يرجح) وسكر انكى وننماخ ، ثم اخذت ننماخ شيئا من الطين الموجود في مياه العمق، وصنعت منه ستة انواع من البشر الشاذين، عرف منهما نوعين، المراة العقيم والانسان الذي لا يعرف ان كان ذكرا او انثى :

لقد صنعت ننماخ ال.. على هيئة امرأة لا تلد

ووضعت ننماخ الـ .. على هيئة مخلوق ليس له عضو الذكر ولا عضو الانثى .

وهي جزئيات ما تزال تعيش بدورها في فوللكورنا العربي وخاصة الحكايات ، التي ستعترضنا نصوصها في هذا المؤلف .

وفي اسطورة «الماشية والغلة» التي تشير الى نزول الهة (الانوناكي) ابناء اله السماء «آن» الى الارض بعد ان خلقوا في «حجرة الخلق» :

لم يعرف «الانوناكي» اكل الخبز
ولم يعرفوا لباس الحلل
كانوا يأكلون النبات بأفواههم كالاغنام
ويشربون الماء من الجداول
في تلك الايام و «حجرة الخلق » الخاصة بالالهة .

واوجه الشبه والتوحد بين التراث العبري والاسطورة السومرية

---

(١) هنري لوفيفر ـ المنطق الجدلي : ترجمة ابراهيم فتحي ـ دار الفكر المعاصر ص ١٤٠ ـ القاهرة .

المعنونة «انكى وننخر ساج» مثلا واضحا على ذلك، وقد نشر نص هذه الاسطورة عام ١٩٥١ ولكن محتوياته بقيت غير واضحة الى عام ١٩٥٤ حين نشرت نشرة مفصلة عن النص . والقصيدة مؤلفة من ٢٧٨ سطرا، منقوشة في لوح مؤلف من ستة اجزاء، وهو محفوظ الان بمتحف جامعة بنسلفانيا ، ويوجد نص صغير باللوفر، تعرف عليه،«كييرا» وبه يرد كيف كانت بلاد (دلمون) (١) ارضا طاهرة مشرقةنظيفة،معدة للحياة ، لا تعرف المرض ولا الموت، لكن لم يكن ينقصها غير الماء العذب الملائم لحياة الحيوان والنبات، فيأمر اله الماء العظيم «انكى» يامر «اوتو» اله الشمس،ان يملأها بالمياه العذبة النابعة من الارض، وهكذا تحولت دلمون الى حديقة الهية خضراء بالحقول المزهرة بالاثمار والرياض .وفي هذا الفردوس الالهي خلقت الالهة «ننخرساج» (٢) (الالهة الام) العظمى عند السومريين (ولعلها «الارض الام» في اصلها ثمانية انواع من النبات تنمو وتزدهر ، لكن لم تفلح هذه الالهة في ان تظهر النباتات الى الوجود، الا بعد عملية معقدة شملت ثلاثة اجرال من الالهات، ولدن كلهن من اله الماء ــانكىــ وقد اكدت القصيدة ان ولادتهن تمت بدون ادنى الم عند المخاض .

ولما اراد انكى ان يذوق طعم هذه النباتات ، امر رسوله المسمى (ايسمد) (٣) وهو اله يمثل بوجهين، ان يقطف له من هذه النباتات العجيبة، فاتى بها الرسول وقدمها للاله الاعظم فاتى عليها كلها بالترتيب لكن لما علمت «ننخرساج» بالامر غضبت ونطقت (٤) بلعنة الموت على الاله «انكى» ولكي لا تتراجع في قرارها اختفت من بين الالهة .

وكما يتضح فالامر لا يبعد كثيرا عن اقدام آدم ــ ابو البشر ــ بتحريض من حواء الاولى على الاكل من الشجرة ــ او الفاكهة ــ المحرمة، وما اعقب هذا من طرده من الفردوس ، الى جحيم ــ الارض ــ وادماء حواء والانقاص من قدرها ، وتوحدها بالحية والشيطان .

وبدأت صحة «انكى» تتردى، ومرضت ثمانية من جوارحه(اعضاءه) واغتم الالهة العظام لمرضه وحزنوا عليه وجلسوا في الرغام، حتى انليل نفسه اله الهواء ــ كبير الالهة السومرية ــ لم يتمكن من انقاذه ، فانبرى الثعلب وقال للاله «انليل» انهاذا احسن مكافأته فسيأتي بالالهة«ننخرساج»

(١) الفردوس السومري ، او الجنة .

(٢) حواء السومرية الاولى .

(٣) الاله ــ الرسول ــ مثل تحوت، وجبرائيل، وقد يكون اسمه:ايسمد: احمد .

(٤) ولعلها اول افكار الدعاء بالشر ، منذ ٥ آلاف عام .

من مخبئها، ونجح الثعلب بحيلة ما، في ارجاع الالهة الام ، وشفى انكى المشرف على الموت ـ المقارنة مع التوراة ـ .

فالفردوس الالهي فكرة سومرية المنشأ والاصل في ارض دلمون ، وهو نفس الموضع الذي عينته الاساطير البابلية للساميين الذين غزوا السومريين واخضعوهم وسموا هذا المكان «ارض الاحياء» التي يعيش فيها الخالدون، ثم فردوس التوراة وهو «بستان» غرس شرق « عدن » المكان الذي تنبع من مياهه انهار العالم الاربعة ومنها دجلة والفرات .

والجزئية الخاصة، برواء دلمون من جانب اله الشمس بالماء العذب الذي ينبع من الارض لها نظيرتها في التوراة «ثم خرج من الارض ضباب فسقى وجه اليابسة جميعه» (ت٢ـ٦) وولادة الالهات التي تمت بلا مخاض والم، ثم لعنة حواء، واشراكها ـ اسطوريا ـ في دم الاله ـ الذكر ـ الذبيح .

وكذا أكل الاله انكى من النباتات الثمانية ولعنة آدم بعد اكله من شجرة المعرفة .

ثم فكرة خلق حواء «ام جميع المخلوقات» من ضلع آدم، وحواء كما وصفها التوراة بأنها «تلك التي تحيى اي تسبب الحياة» . ففي الاسطورة السومرية كان احد اعضاء انكى الذي اصابه المرض، هو «الضلع» والكلمة السومرية للضلع هي « تي » وسميت الالهة التي خلقت من اجل ان تشفي ضلع انكى باسم (نن ـ تي) اي « سيدة الضلع » .

واول من سبق ان اهتدى الى تفسير فكرة الضلع التوراتية ، في اساسها السومري، الباحث السومري الاب شايل :

في دلمون لا ينعق الغراب الاسود
ولا يصيح طير الـ «اندو» ولا يصرخ
ولا يفترس الاسد
والذئب لا يفترس الحمل ولم يعرفوا الكلب المتوحش الذي
يفترس الجدي، ولم يعرفوا .. الذي يفترس الغلة ولم توجد الارملة
والطير في الاعالي والحمامة لا تحني رأسها
وعجوز دلمون لا تقول انا عجوز .

اما العبارات التي تصف ولادة الالهات بلا الم، والتي تمت بعد حمل ٩ ايام بدلا من ٩ اشهر :

لقد عانقها وقبلها «انكى» واودع البذرة في رحمها
فاخذت البذرة في رحمها اخذت بذرة انكى
ومضى يوم واحد فكان شهرها الاول، ومضى يومان كانا بمثابة

شهرين من اشهرها .
وتسعة ايام صارت اشهرها التسعة، اشهر الامومة والحمل (١)
ومثل الزبد «كالزبد» كالزبد النقي الفاخر
ولدت الالهة «نن ـ كوا» .
اما اكل النباتات الثمانية فقد وصف في عبارات تظهر لنا الاعادة والتكرار الذي يتميز به الادب السومري :
تطلع انكى في الاحراش ونظر حواليه
وقال لرسوله «ايسمد»
لأقررن مصير نباتاتهم واعرف قلوبهم
ما هذا النبات ؟ انه نبات الشجر
فقطعه له واكله انكى .
وهكذا يأكل انكى من النباتات الثمانية ، نبات «الشجر»، نبات «العسل» نبات «الطريق» ، نبات «الماء» ، نبات «الشوك»، نبات «الكبر»، نبات الـ « ولم يعرف اسم هذا النبات السابع»،نبات «القاسيا» (٢) فلقد قرر انكى مصير هذه النباتات وعرف سرها، ولما علمت «ننخرساج» لعنت اسم «انكى» واختفت، وافلح الثعلب في ارجاعها وابرأت اوجاعه الثمانية المعلولة ، ومن بينها «الضلع» وحققت له الشفاء عن طريق الالهات الثمانية:
«اجلست» ننخرساج انكى في حضنها «عند عورتها»
ما يؤلمك يا اخي ؟ ان فكي هو الذي يؤلمني .
يا اخي ما يؤلمك ؟
« ان «ضلعي» هي التي تؤلمني»
لقد ولدت من اجلك الالهة «نن ـ تي» أي (٣) سيدة الضلع « او » السيدة التي تحيى» .

★ ★ ★

(ولا بأس في الاستطراد ، حول بعض مدونات ونصوص هذا

---

(١) ما تزال الى اليوم تعيش على الشفاه، كأغنية امومة شائعة .

(٢) وهو كما يتضح موقف متقدم ، ذلك ان انكى ، او ادم السومري ، يقتحم تابو الاكل من ثمانية نباتات محرمة او تابو ـ ومن الثابت ان التابو يتحكم في كل ما يؤكل ، عبر تاريخ المطبخ ، او من النيء للمطبوخ ، كما يقول شتراوس ، مع ملاحظة نبات القاسيا أو مشتقات القرع ـ المقدس ـ للنبي يونس .

(٣) حواء السومرية .

التراث الاسطوري فيما بين النهرين الذي تواتر الى تراثنا العربي منذ حوالي ٥ آلاف عام ، وما تزال تعيش معظم جزئياته على الشفاة ، تحت جلد تركتنا ـ خاصة ـ من الحكايات الخرافية ، ومنتجاتنا الروحية .

فالكلمة السومرية المناظرة لكلمة (هادس) الاغريقية و « شيئول » العبرانية هي « كور » التي تعنى في اصلها « جيلا » ثم صارت تعني بعدئذ ، « البلاد الاجنبية » لان الاقطار الجبلية المتاخمة لبلاد « سومر » كانت خطرا مستديما على اهلها ، خاصة من اخطار وصراعات ،الميديين الايرانيين ، والحيثيين الاتراك .

وفي العقائد السومرية فان « كور » هو المكان الفارغ بين « سطح الارض » ، و« البحر الاول » واليه تذهب اشباح الموتى جميعا ، وكان الوصول اليه يستلزم عبور « نهر يبتلع الانسان » بواسطة قارب يسيره ملاح خاص هو « الموكل بالقارب » مثل نهر « ستايكس » والملاح « كارون » عند الاغريق ، ومثل بحر الظلمات في الحكايات العربية .

وفي الاساطير اليونانية نهر « ستايكس » هو نهر « هادس » ، اي العالم الاسفل او الجحيم جهنم » :

ورغم ان العالم السفلى موطن الاموات ، الا ان به نوعا من الحياة « اشعيا » (١٤ : ٩ ـ ١)

وكان من الممكن لاشباح الموتى في احوال معينة ان « تقوم » وتصعد الى الارض لاجل محدود (صموئيل الاول ٢٨) . كما في القصيدة السومرية عن (جلجامش وانكيدو والعالم السفلى).

وفي نص أنليل وولادة الالهة الثالثة ، نتعرف على الهين ساميين هامين هما الاله الراعي) دموزي » (١) اشهر الالهة الميتة و (٢) « أنانا » او اناثا اي عشتار عند البابليين ، وفينوس عند الرومان وافروديت عند الاغريق وهي أنانا عند السومريين اي « ملكة السماء »

كما عثر على اسطورة عن لعنة الدم ، او ضربة الدم. وهي جزئية سامية ترد بكثرة في الحكايات الخرافية العربية ، حيث حولت احدى الآلهات جميع مياه البلاد باكملها الى دماء ، بسبب خطيئة ارتكبها ازاءها احد البشر الفانين والمثل الوحيد الماثل لفكرة « ضربة الدم » (١) ، في جميع الآداب القديمة هي القصة المرتبطة بحوادث ـ سفر ـ الخروج،

---

(١) اي تموز

(٢) الذي اكتمل اسمها في انثى.

حيث حوّل الاله يهوا مياه مصر الى دماء وترد بتلقائية بليغة ، على النحو التالي :

كان يعيش في قديم الزمان بستاني اسمه شوكليتودا ، ورغم عمله المتواصل ، لم يكن يجد سوى ابليس والموت ، وكانت الرياح السامة ـ ريح السموم ـ تلطم وجهه (بغبار الجبال) ، فاتجه الى السماء ذات النجوم ، ولما نال الحكمة ، غرب شجرة الـ (سربتو) (شجرة الغرب المنتشرة في العراق) وازدهر بستانه .

وحدث ذات ليلة ان « أنانا » (الالهة السومرية المضاهية لافروديت الافريقية وفينوس الرومانية) كانت منهكة واضطجعت ، فجامعها البستاني ولما طلع النهار وصحت انانا ، وتنبهت للعار الذي حاق بها ، سلطت على سومر ثلاثة انواع من الاوبئة :

١) ملأت جميع آبار البلاد بالدم .
٢) سلطت رياحا وعواصف على البلاد .
٣) واما البلاء الثالث فطبيعته غير معروفة لان الاسطر محطمة .

ورغم تسليط هذه الاوبئة والبلايا ، فان انانا لم تستطع ان تعثر على من انتهكها ، اذ ان شو ، كان يذهب الى بيت ابيه ويبلغ بالخطر المحدق ، فكان الرب ينصحه بملازمة المراكز والمواطن الحضرية ، وهناك لن تعثر عليه انانا ، ولذلك عزمت الآلهة على استشارة الاله « انكى » اله الحكمة السومري (وهنا يضيع النص ايضا) .

وذات يوم بعد ان عبرت (انانا) ملكة السماء والارض
بعد ان قطعت بلاد عيلام وبلاد شوبر
اقتربت البغي المقدسة الى البستان تعبة وغطت في النوم
فرآها « شوكليتودا » من حافة بستانه
ضاجعها وقبلها وعاد الى حافة بستانه
طلع الفجر وأشرقت الشمس
فنظرت المرأة حولها جزعة
نظرت أنانا حولها وجلة جزعة
فتأمل ما اعظم الضرر الذي احدثته المراة من اجل عورتها (٢)

---

(١) ما تزال تردد كدعاء « الهي يبتليك يا فلان .. بضربة الدم » .

(٢) بكارتها واخنوشها وعذريتها ، أي كما هو الحادث عى ايامنا ومنذ الخمسةآلاف عام.

أنانا من اجل عورتها (١) ماذا صنعت
لقــد ملأت جميع آبار البلاد بالدم
فامتلأت جميع احراش البساتين في البلاد بالدمــاء
لقد صار العبيد حين يذهبون للاحتطاب لا يشربون الا الدم
والايماء اذا ما جئن للتزود بالماء لا يملأن الا الدم .
قالت لأجدن من ضاجعني في جميع ارجاء البلاد
لكنهــا لم تجد الذي جامعها (٢) .

كذلك تجدر الاشارة الى اول جزئيات شهدها العالم القديــم عــن مطاردة الانثى للذكر ، حين عشق دموز الالهة ــ البغــي ــ أنانا ، فاهلكته « فلقد فاته ان يأخذ حذره من طموح المرأة الذي ملك عليه مشاعــره » . وهذا ما ترويه لنا اسطورة « نزول انانا الى العالــم السفلــي » واهميــة هذه الاسطورة في تضمنها لفكرة البعث (القيامة) .

فبالرغم من ان انانا كانت سيدة السماء اي العالم العلوي كمــا يــدل على هذا اسمها ، الا انهــا رغبت في توسيع سلطانها وان تحكم العالـــم السفلي أي جهنــم . فصممت على الهبوط اليه ، وجمعت كل مــا لديها من « نواميس » الهية وحلي ، واصبحت على اهبة الدخــول الــى تلــك « الارض التي لا رجعــة منهــا » .

وكانت ملكــة العالم السفلي ، اختهــا الكبرى وعــدوتهــا اللدودة «ايرشكيجال» (٣)،الهةالموت والظلام عنــد السومريــن . ولما كانت انانا تخشى ان تميتهــا اختها ، وكانت محقــة في مخاوفها ــ فأوصت وزيرها « ننشوبر » انهــا اذا لــم تفلح في العودة في مدى ٣ ايــام ، فعليــه ان يندبهــا عند خرائب قاعة « مجمع الآلهة » ثم يرحل الى « نفــر » مدينة الاله « انليل » كبيــر الالهــة السومريين ، يستعطفه ، واذا رفض يقصد « اور » مدينة اله القمر « انليل » ثم « اريدو » ومدينة أنكى ، وهو اله الحكمــة الذي يعرف سر « طعام الآلهة » ويعرف « ماء الحياة »، والاخير

(١) فرجها، ويبدو ان انكى حين ضاجعها ، اخذ وشها او فض بكارتها . ويلاحظ انه اقدم نص في الحفاظ على هذا ــ التابو ــ البكارة ــ ٥ آلاف عام ــ كما يلاحظ حواء الاولى هذه وهي المرأة ــ الانثى ــ قبل الذكر ، هي حارسة هذا التابو .

(٢) ترد هذه الجزئية في تنويعات حكايــة خرافية عن ابنة حكون الجميلــة التــي عادة ما تفقــد ــ حلقها ، او خلخالها ، فتطارده طويلا ، عبر رحلات مضنية .

(٣) وهي اللات في الميثولوجيا العربية الجاهلية .

لـــن يتوانى عـــن نجدتهـــا .

وتهبط أنانا الى العالم السفلي بابوابه السبعة ، وعند كل باب تفقد ملابسهـــا وحليهـــا ، الى ان تصبـــح عاريـــة امـــام ايرشكيجال « وقضاتها السبعـــة المخيفون ، فصوبوا اليهـــا نظرات الموت وتحولت على الفـــور الى جثـــة هامدة » .

ومرت ثلاثة ايام وليال ، وفي اليوم الرابع عندما رأى « ننشوبر » انهـــا لـــم تعد ، ذهب الى المدن وتوسل ، فأبوا ، الا انكى الذي خلق لهـــا الهان ، زوداها بطعام وماء الحياة ، فنزلا ونثرا الطعام والماء (١) ،وعادت انانا الى الحياة ، ورغم هذا فلم تنتهي آلامها ومتاعبهـــا فهنـــاك قانـــون لا تعرفه من قوانين « الارض التـــي لا رجعة منها » اذ لا بـــد مـــن ايجاد بديل عنهـــا ليحل محلها ، لكي تعـــود الى العالم العلوي برفقـــة شياطيـــن غلاظ ـ وعادت أنانا برفقتهم ، وكانت كلمـــا دخلت مدينـــة ، حل الخوف والذعر قلوب آلهتها وحماتها ، فلبسوا المسوح وتمرغوا في التراب امـــام انانا ، فتقبلت على مـــا يبدو خضوعهم وتذللهم ، ومنعـــت شياطينها مـــن اخذهم الى العالم السفلي،الى ان وصلت مدينـــة «كلاب»(٢) وكـــان الهها الحامي دموزي ، ولمـــا كان زوج أنانا ، فقـــد رفض التمرغ في التـــراب ولبس المسوح ، بل انه ارتدى حلل العيد والافراح ، وجلس متربعـــا على عرشه ، فغضبت أنانا وصوبتعليه نظرة الموت واسلمته الى ايدي الشياطين القساة ، وامتقع دموزي وبكى واستجار باله الشمس « اوتو » للخلاص من قبضـــة الشياطيـــن .

لكن في منتصف عبارات الضراعة ، فسد اللـــوح ولم يعرف ما به ، الا اتـــه عرف من مصادر اخرى ان دموزي كان مـــن آلهة العالم السفلي، لذا لم تفلح ضراعته لاله الشمس « اوتو » ونقل الى العالم السفلى .

★ ★ ★

فكمـــا هو واضح يتبدى مدى تأثير هذا التراث السومري اللاسامي

---

(١) اول افاكر وماثورات شهدها العالم عن وهب الموتى للخبز ـ القربان ـ والماء ، احـد ممارسات وشعائر فولكاورنا العربي وسماته .

(٢) يمكن ان تشير مدينة كلاب هذه ـ السومرية ـ الى الكالبين او ال Dog Men السامييـن العرب .

الذي توارثته الشعوب السامية ، فواصل سريانه عند مختلف شعوب وحضارات الشرق الادنى القديم ، منذ مطلع الالف الثانية قبل الميلاد . سواء عند البابليين ، في اعرق ملاحم شعر البطولة ، التي جاء بها العالم القديم ، « جلجاميش » ، واساطير وحكايات تموز وعشتروت ، التي كانت تمسخ عشاقها عقب الجماع ، والتي مسخت ـ واصبحت بدورها شخصية كيركه (١) ، في الحكايات الخرافية ـ خاصة العراقية والسورية واللبنانية والفلسطينية وكذا مجمل سمات الحكايات العربية بالاضافة الى عديد من العبارات والتضمينات السارية في فولكلورنا، مثل : البحث عن ماء الخلود، ومقاومة ـ ابطال الحكايات ـ للنوم، والالغاز والحذور، والاتصالات بعالم الموتى ، وبادىء ذي بدء ما تنفرد به قصص الخلق السامية ، أي الخطيئة الاولى والعقاب بالموت، وعن خلق المراة من الضلع ـ السادس ـ للرجل ، او آدم السومري ، البابلي الكنعاني العبري ، العربي ، وهو ما سنتوقف عنده بتفصيل موجز ، فلعل التركيز على دراسة مأثور ـ اسطوري ـ واحد ، دراسة مقارنة ، والتأني عنده قليلا ومن المدخل البنائي ، مثل هذا المأثور عن الخلق والخطيئة الاولى ، التي تقف كسمة ـ استراتيجية ـ متميزة ومميزة ـ في ذات الآن ـ لتراثنا العربي السامي.

ففي التركيز على دراسة الظاهرة او المأثور الواحد ما يكفي كبرهان لصياغة حكم اعم لتراثنا .

★ ★ ★

(١) كما يذكر الكسندر كراب ..

الفصل الثالث

حول قصص الخلق والخطيئة الاولى، وادانة الانثى

فعندما قرر الله ان يهب آدم انيسا ـ او انسى حتى لا يصبح وحيدا في نوعه ، جعله في نوم عميق ، وحرك واحدا من ضلوعه وشكله على هيئة امراة ، ثم سد الجرح ، وعندما استيقظ آدم تساءل « هذه عظم من عظمي ولحم من لحمي وسأدعوها امراة » ذلك لانها اخذت من لحم رجل ، فالرجل والمراة سيكونان لحما واحدا » وسماها حواء ، أي ام كل المخلوقات من انسان وحيوان .

ويرى البعض ان الله خلق الرجل والمراة على صورته في اليوم السادس ، ووهبهما صيانة كل العالم الا ان حواء لم تكن قد وجدت بعد ، وطلب الله من آدم ان يسمي كل حيوان بهيم وطائر ، وكل الاشياء الحية، وعندما مروا من امامه في ازدواج الذكر والانثى ، بدأ آدم على الفور، كرجل في العشرين من عمره ، مختالا من حبه لهم ، واختبر نفسه مع كل انثى على التوالي ، لكن دون ان يكتفي ، ولهذا صرخ شاكيا : « لكل مخلوق قرينه ، الاي » .

وتوسل الى اللهان ينقذه من هذا الاجحاف، فشكل له الله«ليليث» اول امراة على شاكلة آدم،الا ان الله استعمل القذورات والاوساخ والرواسب الطفيلية في صنعها بدلا من طين العمق وباتحاد آدم بهذه الشيطانة ، ومع اخرى على شاكلتها تدعى نعمه (١) ، أخت قابيل « كايين » التي نثرت ما لا يعد ولا يحصى من الشياطين التي لا زالت آفة ووباء الجنس البشري .

ولم يجد آدم وليليث جنبا الى جنب سلاما . فعندما اراد ان ينام

الى جانبها استاءت من وضع المضاجعة وغمغمت :« لِمَ يجب علي الاضطجاع الى جانبك » .

واضافت ، فمثلك أنا ايضا من تراب ، لذا فانا اساويك » وعندما حاول آدم ــ ارغامها على اطاعته بالقوة ، انفجرت ليليث متفوهة باسم الله السحري المقدس وتركته منفلتة طائرة في الهواء .

واشتكى آدم الى الله : « لقد هجرتني زوجتي لحمي » فارسل الله رسله الثلاثة ليرجعوا الليليث ، لكنهم وجدوها بجوار البحر الاحمر في اقليم تتكاثر فيه الشهوات الشيطانية ، وهناك كانت تنجب المئات من الريمى . فقالوا لها « عودي الى آدم بدون ابطاء « قالت الملائكة : « والا فسنجبرك » . فقالت ليليث « كيف لي ان اعود الى آدم وأحيا كزوجة بيته الوفية بعد ان عاشرت البحر الاحمر » ، وعندما هددها الملائكة بالموت قالت :

« كيف لي ان أموت اذا ما كان الله قد اوصاني بأن اكون مشرفة على كل طفل ذكر جديد يولد في العالم حتى يومه الثامن ، اما البنات فان على رعايتهن حتى يومهن العشرين » .

لكن الله عاقب ليليث ، بان جعل مائة طفل من اطفالها الشياطين تقتل وتموت يوميا .

ويعتقد البعض ان ليليث متربعة كاميرة سمرقند ، كما اعتقدوا في انها ملكة سبأ ، وانها كانت الشيطانة التي حطمت اولاد يعقوب ، وهي التي جاءت بالموت ــ الى العالم ــ من قبل السقوط .

فليليث واختها نعمة لا تقومان فقط بخنق الاطفال الحديثي الولادة، لكنهما ايضا تقتلان وتغويان الرجال النائمين ، واي شاب اعزب ينام وحده يصبح فريسة لهما ، وهو المعتقد الذي ما يزال ساريا الى ايامنا، وتكشف عنه الحكايات الخرافية ، المصرية والعربية بكثرة واضحة .

فهو (٢)معتقد اسطوري ــ خرافي ــ راسخ يمكن في حالة التوفر على دراسته

---

(١) يلاحظ انه بعد عدة اجيال ــ جاءت ليليث ــ حواء الاولى ــ واختها نعمة الى عرش عدالة سليمان الحكيم ، متنكرتين في هيئة زانيات اورشليم .

(٢) فمخاواة الليايث هذه للشبان العزاب النائمين الفرادى ، ماثور رئيسي في تراثنا، وفي دراستي القادمة عن سيره او ملحمة « الزير سالم ــ ابو ليلى ــ المهاهل ، كبطل فلسطيني ، تعرضت لتسمية الزير بابو ليلى ، استنادا الى هذا المعتقد، واوردت الكثير من الاشعار الشعبية حول الليليث او ليلى هذه .

بالاستعانة بالنماذج والتنويعات ، سواء التي ترد بكثرة يمكن ان تشكل ظاهرة في الحكايات الخرافية العربية ، من شفاهية ومدونة ، وسواء داخل الممارسات والشعائر الدينية ، للنحل والملل والطرق الصوفية ،على طول بلداننا العربية،مرتبطة ايضا بطقوس الزار والذكر والتوسل بالانتشاء الصوفي واغاني التخمير ، ودلائل الخيرات ، حول عشق الانسى ، للجنية ــ او الالهة ــ او النداهة ليلى (١) .

وسأتعرض لهذه السمة او الظاهرة، وما يشاع حولها من آلاف المأثورات الخرافية ــ الشعائرية ــ او المغلفةبالمنتج ــ بضم الميم ــ الروحي، ومئات القطع الشعرية ، التي انتهت ايضا في مواويل ولوازم بدء الغناء المعروفة :

ــ يا ليل يا عين .

بما لا يبعد بنا عن استكمال فابيولتنا ــ الاسطورية ــ هذه : ومرة ثانية قرر الاله ان يهب آدم زوجة ملائمة تجيء «تُصنَّع» من العظام والاوعية الدموية والدم والعضلات ثم غطى او كسى العظام لحما ، ثم حدد اماكن الشعر ، ثم جعل منظر حواء الاولى لآدم ،وهي واقفة في كامل بهائها ، يتسبب له في نفور لا يقهر تجاه حواء الثانية ، فعرف الاله انه اخطأ ثانية، ثم اخذ حواء الاولى هذه بعيدا ، الى حيث ذهبت واختفت دون ان يعرف احد لها مكانا .

ثم أراد الاله مرة ثالثة ــ الثالثة ثابتة ــ بشكل اكثر احكاما « خلق المرأة » بأن اخذ ضلعا من ضلوع آدم خلال نومه ، وشكله الى امراة ثم ضفر شعرها وزينها مثل عروس في الرابعة والعشرين من عمرها . قبل ان يوقظه . وعندما صحا آدم اصابه الذهول .

والبعض يقول بان الاله ، لم يخلق حواء من ضلع آدم ، لكن من نهاية الذيل الذي كان ــ قبلا جزءا من جسده ، اقتطعه الله وهو ما يعرف (بالعصعوصة) او الذنب التي ورثها ابناء آدم .

وتضيف بعض المصادر بان المنبع الاصلي لتفكير الاله كان متجها الى خلق انسانين ذكر وانثى ،وبدلا من هذا فقد قرر ان يخلق واحد، بوجه رجل من الامام ، ووجه امراة من الخلف ، ومرة اخرى غير رايه ، محركا ظهر آدم،

---

(١) والتي ترد عند بريخت باسم « لولو »

وبنى جسده كامرأة لهذا الغرض .
وما يزال البعض يتمسك بان خلق آدم الاصلي ، كسلسال ـ كوزموجولجي ـ لاجساد الرجل والمراةمرتبطين ظهرا لظهر، وعندما اتضحت مصاعب هذا الوضع ، فصل الاله هذه الثنائية ، واعطى كل نصف مؤخرته الجديدة ، وهذه المخلوقات (الثنائية) المنفصلة ، اسكنهما جنة عدن محرما عليهما الاقتران .

اما عن جزئية ان اول استيقظات جنسية لآدم ، كانت مع الحيوانات وليس مع النساء ، وربما كانت منحدرة من الانتشار الواسع للبهيمية في الشرق الاوسط التي ما تزال بقاياها سارية بفعل العادة . والتي تمثلت ثلاث مرات في الاسفار الخمسة ـ البنشاتوك ـ كجرم رئيسي ، كما في الملحمة ـ الاكادية ـ جليجاميش .
فقد قال انكيدو انه عاش مع الغزلان والظباء ، وانه قد اندفع مع بقية الحيوانات المتوحشة عند موارد الماء ، الى حين ـ احضاره ـ وتحضره بواسطة كاهنة ، اتيح له التمتع باحتضانها ومضاجعتها لمدة ستة ايام وسبع ليالي ، وعندما رغب في العودة الى الحيوانات ولدهشته الشديدة هربت جموع الحيوان من منظره ، وعرف انكيدو حينئذ انه جنى سوء الفهم ، وقالت الكهنة : « انك حكيم يا انكيدو مثل اله » .

فالانسان القديم الفطري كان ممسوكا بالتراث البابلي ، ولهذا فان ملحمة جيلجاميش اعطت انكيدو ملامح « شعر راسه مثل شعر امراة وله مظهر آلهة المحاصيل ـ الانثى ـ نيسابا .
فالتراث العبري الذي حمل بوضوح من منابعه البابلية ـ والمتوارثة بدورها من السومرية ـ والذي استعمل التعاليم (التنائيم) المدراشية، ليصف ازدواج آدم الجنسي .
فهناك اختلاف بين اساطير الخلق التي جاء بها التكوين الاول والثاني ، بما يسمح لليليث بان تكون اول مخلوق ـ انثوي ـ للذكر آدم .
واقدم نص ـ سومري ـ يحتوي على واقعة الضلع .
أما ليليث فتكنى بأناثا (١)،،ي المرأة الكنعانية التي صرح لها قبل طقوس العرس المختلط بمخاواة العزاب الفرادى ، ولكن بعد زمن الانبياء فضحوا

(١) التي حرفت بدورها الى انثى ـ الشائعة اليوم .

النساء الساميات باتباعهم الممارسات الكنعانية ، التي بدأت بموافقة الكهنة، وشيئا فشيئا مضت في التلاشي ، الى ان حرمت .

وصراع ليليث مع البحر الاحمر ، تفتق عنه ايمان الساميين القديم بان الماء يجذب الشياطين ، وانها تجد مرفأها الذي يتستر عليها .

وهذا هو ما تسبب في خنق ازواج سارة الستة الاول ، وهرب ـ الشيطان ـ بعدها « الى اقصى بقاع مصر » .

اما مساومات ليليث مع الملائكة، فلها متنوعاتها الشعائرية لحماية الوليد الجديد ضد ليليث ، وخصوصا ـ المولود ـ الذكر ، حتى يمكن ان يكون له حارسه الدائم ـ بشعائر وتابو ـ الطهور .

وكانت ترسم دائرة بفحم الخشب على حائط حجرة العرس ويكتب داخلها «آدم وحواء اغربي ياليليث» ، اما اذا ما تمكنت ليليث من الاقتراب من الطفل الوليد، وشغفت به عشقا، فلا بد من ان يضحك في نومه ، ولتجنب الخطر، ينبه الطفل بان يوضع اصبعه بين شفتيه، وعلى الفور تختفي ليليث او الشيطانة .

وليليث كلمة بابلية اشورية ومعناها انثى العفريت او العفريتة او الريح ، ويتكون اسمها من الاحرف السحرية الثلاثية التي ذكرت في الهجاء البابلي، لكنها ظهرت مبكرا منذ السومريين قبله، اي حوالي ٣٠٠٠ قبل الميلاد، في النص السومري المنحدر من الاورية والمحتوى على حكاية جيلجاميش والشجرة الصفراء : ثم حرفت شعبيا فتحولت من ليليث الى ـ ليل (١)، وكانت تظهر عادة كخارقة ليلية، شعرها طويل في الفولكلور العربي والمصري . ولقد اعتقد سليمان في ان ملكة سبأ ما هي الا ليليث، وذلك لكثافة الشعر الذي يغطي جسدها وساقيها . وليليث تقطن الاماكن الخربة في الصحراء الادومية ـ بين سوريا والاردن ـ وتخلف الريمى والبجع والبوم والغربان وابناء آوى والنعام والحيات والحدآت .

ويدعى ابناء الليليث ليلم في التارجوم الاورشليمي .

وفي القرن الرابع عشر وحد ـ هورنيموس ـ بين الليليث واللاميا

---

(١) ما تزال خرافتها تعيش على الشفاه ، واستوحاها الكاتب توفيق حنا ، باشراف الرائد الكبير يحيى حقي في اوبريت قدمت على مسرح الاوبرا عام ١٩٥٥ « يا ليل ياعين » .

اليونانية ، واللاميا اميرة ليبية هجرت من زيوس بعد ان سرقت من زوجته هيرا اولادهــا .

فواصلت انتقاماتها بان راحت تسرق زوجات الاخرين من ذويهم . وهكذا تمثلت في اللاميا التي تغوي (١) الرجال النائمين، وتمتص دماءهم وتلتهم لحمهم، مثلما تفعل الليليث ـ وتابعاتها من العفاريت .

ووجد في الرسوم الحائطية (رليف) الهلينية اللاميا تفترس احــــد المسافرين وهو ـ مضطجع على ظهره ، وربما كان في هذا تشخيصــــا للحضارات التي فيها تعامل المرأة كأثاث او كممتلك للرجل «وشروات ماله» كما هو الحال بالنسبة للعرب الساميين ، حيث يرد المئــات مــن الامثــال والمأثورات التي تحط من قدر المرأة .

فخلق الله لحواء من ضلع الرجل اسطورة مستقرة منتشرة، تكشــف عن سيادة الرجل الذكر، منكرة قدسية حواء منقصة من موازاتها للرجــل على طول البحر الابيض، او اساطير الشرق الاوسط (المبكرة) وربما كانــت القصة مأخوذة من رسوم اناثا، متوازنة في الهواء لامسة عشيقها الالــه «موت» وهو يقتل عمدا توأمه«اليان» بينما الاله موتيحفركهفا تحت ضلع اليان ـ الخامس ـ دون ان يحرك الضلع السادس .

وترجع هذه الاسطورة ـ المصورة ـ الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ولعلها ما تزال محفوظة في المقولات الشعبية «اكسر للبنت ضلع»..

★ ★ ★

اخيرا نجد انه فى حالة العودة الى نقطة انطلاقنا ، حول **المنابع الاولى لفولكلورنا واساطيرنا العربية بعامة**،وحكاياتها الخرافيةبخاصة،نجد الاتي :

١) ان العلوم الطبيعية لم تحرز تقدمها المحقق، الا بعــــد جهــود محققة في مجال التصنيف المنهجي للاشياء، وعناصرها . ونفس الشــــيء يجري سريانه بالنسبة لتراثنا ومأثوراتنا وحكاياتنا الخرافية هذه . سواء فيما يختص بالتركة الحفرية الاركيولوجية، للحضارات المكونة والمتعاقبــة على شرقنا الادنى ـ القديم،منذ السومريين وورثتهم ـالعرب ـ البابليين، او ما يخص الجانب ـ الشفهي والمدون ـ والمتواتر المعاش اليوم والان، والذي ما يزال الى ايامنا ضنينا جنينا يواصل تواتره ، وكذا ممارسته .

---

(١) مثل النداهة ، وغيرها من الخوارق الفولكلورية المصرية والعربية .

٢) في حالة ربط عجلة هذا التراث بالتربية او انماط تربية الاطفال وتنشئتهم يمكن القول بأن تجبر هذا التراث المحاط بكل ـ شعائر ـ التحريم والتابو والانيمزم، والمسميات السلفية للتراث ـ الخالد ـ ، بما يستلزمه من حفظ وتجويد، وبما يحفظ ويجبر كل جيل على الخضوع للجيل السابق له، في حين يسيطر على الجيل الذي يليه، كما اشارت مارجريت ميد .

٣) تجميع محاولات التصدي لاقامة علم حقيقي ، يمكن اشهاره **كسلاح عقلي في مواجهة الخرافة ، وانسلاب العقل العربي**، دون يأس وحسرة من وعورة مواصلة التقدم واقتحام المحرمات والتحديات، التي تفرضها الطبقات السلطوية صاحبة المصلحة العليا، في الابقاء على الخرافات كمنزلات بدلا من كونها حفائر حجرية .

★ ★ ★

اخيرا .. اذا كنا قد بدانا هذه الدراسة حول المنابع والجذور الاولى لتراثنا ، من تاريخية زمانية، فمن الاجدى لنا استكمال الجانب المكاني، ولنقل المؤثر الاقرب ، والمكون لسمات هذا التراث المترامي ، وفي اطار البحث المضني عن منهج، او عن مفهومات للالمام ـ الاستراتيجي ـ العام، بالقدر المتاح .

والجانب المكاني هنا يكتمل بمعرفة الدور الآري ـ الاسيوي ـ المناوىء والمغلب على الدوام، واخصه هنا الدور والاشعاع الحضاري الاقرب الى التجانس، للفرس الايرانيين ـ العجم ـ منذ اقدم العصور، فحتى الحروب القبائلية الطاحنة ، بين كلا الفرس الآرين ، والعرب الساميين ، يمكن اعتبارها ـ مجرد ـ مداخل لاستجابة التوحد قوى التوحد (١) الضاربة الجذور ، بين العرب الساميين والفرس الآريين .

★ ★ ★

---

(١) مع عدم اغفال استخدامنا هنا لمثل هذه المسميات ، من المنطق اللغوي ، وليس ابدا الجنسي العنصري .

الفصل الرابع

العلاقة التاريخية والتراثية بين الساميين العرب والفرس الآريين

نظرا للتزاوج الواضح الشديد بين التراثين المتناخمين ، السامي العربي ، والآري الهندي ـ الفارسي ـ منذ اقدم العصور ، او منذ فجر التاريخ في اسيا الغربية ـ منذ منتصف الالف الثالث ق.م ـ خاصة وقد تسبب هذا الامتزاج الحضاري بعامة، والتراثي الاسطوري الفولكلوري بخاصة، في ايقاع عديد من رواد الدراسات الآرية والسامية، والفولكلورية بعامة ، واخصهم جريم ، وبنفى ، والمدرسة الشرقية في مجملها ، في كثير من الاخطاء المنهجية حول اصول ومنابع التراث الاوروبي، وقنوات هجراته ، مما نتج اغفال لدور بلداننا العربية او الشرق الادنى القديم ، كمعبر (١) ومؤثر حضاري للتراث الاوروبي .

ونظرا لاحتياجنا نحن هنا في عالمنا العربي، الى المعرفة بأصول ومنابع وقنوات تراثنا، ما شابه وخالطه من مؤثرات ، خاصة وان الشرق الادنى القديم كان منذ اقدم عصوره واطولها، مجالا سجالا لتنازع كلا الساميين والآريين ، واخصهم الفرس الايرانيين .

فظهر بذور الارتباط منذ ظهور العيلاميين في فترة لاحقة لعصر

---

(١) بالاضافة الى المؤثرات التي يمكن ان تضفيها عمليات النقل والترجمة للتراث الآري،التي اضطلع بها العرب واليهود ، والسريان الموارنة . منذ ما قبل العصور ـ الاسلامية ـ الوسيطة ، والتي تضاعفت بعد الاسلام .

جمدة نصرفي سومر ـ ما بين النهرين ٢٩٠٠ ق.م. كذلك بين الهندو ايرانيين الميديين والبارسيين الذين تملكوا ايران منذ مطلع الالف الثانية ق.م. رغم ان مخلفاتهم الاثرية لا تكشف ابعد من القرن التاسع ق.م. فاقاموا الامبراطورية الآخية ـ الآرية ـ التي كان لها اشد التأثير في بابل بالعراق منذ تملكوها تحت اسم الكاشيين .

ومع بداية الالف الثانية ق.م. ظهرت قوة مؤثرة جدا وهم الحيثيون في مجمل اسيا الصغرى، ومعروف دورهم الاناضولي ـ التركي ـ منذ بدء ظهورهم على مسرح احداث الشرق العربي ، ومؤثراتهم التراثية الحضارية ، على مدى اربعين قرنا .

كما ظهرت قوة جديدة منذ القرن ١٦ ق . م . تعبد الاله الفارس ميثرا ، وانديرا ، وناساتياس ، هم الايرانيون وكانوا يتبعون النظام العشائري، وكان داريوس الاول، اول من سمى نفسه بايران ، وتوثقت العلاقات والتأثيرات المتبادلة بين هؤلاء الفرس الآريين الاوائل وبين العيلاميين منذ الالف الثانية ق.م. في سوسه، وسيالك بالقرب من كاشان. ويلاحظ ان سوسه كانت بمثابة المركز المشع حضاريا وتراثيا ـ فيما بين الرافدين ـ منذ الالف الثالثة ق.م. والى الغرب منها Simash

وكان ظهور اول قوة سامية ، تمكنت من مناواة هذه القوى ـ الآرية ـ الاسيوية عامة وطردهم في القرن الخامس والعشرين ق.م، هم الاكاديون الذين امتصوا حضارة سومر . وهذا ما كشفت عنه اثار بلدة حلوان ـ لاحظ تسمية حلوان في كل من اكاد العراقية ، والمصرية ـ وترجع الى ٢٢٦٧، بالاضافة الى مكتشفات عاصمتهم «اور» - UR - او «اورورو» ولعلهم كانوا اول قوة سامية عرفت التقويم الشمسي، واتخذوا الاله شماس او شمس، ذا الاصول الايرانية الارية، كبيرا للالهة .

الى ان تملك الكاشيون ـ الهندو اوروبيين ـ بابل منذ ١٧٤٢ وحكموها وافرخوا فيها ـ مجمل ـ تراثهم حتى القرن ١٢ ق.م.

كما تملك العيلاميون مرة اخرى على كركوك، وكانوا ايضا يعبدون اله الشمس او شماس ، الذي توارثه البابليون فيما بعد .

فالعيلاميون كانوا يكتبون بالعيلامية والاكادية،كما وجد نص في قناة السويس مكتوب بثلاثة لغات منها الهيروغليفية .

كما استخدموا الالف باء الارامية ، واستخدموا في كتاباتهم البردى والواح الطين .

والملفت ان هذا ما كشفت عنه اثارهم في جزيرة الفنتين (١) ذات الصبغة اليهودية باسوان واكدته آثار مقبرة داريوس الاول في نقش رستم المعروف .

ويذكر انهم عرفوا الصلب كعقاب وتكشف اساطيرهم، التي فيها عبدت القبائل الايرانية خلال الامبراطورية الاخمية ـ الاخمينية ـ (٢)، مظاهر الطبيعة (الطوطمية) zoroaster ، او ما يعرف بالثنائية، اهورامزدا Ahuramazda كاله للخير في خرسان وايران.

وذكر هيردوت انهم كانوا يضحون للسماء والقمر والارض والماء والرياح ، وكان الههم الرئيسي ، ميثرا .

اما اناهيتا Anahita فظهرت كالهة انثى للماء، ثم بعد ذلك كالهة للاخصاب. كما ذكر هردوت، انه لم يمكن لديهم معابد او مذابح ولا نار مقدسة . اما عن الكهنة ـ الماجيين ـ (٣) من قبيلة الماجي فظهروا في الواح العيلاميين للمرة الاولى .

وعرفوا الشراب المقدس (الهوما) في الافيستا، والنار المقدسة ظهرت في منطقة شهرزاد Shahirizor كما عرفوا التضحيات البشرية اما الخيول فظهرت مع المجوس .

وكان ميردوخ كبير الالهة. وعقب فتح مصر غير داريوس الاول وقمبيز الكثير من الشعائر المصرية، ونقلوها الى البانثيون الفارسي .

كذلك فان الفرع الآري الايراني ، لملوك سيالك، «شيلهاك» سيطروا على آشور، الى ان استعاد البابليون مرة اخرى قوتهم في عهد الملك نبوخذنصر، الذي طردهم وقتل حفيد سيلهاك في ١١٢٤ ق.م، وبهذا انهى البابليون اسطورة سيطرة عيلام التي امتدت ثلاثة قرون .

ومنذ القرن التاسع تعرف العلماء على اثار الفرس من التسجيلات الاشورية في أورور ومن عيلام حتى كيرمان شاه ، وعن ميديا وشلمانصر الثالث من آثار آشور في ٨٣٥ ق.م.

---

(١) جزيرة صغيرة تعترض مجرى النيل باسوان، اقيم عيها كلا النزلين السياحيين الكتراكت القديم والجديد ، وبها ايضا اكتشفت عدة اسفار من « الابوكريفا » ـ اي الاسفار غير المباحة .

(٢) لاحظ العلاقة اللغوية بينها وبين اسم الامام الخميني .

(٣) قبيلة اختصت بالكهانة ، فكانوا سدنة للنار المقدسة ، ومن اسمهم عممت تسمية الفرس المجوس .

فبالقرب من مانا تقع ميديا محتوية (١) همدان ــ ومنذ ذلك الوقت اصبح الايرانيون مطمحا للامبراطورية الاشورية في سوريا العليا .

فحكمها آشور في القرن التاسع ق.م. واعتبر الاشوريون ايران وعيلام مناطق استراتيجية، لتأمين حدودهم وتجارتهم. لكن تيجلات الثالث وسرجون الثاني ٧٠٥ ق.م ، اعادا مرة اخرى سلطة الهندو ايرانيين.

وفي ٧١٣ عادت سلطة سرجون والاشوريين ممثلة في فرض الجزية على ٤٥ رئيس ميدي.

ومرة اخرى في ٧٢١ عادت سلطة الكلدانيين وتسلموا العرش البابلي في العراق وهزموا الاشوريين في ٧٢٥ في موقعة دمر، الى ان هزمهم مرة اخرى سنحاريب ملك آشور في ٧٠٣، لكنه خلال حروبه معهم في ايران، دخل ملكهم بابل واسر ابن سنحاريب في ٦٩٩ .

وحدث حلف قبائلي بين الكلدانيين والاراميين شمال الفرات ، الى ان عاد فهزمهم آشور (٢) بانيبال في ٦٦٣ واستمرت الحروب بينهما متواصلة الى ان انهى سوسة في ٦٣٩ آشور بانيبال ، وبسقوط آشور ظهرت قوتهم من جديد على يد قورش (Cyaxares) الى ان لاحت قوة ــ البارسيين الذين هاجروا الى ايران في ٦٤٠، ففي ٦١٥ هاجم قورش نيمرود، وهاران، وهزمهم في ٦١٠ فانهى الاشوريين في اسيا الصغرى ودخل احفاده مصر واسبرطة في ٥٤٧ ونصب داريوس الاول خليفة له على حكم مصر .

★★★

فيبدو ان تملك الآربين لايران وقع منذ فترات موغلة في القدم ، ويعتقد انهم جاءوا من القوقاز وشمالي سيبريا وروسيا واوروبا والهند. فيؤرخ ــ البعض ــ لهذه الهجرات الآرية بما قبل الالف الرابع قبل الميلاد، حين تملكت القبائل القادمة من اواسط اسيا هضبة ايران، وتملك الخوارزميون ما حول نهر بلخ، ومن اسماء هذه القبائل الآرية ، قبائل الميدين والفارسيين والبارزيين، والايرانيين، والاخيرين تجاوزوا ايران الى القوقاز، وان كانوا اول من نزلوا بلاد ايران ، واعطوها اسمها، وكانوا اول من ارسى الحضارة الفارسية القديمة، التي اثرت بدورها في حضارات العالم القديم، خاصة ما يجاورها من حضارات الشرق الادنى او العالم العربي .

---

(١) الجنوب ــ الجزيرة ــ العربي .

(٢) اي اشور المنتمي الى ــ الاله ــ بعل او هبل . آشود بنى ــ او بنو ــ بعل .

فلقد كان الفرس منذ اتصالهم المبكر بالساميين الشماليين ، حلقة اتصال لا تنضب في تسريب التراث اللاهوتي والعقائدي الآري ـ خاصة الهندي ـ الى الاقوام السامية ، ومن بينها الثنائية التي ميزت التراث الايراني المجوسي، ومن بينها اعتقاداتهم الدهرية القدرية التي واصلت ازدهارها بشكل واسع متواصل عند اغلب الفرق والاقوام والنحل العربية السامية ، خاصة القبائل العربية في اليمن والجنوب العربي، والتي وصلت الى اقصى مداها عند العرب الجاهليين . وواصلت توارثها، الى ان اصبحت الملمح الجوهري الاول للتراث العربي .

ولقد تعامل الساميون الاوائل، مع الفرس على اعتبار انهم اهل كتاب وان لهم دين ـ سماوي ـ، مثلهم في هذا مثل اليهود العبريين ، نسبة الى ديانتهم الزرادشتية، التي تنسب الى مؤسسها ـ الحكيم الخرافي ـ زرادشت، وتقول بقدم الاصلين، الخير والشر، او النور والظلام، فنسبوا للخير « اهورامزدا » أو هرمس، كل ما هو خير ، واعتبروه اله السماء واهب النور والظلام، على عكس غريمة «اهرمن» الذي وحدوه بالظلام، فهو الشيطان اصل الشرور والآثام .

وجمع زرادشت شعائره واساطيره في كتاب يعرف بالافستا، وهي كلمة آرية مرادفة للمعارف، وهي فعلا مجموعة معارف طقوسية وبقايا اساطير آرية، جمعها تلاميذ زرادشت منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد، محتوية على بقايا معبوداتهم البدائية الطوطمية لمظاهر الطبيعة ، مثل النور والمطر . فقسموا مظاهر الطبيعة الى اشياء تحتوي على قوى خيرة، مثل ضوء النهار وبعض فصول السنة المعتدلة مثل الربيع والخصب والحنين الى الخلود عن طريق التطهر. واخرى تتصل بالظلام والجفاف والقحط والقبح والنكبات ، نسبوها الى الشر الذي هو الشيطان اهرمن.

ويقال ان الافستا، كانت تحتوي على واحد وعشرين جزءا ، ضاع مجملها ولم يتبق الا ما حفظ في الادعية والشعائر الدينية والاناشيد الطقوسية .

فالعلاقة بين الفرس والساميين ترجع الى فترات بعيدة، فينسب التاريخ ـ الاسطوري ـ للملك بيوراسف، الذي تعارف عليه العرب ولقبوه بالضحاك بن علوان الحميري(١)، الذي سار اليهم من اليمن وهزم ملكهم «جمشيد ونشره بالمنشار نصفين» .

---

(١) نسبة الى حمير بن يعرب بن قحطان ـ او يقطان في العهد القديم ، وابنه كلاب بن وبره ، رأس القبائل الكالبية ، او بنو كلاب في الشام وفلسطين، اصحاب سيرة « الزير سالم » .

ويقال ان الضحاك الحميري هذا تملك على ايران في ٢٨٠٠ق.م.وكان عامله على بابل، نمرود بن كوش ، الذي في زمنه حدثت هجرة قبائل ابراهيم الخليل من اور الكلدانيين الى حران والشام وارض فلسطين بسكانها الفلسطينيين وطلائعهم البحرية، حيث كانوا من اقدم شعوب العالم القديم اقتحاما للبحار والمحيطات .

وما يهمنا تأكيده، هو ان اتصالات كبيرة كانت بين الفرس وجيرانهم الساميين من بابليين واشوريين في العراق وما بين النهرين، وعرب - يمنيين - جنوبيين في الجزيرة العربية، وما عرف بدويلات الخليج العربي، واماراته الحالية (١) .

وتبدت **تأثيرات هذه الاتصالات المبكرة** في كلا التراثين الآري ، الهند اوروبي،والسامي العربي، للدرجة التي نتج عنها الكثير من الاخطاء والمغالطات التي وقع فيها الرواد الاوائل لهذه الدراسات خلال رحلات البحث المضنية، عن منابع التراث الاوروبي، وقنوات هجراته لغويا وبالضرورة تراثيا بدءاً من الاخوين جريم ، وبنفى، والمدرسة - الفولكلورية - الشرقية عامة .

وعلى سبيل المثال ، فان دولة الميديين الآريين - ٥٠٨ - ٥٥٠ق.م.- الذين يرجح ان هجراتهم تمت من شواطيء بحر قزوين الى غربي اسيا ، الى ان استقروا في ايران ، واقاموا دولتهم في القرن السابع قبل الميلاد، لم يتعرف عليها - تاريخيا - الا من النقوش الاشورية والاخبار العبرية، وينسب لهم اقامة دولة همدان، في الجنوب العربي.

وكانت ميديا تتبع آشور ، وفي الاخبار الاسرائيلية ان ملك الاشوريين حمل بني اسرائيل الى فتوحاتهم الجديدة الواسعة الممتدة الى ما وراء نهر زاجريوس في ايران، وهو ما يعرفه توينبي باعادة زرع او استنبات الاقوام المغلوبة، بهدف شدخها او تمزيقها حضاريا .

كما ان من اخبار هردوت ان الاشوريين استعبدوا الميديين الايرانيين خمسة قرون كاملة، الى ان تمكن «ديوسيس» اول ملوكهم من تأسيس الدولة الميدية وطرد الاشوريين ، بل ان حفيده «كيخسرو» تمكن من تحطيم «نينوى» عاصمة الاشوريين في العراق وسوريا العليا .

وما يهمنا هو تلك الاتصالات المبكرة بين العرب الساميين والفرس

---

(١) يلاحظ مدى المؤثرات والتداخلات السياسية، منذ ذلك التاريخ الخرافي - المرصود - الى ايامنا الحالية، وبخاصة بعد انتصار الثورة الاسلامية الايرانية .

الاوائل الآريين ، من مزاوجات ومؤثرات حضارية وتراثية من جانب لآخر ، حتى ليقال بان الاشوريين، خلفوا بصمات اصابعهم على اللاهوت الزردشتي، الذي كان بمثابة بداية لتجمع حضاري «اميني» نقل الايرانيين (١) البرابرة من طور الى طور .

فيبدو ان الميثولوجيا البابلية والفينيقية السامية، لعبت اهم ادوارها في ايران، اذ انهم خلفوا لغتهم الارامية، فكتب الفرس وثائقهم وتراثهم بالخط المسماري البابلي، كما انهم ـ الساميين ـ خلفوا اساطيرهم ومظاهر حضارتهم، التي كانوا قد توارثوها من اسلافهم السومريين ، فخلط الفرس في لغتهم بين الفارسية القديمة والارامية السامية، ومنهما اشتقت اللغة البهلوية .

وعلى هذا جاءت الامبراطورية الاخمينية التي حكمت معظم شعوب الشرق الاوسط، مناصفة بين العبقرية الحضارية المتمثلة في الاساطير والتراث العقائدي اللاهوتي السوري او الاشوري، من الوجهة الحضارية، وبين الحكام ونظم الحكم الفارسية، من الوجهة السياسية .

كما ان مما يزيد الامر وضوحا فيما يتصل بقدم الاتصالات الحضارية بين الفرس والساميين ـ بل والمصريين ـ ان قمبيز ابن كورش (٢) ، مؤسس الدولة الاخمينية، والذي في عهده اعيد تسمية ايران باسم فارس نسبة الى قبيلة فارس،فعندما غزا قمبيز ابن كورش مصر ، ودخلها وذلك عن طريق الخدعة التاريخية المعروفة، التي تدل دلالة واضحة على سابق معرفة الفرس بدقائق اللاهوت والاساطير المصريين، او مجمع ـ وكعبة ـ الالهة المصرية .

ذلك انه وضع امام جيشه صفا كبيرا من الحيوانات والنباتات ـ الطوطمية او الشعائرية لالهة والهات المصريين ، فكان او أخذ المصريون وامتنعوا عن القتال ، فدخل قمبيز مصر وقتل العجل المقدس ابيس، وهدم الكثير من الهياكل والمعابد .

كما ان قمبيز فتح السودان ثم الحبشة ، الا ان ـ اناثها ـ هزمته وردته عن فتحها . فيلاحظ ان المؤثرات ـ الآرية ـ الفارسية ، وصلت حتى افريقيا الوسطى منذ منتصف الالف الاول ق.م.

★ ★ ★

---

(١) مختصر دراسة التاريخ ج٢ ص ١٨٥ .

(٢) بداية القدماء ص ٦٧ .

ومن المفيد (١) التوقف هنيهة عند جذور التراث الاسطوري الآري، الهندي، او الاصل المبكر الام للتراث الفارسي الايراني .

ففي الفيدا اقدم المصادر المدونة للغة السنسكريتية، عديد من الاساطير التي تنتمي للكيانات والامم الارية، موجودة في ادنى اشكالها، ومن هنا تأتي القيمة الخاصة للاساطير الهندية بالنظر الى الدراسات الاسطورية المقارنة .

لكن من الخطأ افتراض ان الاساطير اليونانية واللاتينية والسلافية والاجناس الشمالية ـ بعامة ـ لقدامى الالمان والكلت، مأخوذة او مستمدة من الاساطير الهندية ، لان الاساطير مثلها مثل لغات كل هذه الاجناس المختلفة « على اعتبار التوحد بين كل من اللغة واساطيرها »، فالمحتويات الهندية مأخوذة من مصدر أم ، اما اساطير اليونان واللاتين والسلاف وغيرهم ، فهي مجرد تحويرات للغات الآريين البدائية، التي كان يتكلمها الآريون القدامى،وذلك قبل ان تتفرع وتشتق من اللغة الام الاصلية واينما وجدت اصبحت مكونة بدورها امما جديدة، في الهند واليونان وشمال ووسط اوروبا .. الخ .

فاللغة السنسكريتية ليست هي الام تماما، بقدر ما هي في موقع الاخت الكبرى لليونانية وقريباتها من ـ بقية ـ اللغات الآرية والميثولوجيا، «الفيدية» هي نمط او اسلوب مشابه فقط فهي في موقع الاخت الكبرى للاساطير الارية الاخرى . وبسبب هذا الاكتشاف، للاصل الحقيقي لهذه اللغات ، تمكن الدارسون من التعامل مع الاسطورة تعامل اكثر علمية .

ففي الهند توجد اسرتين من الالهة، هي الالهة الفيدية والبراهمية. اما الالهة الفيدية فتنتمي للعصور المغرقة في القدم، وتبدو كما لو كانت قد عبدت من شعوب زراعية غير مستنيرة. لكن اللاهوت البرهمي ، هو في معظمه منبثق بشكل رفيع من سابقه . وبالتدريج اتخذ مكانته كابسط عبادة من الفيدية بقرون قليلة، قبل مولد المسيح .

فلم يمض اكثر من خمسة او ستة قرون، حتى اتخذ ـ هذا البناء الاسطوري ـ تحويرا او انشقاقا جديدا ،تحت اسم البوذية. واصبح الدين الرئيسي للهند. لكن في مدى عشرة قرون تمكنت البراهمية من استرداد مكانتها، فانحسرت البوذية في الهند ، لكنها اتخذت من جديد مسالك

(1) Muray's Manual of Mythology Revised by W.H. Klapp p. 376 - 76 .

وقنوات اخرى، فاصبحت الديانة الرئيسية في بورما وسيام واليابان والتبت ونيبال والصين ومنغوليا وتابعيها في الوقت الحاضر، الى ان فاق عددهم كل الاديان الاخرى مجتمعة .

★ ★ ★

(ولا بأس هنا من المانمة بالبنية الاسطورية البوذية .

فاله السماء المضيئة وكبير الالهة ديوس او زيوس Dyaus — zeus والذي اصبح zeus Rain او زيوس المطر ، هو الروح العلوي المسيطر، ومن اسمائه «دياوس» الاب، ويتهجى باللاتينية جوبيتر.

كما ان اسم اله السماء، في الازمنة المتعاقبة كان Varuna ثم اصبح اسم اله الماء، والاسم مشتق من المغطى او المستور - التابو - وبتعدد اسمائه امكن ايجاد مفتاح يقود الى الاله الاغريقي Uranus ومعناها المخبأ او المستور ، وفي اسطورة فاريانا يتكشف عن انه الاله ذا الالف عين،اي الاله الذييرقب ويرعىكل شيء،والهنود الآريين يرون فيه الاله الذي لا تخفى عنه خافية .

كما توجد رابطة شديدة جدا بين اندرا وبين زيوس . فهو في كل اساطيره الاله الذي يجلب المطر، وينزل المياه المحبوسة من السماء ، كما انه يذهب في تعقب القطيع، ومثل هيرمس وهرقل فهو اله خارق القوة، وهو الاله الذي جلب الغلةوالنبيذ، وتظهره الاشارات المبكرة في « الريج فيدا » كاله للشمس « انه هو اندرا الذي يتحكم في دوران الارض ورسو الجبال ويرفع السماوات» .

« وهو الذي ينطق الحكمة بكل اللغات » .

كما انه الاله الذي يتطابق مع Surya واليوناني Helios فهو ليس بالتحديد اله النور، لكنه الاله الذي يتجسد في الشمس ، فهو ينتمي للبحار اكثر من انتمائه للماء . اما «سيريا» فاعتبروه الاله الزوج - البعل - Baal وكذلك عد ابنا لها .

وهناك Savitar الذي يعد تشخيصا اخر للشمس، وكاله للشمس فهو ذو العيون الذهبية وكذلك ذو اللسان الذهبي. وفي قطعة شعرية ملحمية قديمة يعد سافيتار الها قطع ذات مرة يده اليمنى مضحيا بها . فكان ان وهبه الكهنة ذراعا ذهبية بدلها .

اما سوما Soma الذي ترتبط به اغرب الاساطير الارية وكان نبات السوما هو النبات المقدس له،الذي يخلط بالعسل ودم الضحايا . وفيالاساطير الشمالية هو الذي يهب طيلة العمر للالهة،وتصفه « الريج

فيدا » كاله يتمتع بكل القوى، فهو الذي وهب اندرا النشاط ، واعانه على هزيمة عدوه «فريترا» او حية الظلام، وهو اله له نفس مكانـــة فيشنـــو واندرا وفريونا في هذا التراث ، وهكذا تصفه الفيدا :

«اينما وجد النور الازلي، في عالم تتربع فيه الشمس.
اينما كانت الحياة حرة، في سماء السموات الثالثة .
يوجد الاله سومـــا .

وهناك ايضا اله النار Agni الـــذي وحد مع ضوء الشمـــس والقمر، فهو الضوء الذي يعم المخلوقات والحقول. كما ينسب له انـــه هو الذي غطى وجه الحقول بالحبوب، وانضج المحاصيل عن طريق رسلـه المقدسين . كما كان عندهم الهة للريح والهواء ــ مثل شو في الاساطيـر المصرية، والهة للحكمة هي Ushas وهي ما اصبحت الربة الاغريقيـة اثينا، فهي الهة الحكمة عند الهنود .

وقد ترجم اشعارها واساطيرها «ماكس موللر» في دراسته اللغوية الارية «اصل النار وشراب الالهة» اما في الدين الهندي ــ التقليديــ فـان الالهة المقدسة هم : براهما وفيشنو، وسيفا. وهم يكونون الثالوث الهندي البرهمي الرئيسي الى اليوم .

★ ★ ★

فنظرا للدور التاريخي والاسطوري الذي لعبـــه التجاور ــ الآري ــ بالنسبة لتراثنا السامي، منذ فجر التاريخ للشرق الادنى القديم، اولـــى الكثير من الكتاب الكلاسيكيين العرب،اهتماما كبير الحجم ملحوظا ،شمل رقعة عريضة من التراث العربي بعامة، للتراث الاري بعامة والفـــارسي بخاصة، اكتمل فيما بعد في العصور الاسلامية .

وكان لعبدالله ابن المقفع ــ بالطبع ــ الدور الطليعي في نقل عيـون التراث الآري ــ كليلة ودمنة ــ كما ترجم ــ احدى ــ الشهنامات تحـت اسم «سير ملوك الفرس»، ونقطة بدئها ــ كما هو الحال عند الساميين ، مـــن عرب وعبريين ــ قصة الخلق وبدء الخليقة، منذ عهد جيومـــرث او آدم ــ الآري ــ الفارسي « حتى عهد يزدجربن شهريار » .

كما يتبدى هذا التراث الاسطوري الايراني في عيون الاخبار ، والاخبار الطوال للدينوري، ــ وتاريخ البلعمي، ومروج الذهب ، التنبيه والاشراف ، وسنى ــ او سير ــ ملوك الارض ، وغرر اخبار ملوك الفرس ، وكامـــل التواريخ لابن الاثير. بالاضافة الى كتابات ومؤلفات، الطبـري والمقدسي

وابن قتيبة والمسعودي وحمزة الاصفهاني والبيروني، ثم الثعالبي في تاريخه الاسطوري ـ الفولكلوري ـ سير ملوك الفرس، الذي سنتوقف عنده هنيهة .

وكالعادة يذكر الثعالبي ، ان جيومرت اول ملك من ولد ادم، كما ان شيت اول نبي من ولده، فذاك للرعاية وهذا للهداية، فلا خلاف ـ عندهم ـ في ان جيومرت هو ابو الفرس من العجم، ويزعمون انه كان يسكن الجبال، وكان يقال له كرشاه اي ملك الجبال «كر بالفارسية هي جبل».

وكان ملك اوشهنج بن سيامك بن كيومرث، فهو اول من عمر الارض.

وبعد ان هلك هوشنك، بقيت الارض بعده ٣٠٠ سنة، الى ان ملكها طمهورث اول من عمر ، وجعل الكلاب لحراسة الغنم والمواشي ، ورسم اتخاذ الجوارح للصيد ، وركب ابليس وطار به :

وراكبا فيله مستشرفا نفيسا
كأنه طمهورث (١) لما امتطى ابليسا

وبعده تملك جمشيد ويقال له (جم) ترخيما، وهو اول من غزل القز والكتان والقطن ورتب طبقات الناس، وجعل الخوذة للجند ورتب الطبقات، طبقة العلماء والابدان والاديان، ثم امر كلا منهم بالعمل الذي الزمهم اياه ، فلزم كل حده فلم يتعده، وخطه فلم يتخطه، ثم عمل عجلة وفرشها بالديباج، وطار بها في السماء، وسمى ذلك يوم اورمزد، اول يوم الربيع ، فاتخذوه عيدهم الاعظم وسموه النيروز .

وكانت مراتب الناس في ايام جم على الاسنان، اعلاهم سنا،اعلاهم مجلسا. ثم كانت في ايام الضحاك على الغني والثروة، ثم كانت في ايام افريدون على الغناء والسابقة، ثم كانت في ايام منوجهر على الاصول والقدم، ثم كانت في ايام كيقاوس على العقل والحكمة، ثم كانت في ايام كيخسرو على البأس والنجدة ، ثم كانت في ايام بهراسف على الدين والعفة، ثم كانت في ايام انوشروان على اجتماع هذه الخصال، الا الغنى والثروة، فانه كان لا يعتد بهما .

وكانت رافة جم على رعيته كرافة الوالد بولده، وكان صنع الضحاك بالرعية صنيع الضرة بالضرة، وكان افريدون لرعيته كالاخ لاخيه، وكان افراسياب للرعية كالعدو للعدو، وكان بشتاسف للرعية كالمؤدب للصبيان.

---

(١) وطمهورث هذا هو ما يلفظ شمهورش، في السحر الشعبي، والمثل الشعبي «عامللي شمهورش» .

ولما تجبر «جم» وادعى الالوهية، قصده الضحاك الحميري المسمى بالفارسية بيوراسف من ارض اليمن في جيوش كثيفة وشوكة شديدة، فانقض عليه انقضاض العقاب على الارنب فهرب منه جم متنكرا، واستولى الضحاك على ملكه، وطارده حتى ظفر به فصاده كما يصيد الهر الفأر ونشره بالمنشار، ويقال انه القاه الى السباع .

فالعجم تسميه بيوراسف والعرب تسميه الضحاك وسماه ابو نواس بالخابل .

وكان ابوه ملك اليمن ثم زين له الشيطان قتل ابيه فقتله، وما زال الشيطان يستدرجه ليأكل من كل لحوم الطير حتى لحوم الحملان، ومنها الى لحوم الضأن والثيران الى ان نفخ في منكبيه من خبثه وسحره فخرجت حيتان سوداوان كلما قطعتا عادتا كما كانتا، وكلما قام من النوم اوجعته الحيتان ، واكلا مخ البشر وسكنا وهكذا، فكان ساحرا ماهرا، وعن ابن الكلبي ان الضحاك اول من سن القطع والصلب، واول من سن العشور وضرب الدراهم والدنانير، وغنى وغني له، لكن ابليس زين له الكفر والفجور.

وذكر الطبري انه وقع له شيء من كلام ادم فاتخذه سحرا يعمل به.

وكان اذا اعجبته امراة او غلام او دابة، نفخ في قصبة من ذهب فكان يجيبه، وتنسب له حكاية الطباخان ارمايل وكرمايل، اللذان امرهما بقتل الشبان لكنهما رقا للشبان المذبوحين، فكانا يذبحان عنزا بدلا منهم يوميا، ويتفرقون في الجبال حتى اصبحوا امما «فهم اصول جميع الاكراد في نواحي البلاد» (١) .

الى ان خلف الضحاك على عرش فارس، ملك هو افريدون، الذي تنسب له اساطيرهم انه ملأ الدنيا عدلا بعد جوره، الى ان دخل عليه افريدون وقتله بالعمود الذي في راسه صورة ثور، وقطع من جلده وترا قيده به، وحمله الى جبل دنباوند وحبسه في بئر هناك وقال له الضحاك انما تقتلني بجدك جم .

وذكر ابو تمام قال :

ما نال ما قد نال فرعون ولا   هامان في الدنيا ولا قارون
بل كان كالضحاك في سطوته   بالعالمين وانت افريدون

ويدعي المجوس انه محبوس حي بجبل دنباوند كابليس الى يوم القيامة. فأتخذ الناس يوم حبسه عيدا سموه (مهرمن مهرماه) اي

---

(١) وهي اساطير تطبع بالقطع المخيلة الفولكلورية، للاشقاء العرب الاكراد .

المهرجان. ومن اقوال افريدون «من لم يعرف مكاسبه فهو متهم بالسرقة»، والخائن لا يعتمد احدا. العبيد خمسة، الخباز والطباخ والساقي والفراش والوصيف .

اما الاعداء الخمسة فهم : السفلة والحاسد والعبد والمراة والمستعمل على العامل مكانه.

ووزع ملكه على اولاده الثلاثة «سلم وتوز وايرج» ، فايرج ملك ايران الى جانب ابيه افريدون، لكنهما تآمرا عليه، فقطعا راسه وارسلاها الى افريدون، وكتبا اليه «هذا هو الرأس الذي آثرته علينا». وجزت اربعة الاف جارية شعورهن حزنا عليه. اما الملك فضعف بصره، وكان يضع راس ايرج على الرماد في اناء من ذهب وينوح عليه حتى ينام.

ثم تملك منوجهر بن ايرج العرش وعندما تحاربا، وقطع راس توز ارسلها لابيه افريدون فقال (لا مرحبا بدهر احوجني الى ان اقتل بعضي ببعضي).

وتملك منوشهر وخطب في الناس « لقد مضت قبلنا اصول نحن فروعها، وما بقاء فرع بعد ذهاب اصله» وهو اول من خندق الخنادق واول من اتخذ لكل قرية عمدة، وكان قائده سام بن نريمان،ولقبه عمدة الدنيا، وكان يتمنى مولودا ولما طعن في السن فرزق بولد ابيض شعر الراس والحاجب والاشفار فانكره، واهمله، وحملته العنقاء وربته في اعلا الجبال الشاهقة، الى ان جاءه ابوه، واسترده وسماه «زال» اي الشيخ. وطلب الملك ان يراه وعشقته ابنة مهراب ملك كابل، حين سمع بجمالها.

وانجب زال رستم بطل الفرس، الذي احضروا له الخيول فتطأطىء تحت ثقل يده عليها الى ان جاءوا له بفرسته الموعودة به، وحارب الترك وبعد ان مات كيقباذ، تملك ابنه كيكاوس الذي يسميه العرب قابوس «وكان عجيب الشأن شديد التلون، فطورا ملك رشيد وطورا جبار عنيد، تارة سديد واخرى شيطان مريد» فنهض من بلخ في عساكره الى اليمن لمغالبة ملكها وكان يقال له بالفارسية شاه هماوران اي ملك حمير، وبالعربية ذو الاذعار بن ذي منار بن الرائش» وفي الحرب اصطلحا وأدى له ذو الاذعار الخراج، وزوجه سعدى التي يقال لها بالفارسية سوذانة، وبعد ان زوجه اياها، اوقع ذو الاذعار به وحبس كيكاوس في بئر، واطبق عليه صخرة، وظلت سعدى تزوره وترعاه الى ان جاء رستم لينقذه بعد سبع سنين .

وبعد ان اصطلحا سلمه لرستم، وقال فيه ابو نواس :

وقاط قابوس في سلاسلنا سنين سبعا وفت لحاسبها

واصطحب كيكاوس سوذانة في الف من جواريها، ونزل بابل وبنى لهـا الصرح الرفيع وادعى الالوهية وصعد بالاعقاب الى السمـاء وانجب سياوش، وكان معلمه رستم وحكايته مع امرأة ابيـه سوذانة او سعـدى ابنـة ملـك حمير .

وتذكرنا جزئياتها المتطابقة الى اقصى حد مع النصوص والشفاهيات التي تدور حول بالاد وحكايات يوسف وزليخة .

بل ان الفولكلور الفارسي، يحفل بالكثير من التنويعات والنصوص ـ الام ـ ليوسف وزليخة بخاصة .

اخيرا فان الكثير من موتيفات هذا التاريخ الاسطوري الفارسي، ما تزال تعيش على الشفاه سواء في الحكايات الخرافية،التي هي موضوعنا هنا، او في الشعر الملحمي،واشلاء السير التي سنتعرض لها، خاصة الملك معروف، وابنه الشاطر حجازي ووزيره البين في حقل الحكايات الشفاهية والمدونة، سواء في الفولكلور العراقي، او اليمني ودول الامارات العربية بشكل ملحوظ .

كذلك يمكن العثور على جزئيات وانماط هذا التاريخ الاسطـــوري الفارسي، في الكثير من السير والملاحم المندثرة والمهشمة، التي توصلـت الى تدوين بعض اجزائها، مثل ملحمة ـ او سيرة ـ «الملك معروف» .

خاصة بالنسبة للملمح الجوهري لهذا التراث الآري المتسرب والمؤثر في مجاوره ـ السامي ـ العربي، وهذا الملمح هو **الثنائية**، التي سنوليهـا اهتماما خاصا نظرا لحجمها وملمحها داخل تراثنا العربي،من شفاهي ومدون.

★ ★ ★

الفصل الخامس

الالهة البركة وتوابعها

ودون عزلة عن المدى الذي قطعته دراسة الحكاية الشعبية، من خرافية وطوطمية ـ حيوانية نباتية ـ لمحلية، سواء من حيث التصنيف والفهرست، بحسب موضوعاتها واغراضها .

فمن المفيد ان يكون لنا تصنيفنا المعبر عن خصائص وسمات تراثنا الفولكلوري العربي، في مجال الحكاية .

وعلى هذا فنظرا للدور الكبير الواضح لجزئيات الافكار ـ المجردة ـ مثل حكايات ومأثورات البركة، المنتشرة على طول ـ شفاهيات ـ الكيانات العربية، ولها استخداماتها المختلفة، سواء في الحكايات او تبادل التحايا والدعاء «بارك الله فيك» وحصلت البركة ـ الخ .

ثم ما يتبع هذه الافكار ـ اليوتوبية ـ للالهة المجردة للبركة،وتوابعها من رزق، وستر، وسعد ، ووعد ، وعقل . التي تتمثل مشخصة داخل رقعة الحكايات العربية ، كمثل الهة (١) ، تسعى في الاسواق، وتزور

(١) وهو ملمح اسطوري آسيوي ، ابرز انماطه مسرحية بريخت المستوحاة من الاساطير الآسيوية « الانسان الطيب من سيشوان » ، وفيها ثلاثة الهة هبطت لتسعى بحثا عن انسان طيب .

الناس، وتتبارى في التحكم في مصائرهم، مما دفعني الى ان افردت لها تصنيفا خاصا هنا .

فجزئية البركة، **كمقولة طوباوية** ، لها بالقطع دورها السالب المبدد والمعاكس للحتميات العلمية والتقنية في ذات الآن .

فالبركة وما يرادفها من سعد ووعد وبخت وقسمة ونصيب، بما يفضي بها الى **القدرية، التي هي ملمح جوهري لتراثنا العربي** ، ترد بكثرة ملفتة في تراثنا .

وهذا ما دفعني هنا الى اعطائها نصيبها من التأني الدراسي نظرا لجانبها الاقرب الى الخطر، ولنقل الآفة الحضارية التي قد تمتد بدءا من التصور والمخيلة الذاتية الى الجمعية ـ المعوقة ـ لطاقات الانتاج ومؤسساته.

ولعله من الملفت والمفجع معا بالنسبة لتراجيديا العقل الغيبي المتمثل في اللامعرفة، ان اقدم اشكال فكرة البركة هذه، ولدت ـ اسطوريا ـ مع مولد اسرائيل.

ذلك ان يعقوب (١) بعد ان غافل خاله لابان بن ناحور، واخذ راحلا عنه ماشيته وزوجتيه ـ ليئة وراشيل ـ التي كانت قد سرقت آلهة ابيها ومن بينها رأس آدم ـ ابو البشر ـ وجلست عليها في هودجها المقام على الجمل الذي حملها، الى ان غافل يعقوب القافلة مترجلا عند مخاضة (٢) نهر اليبوق، متربصا لروح النهر ـ مكمن البركة ـ ومهبط عرش الله، ومصدر كل شيء حي ـ الى ان ظهر له ملاك الرب على هيئة رجل، اخذ يناضله طيلة الليل في صراع، حتى انه كسر له ضلعه وهو يقول «لن اطلقك ان لم تباركني» فقال له فيئيك او ملاك الرب، : «لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل» اي ولي الله ـ ايل ـ المبارك .

ولعله ايضا اول ذكر لاسرائيل مرادف للبركة التي سعى اليها ـ ذلك التاجر السامي ـ يعقوب او اسرائيل وانتزعها انتزاعا .

اما الواقعة الثانية التي تبرز فكرة البركة، فمكانها بعد ان تحقق وعد الآباء في ارض اسرائيل ـ الولي المبارك ـ ووجدت اول مملكة او دولة، والتي فيها اقدم داوود على احصاء شعبه، فكان ان عوقب نظرا لاقتحامه ـ الرائد المبكر ـ المتمثل في تعداد الشعب، باللعنات الثلاثة، التي قد نصل بها على مستوى الاشتقاق ـ التخميني ـ اللغوي للبركة، اي

---

(١) تكوين ٣٢ ـ ٢٦ : ٣٢ .

(٢) اي بركة ماء .

الشعب الفلسطيني صاحب الارض والحق التاريخي على تلك القبائل الاسرائيلية الهابطة المغيرة، تحدوها اساطير ارض الميعاد المرادفة للبركة، التي قد نصل بها على مستوى الاشتقال ـ التخميني ـ اللغوي للبركة، اي بركة ـ بكسر الباء ـ الماء وموارده، كمرادف ايضا للخير. ومن هنا فما تزال هذه الافكار ـ الخرافية ـ عن ارتباط البركة، ببرك الماء الآسن المنتشرة على طول قرى البلدان العربية، والتي يتبرك بها بالفعل، وهي مصدر تخلف صحي محقق .

وتتبدى شعيرة البركة هذه خلال تبادل التحايا والادعية «الله يبارك فيك» وبخاصة في المعاملات التجارية واتمام الصفقات «الله يباركلك ، ومبروك» ومع كل جديد او بدء او اول ، سواء حصاد المحاصيل، او ارتداء ملابس واحذية جديدة، كما تتبدى بكثرة في الاسماء ـ مبروك وبركات وبركة ـ وبكثرة مفرطة في الحكايات الخرافية العربية عامة والمصرية خاصة، وهي حكايات اقرب الى المأثورات، قصيرة متماسكة محكمة التصميم والبناء .

من ذلك ما توصلت الى جمعه من حكايات، ومنه ان فلاح اجير، ثقل عليه الجوع، فذهب لزراعة ارض مالك، وافقه واعطاه اردبين من القمح ليبذرهم، فاكلهم هو واولاده، وبذر بدلا منهما اردبين من الرمل، وما ان ذهبا هو ومالك الارض ليريا المحصول، حتى وجد الفلاح ان ما بذره رملا، طرحت فيه البركة فانبت قمحا مزهرا .

اما عن اجير آخر، ما ان يحين اوان الكيل للمحصول لاخذ حصته من المالك، حتى يصل كيله للغلة الى ٨ زكيبة بدلا من ١٢، ومرجوع الفرق هنا، الى ان الاجير الزارع مبروك كما تكشف الحكاية .

فترد تنويعات حكايات بسطاء الناس المبروكين بكثرة، وكذا الزوجات والاطفال ـ الموعودين القدريين ـ كما قد تختص بها ـ اي البركة ـ بعض الحيوانات والطيور، من ماعز ودجاجات تبيض ـ ذهبا ـ وجمال وابقار. من ذلك ان رجلا اشترى بقرة من السوق، وفي البيت حين اقدموا على حلبها، اكتشفوا ان لها بزا واحدا، بدلا من اربعة كما هي العادة في حالة الابقار السوية، لكن ولان زوجة الشاري بيدها البركة، حلبت البقرة باثدائها الاربعة .

كذلك فقد نصل بسلطة ـ البركة ـ داخل عينات هذه الحكايات من خرافية وشعبية، الى حد ان الاولياء في مقدورهم احياء الاطفال الذبيحة والمحترقة ، بالبركة لا غير .

وعادة ما تلازم الثنائية مثل هذه الحكايات فحيث تلازم البركة الشخص الصالح، ممثلة في فتح مغارة او كنز او اتيان افعال صغيرة ، كالاكل والشرب، تصل الشخصية الى مبتغاها،بينما تخفق نقيضتها الطالحة او الشريرة .

وفي حكاية مصرية من هذا النوع، تتفتح الكنوز للاخ الذي يندس في ذكر للاولياء منشدا «الله حي، اللي راح احسن من اللي جي» كمقولة سلفية، بينما يخفق الاخ الطالح ـ المستقبلي ـ الذي يقلده مرددا «الله حي، اللي جي احسن من اللي راح» .

فكما اوضحنا فهناك وثاق جوهري بين افكار البركة، وميكنزمات العقل الجبري ـ الاسطوري ـ القدري العربي بخاصة، والسامي بعامة. واستنادا الى مقولة دير لاين غير المقننة كما ينبغي، عن خاصية تراث الحكايات الفولكلورية العربية، من خلال الف ليلة وليلة مشيرا الى ان «الحكايات العربية لا تعرف في النهاية سوى اله واحد هو الله». وهذا الاله ليس له سوى رسول واحد هو محمد، وهذا الرسول لم ينزل عليه سوى كتاب واحد هو القرآن، ولا يعترف هذا الكتاب سوى بفكرة واحدة هي الايمان بالقضاء والقدر، وفي هذا الايمان بالقضاء والقدر ، الذي يمثل الخضوع المطلق لله، قوة صلبة، كما انه يؤدي بصفة خاصة في مجموعة سلسلة الحكايات الخرافية النجيبة الى معرفة عقيدية خالصة بالطبائع الغريبة للاشياء » .

ولقد ساق هذا الباحث الالماني رأيه هذا في مواجهة، او هي مناظرة بين التراثين الآري الهندي الفارسي المنفتح، مع متاخمه ـ ولنقل مزاوجه ـ التراث العربي السامي ـ القبلي ـ المنغلق، المعادي في كل حالاته للحتميات التقنية الحياتية.

ولعلها حالة ـ بالمعنى الوبائي ـ تشكل جذبا قويا وميسرا للقوى الرجعية ـ الفاشية ـ الامبريالية في مداها الاخير .

فكيف يمكن ان تتلاءم وتستقيم، مفاهيم البركة ـ الشعائرية او الطقسية ـ مع الاحتياجات والحتميات العلمية التقنية بجفافها الرياضي المعهود .

ولعله من هذا المسلك، تفشت وافرخت اوبئة الامية ، والانفجارات السكانية، والابنية السلوكية والخلقية ، خاصة على المستوى السياسي. ومن هنا يمكن التوصل الى ما اصبح يطل من شعارات، نقطة بدئها

تجيء كالآتي «من التراث الى الثورة» (١) ، دون ادراك لثقل وجسامة هذه الموروثات، الموغلة في غيبيتها، وفي بسط الرزق ــ وكذا الحظوظ ــ لمن تشاء دون حساب .

والسؤال هنا، اي تراث واية ثورة .

ذلك ان المعضلة ــ الحضارية ــ اكثر وعورة مما يتصور الكثيرون من الثوريين حسني النية والمقصد .

فلقد تسللت مثل هذه الافكار التي لا قوام مادي او عقلي لها، داخلة في مجمل حياتنا، بدءا باللغة وتعاويذها، وبنائية اللسان ــ العربي ــ وكذا بقية المعاملات والممارسات من تجارية لا نهائية .

ولعلنا لا نبعد كثيرا اذا ما ربطنا بين البركة، وبين بنية العقل الفاشي في مجمله ، المعادي في كل حالاته للالتزام بخطة وبرنامج عمل، لذا فهو منتكس في معظم احواله بازاء حتميات المستقبل .

فكما نرى فالعقل العربي محبط على الدوام بالآنية وما تقتضيه وتستلزمه من تكنيك موصل ــ في احسن حالاته ــ الى باب المصيدة ــ اليومية ــ دون دراية كافية بالانفتاح الاستراتيجي، المستقبلي بالضرورة. ففي لجوء العقل العربي الى التجريد المطلق، تأكيد لمكوناته ومنطلقاته الغيبية الاسطورية .

ومن هنا جعل من البركة الها ، يزور ابطال الحكايات الخرافية في منازلهم وحوانيتهم وحقولهم في تناظر مع بقية توابعه، من ــ الهة ــ للرزق واخرى للسعد والبخت، ورابعة للعقل والحكمة، والامر لا يبعد كثيرا بنا اليوم عن تراث العرب ــ البائدة والمندثرة ــ الجاهليين .

★ ★ ★

---

(١) د. الطيب تيزيني ــ دار ابن خلدون ــ بيروت ٧٩ .

الفصل السادس

حكايات الحيوان الطوطمية العربية •

وفي حالة تعرضنا لحكايات الحيوان والطيور، التي يرى البعض انها اكثر قدما من الاساطير، وانها ترجع الى مراحل التوحش والبربرية والطوطمية، فهي حكايات اقرب الى التعليمية او الشرح والتفسير. كما انها حكايات ملخصة، غاية في الدقة من حيث التصميم والتلخيص ولها مغزاها وحكمتها ودقة ملاحظتها،بالنسبة للطبيعة وغموضها وكذلك بالنسبة لحكمة الانسان البدائي وفلسفته، بازاء قدرات الحيوانات والطيور والزواحف والهوام والنباتات، التي حرم منها الانسان، بعجزه على الطيران، والغوص في الماء، وقوى الحيوانات الوحشية والبهيمية وهكذا.

ويحتفي دارسو الفولكلور بحكايات الحيوانات والطيور والنباتات والزواحف احتفاء خاصا، هذا على الرغم من ايجازها الشديد،بل وواقعيتها الشارحة المحددة. وهناك من يرى ان حكايات الحيوان هي بداية الاساطير، وانها اكثر قدما وبدائية منها. اذ انها كانت وعاء لشرح وتقديم الافكار والمعتقدات اي ان اكثر هذه المعتقدات كان يتجسد في شكل حيوانات وطيور، فالاله زيوس كان نسرا والالهة اثينا كانت بومة، وهيرا كانت بقرة، والاله النوردي ثور كان طائر جنة صغيرا، والاله تير كان ذئبا، مثله في هذا مثل الاله الروماني مارس، وضريبه السليني ديباتر» .

كما ان هناك شبه اجماع من جانب دارسي الفولكلور على ان قصص الحيوان الشارحة، هي المصدر الام او الاصل التي منها انحدرت الخرافات.

وقصص الحيوان الشارحة، هي تلك القصص التي فسر بمقتضاها الاقدمون الفرق بين حيوان وآخر، بين طبيعة ولون وحصائص الذئب عن الحمل، ولون الحمامة الابيض المخالف للون الغراب الاسود، وكذلك التفسيرات الغيبية التي فسر بها البدائيون السبب او السر في بريق عيون القطط في الظلام، واستطالة اذنا الارنب والحمار، واختفاء الخفافيش عن العيون نهارا هربا من الدائنين، وغوص الطائر البحري الى اعماق الماء بحثا عن الاشياء الغارقة، من حطام سفن وغيرها .

وفي واحدة من الحكايات السودانية، التي موطنها النيل الابيض ، تكشف لنا الحكاية كيف ان الدنكا لا يضربون الكلاب، اعتقادا منهم في ان الكلب هو اول من جاء بالنار لقبيلة الدنكا. فلقد «عاش الدنكا حقبة طويلة لا يعرفون النار، وكان الرجل منهم اذا صاد سمكة قطعها قطعا ووضعها في ماعون وتركه تحت وهج الشمس» .

وفي حكاية شارحة اخرى من ـ الشلوك ـ عن البقرة والكلب ، موجزها ان البقرة خلقت في السماء، ووقعت على الارض فتكسرت اسنانها، ولما رآها الكلب، اغرق في الضحك حتى انفتق شدقاه وبلغا اذنيه وظل على هذا الحال حتى اليوم .

فما من حيوان او طائر او نبات، لم تصاحبه مجموعة حكايات، تحدد اوصافه واخص معالمه وتحيطه بتفسير عصور ما قبل العلم، كما هو واضح في هذه المجموعة من الحكايات العربية السامية بخاصة .

ذلك ان للعرب الساميين باع ملحوظ في انهم موطن ومصدر هذه الحكايات الحيوانية الطوطمية، قبل الهنود الآريين، والاغريق الهلينيين.

فالعبد الاغريقي الذي يعد اهم واقدم مصدر لهذه الحكايات الحيوانية «ايسوب» الذي يرى البعض ـ ومنهم كراب ـ انه كان رقيقا ساميا يشتغل بالكتابة، وجمع هذه المأثورات في ايونيا، ومن هنا وصلت هذه الحكايات من الشرق السامي، وانها ارتحلت ايضا من الشرق السامي الى الهند مع ما ارتحل اليها من ثقافة العراق وما بين النهرين.

وتحفل قصص الخلق الاولى، والطوفان ـ البابلي والعبري ـ بمثل هذه الحكايات، منها حكاية اشجار «يوثام» التي اولاها فريزر اهتماما خاصا.

كما تحفل الآداب الجاهلية، والاسلامية بالآلاف المؤلفة من هذه الحكايات، عند الجاحظ، والدميري وغيرهما .

ثم لماذا نذهب بعيدا، والمصدر الاكثر قدما من ايسوب ذاته وهو الحكيم لقمان، الذي اوضحت حفائره اصوله البابلية، وبالتالي فهو اسبق من ايسوب باكثر من خمسة عشر قرنا .

وسأورد هنا مجموعة مختصرة من هذه الحكايات النمطية الطوطمية لهذه الشخصية الخرافية السامية للحكيم لقمان، جمعها المستشرق ج . ديرينبورج ونشرت بالفرنسية والعربية عام ١٨٥٠ :

● اسد وانسان اختلفا حول القوة والبأس ورأيا على جدار رسما لانسان يقتل اسدا، فقال الاسد: لو ان السباع مصورين، لما قتل الاسد بني آدم، بل لقدر للاسد قتل بني ادم .

● اسد وثوران اجتمعا عليه ينطحانه بقرونهما لكي لا يدخلاه بينهما فانفرد باحدهما وخدعه ووعده بان لا يعارضهما ان تخلى عن صاحبه، فلما افترقا افترسهما جميعا .

ومعناه اذا افترقت مدينتين تمكن العدو منهما واهلكهما معا .

● ايل يعني غزال، عطش فأتى عين ماء ليشرب منها، نظر خياله في الماء وحزن من دقة قوائمه، لكنه ابتهج من قرونه وكبرهما ، وحين خرج عليه الصيادون، في السهل فلم يدركوه لكنه حين دخل الجبال وعبر بين الشجر لحقوه وقتلوه . فقال عند موته «الويل لي انا المسكين الذي ازدريت به هو خلصني والذي رجوته اهلكني» .

● مرض غزال، وجاء اصحابه من الوحوش يزورونه .. يأكلون العشب والحشيش ولما افاق من مرضه والتمس شيئا ليأكله)لم يجد، فهلك جوعا .

(ومعناه من كثر اهله واخوانه كثرت احزانه) .

● اسد اشتد عليه الحر، فدخل في بعض المغائر يتظلل، اتاه جرذ ومشى فوق ظهره. فنظر الاسد وضحك منه، قال الاسد ليس من الجرذ خوفي وانما كبر علي احتقاره لي .

(ومعناه الهوان على العاقل اشد من الموت)

● اسد وثور، الاسد احتال عليه وعزمه على وليمة ذهب الثور فوجد حطبا كثيرا، ففر هاربا. وعندما سأله لماذا هربت . قال : لاني رأيت ان الاستعداد لما هو اكبر .

(ومعناه لا يصدق العاقل عدوه) .

● اسد شاخ وضعف وتمارض ورقد في المغاور، وكلما اتاه حيوان افترسه ولما جاءه الثعلب يسلم عليه فقال له ، لما لا تدخل يا ابا الحصين اجاب لاني رأيت آثار اقدام كثيرة دخلت ولم تخرج .

● غزال هرب من الناس فجاءه الاسد وافترسه داخل المغارة قائلا: وقعت في يد من هو اشد منهم. (ومعناه من يفر من خوف يسير يقع في بلاء عظيم).

● قال ارنب للبوءة متباهيا : انا الد كل سنة اولادا كثيرين . قالت اللبوءة : صدقت غير ان واحدا الده ، فهو سبع .

● امراة عندها فرخة تبيض لها بيضة فضة كل يوم، اكثرت علفها، فانشقت حوصلتها .

● وقفت بعوضة على قرن ثور. وحين قالت له: اثقلت عليك اجابها الثور، لا يهم فنزولك مثل رحيلك .

● انسان ثقلت عليه احماله، فرمى بها وطلب الموت، وحين جاءه، وقال له : لماذا دعوتني . قال : دعوتك لترفع عني جرزة الحطب (١) عن كتفي .

● قال البستاني : البقل البري يهب منظرا جميلا، لانه تربية امه، اما المخدوم فهو تربية امراة ابيه .

● انسان يعبد صنما ويذبح له كل يوم ذبيحة ، الى ان اتى على جميع ما يملك. فقال له الصنم «لا تنفق مالك علي، ثم تلومني آخر الامر» .

● انسان رأى آخر اسود اللون يستحم في الماء، فقال له: لا تعكر الماء، فانك لا تستطيع ان تصبح ابيضا، ولن تقدر عليه ابد الدهر (١).

● راعي حمل على بهائمه، كبشا وعنزا وخنزيرا، ثم استوقفه اضطراب وخوف الخنزير، فقال له: يا اشر الوحوش لماذا انت وحدك الخائف، فاجاب الخنزير لانك سترحم كبشك لصوفه، وعنزك للبنه، اما انا فلا صوف لي ولا لبن وسأذبح فورا .

● تسابق الارنب والسلحفاة، الى ان تعب الارنب فنام، فسبقت السلحفاة البطيئة .

● رجل اسود يغتسل بالثلج ليصبح ابيضا، فبادره آخر ، لا تتعب نفسك .

● اصطاد كلب ارنبا،ومضى يعضه بقوة، ليلحس دمه. فبادره الارنب: تعضني كانك عدوي، وتقبلني كانك صديقي .

● انسان رأى حيتان تقتتلان . وجاءت ثالثة لتصلح بينهما، فقال: لولا انك اشر منهما ما تدخلت بينهما .

---

(١) وهو ما يشير الى حب الحياة في مواجهة الموت .

(١) ومعناه : ان المطبوع لا يغير طبعه .

● لاحظ حداد ان اصوات المطارق لا توقظ كلبه من نومه، اما صوت المضغ فيوقظه على الفور .

● الشمس والريح تخاصما، حول من منهما يقدر ان يجرد الانسان من ملابسه، وما ان اشتدت الريح، حتى مضى الناس يلفون ملابسهم حول اجسادهم لكن ما ان سطعت الشمس وارتفع الحر، حتى خلع الناس ثيابهم من الحر .

● وقع خلاف افضى الى الحرب بين النسور والارانب، وعندما لجأ الارانب الى طلب حلف مع الثعالب ، رفضت الثعالب معتذرة ، لقوة عدوهم من النسور .

★ ★ ★

ولعلني اكتفي بهذه المجموعة من المأثورات والحكايات الحيوانية التي تنسب الى لقمان الحكيم، الذي يرجعه البعض الى انه هو بذاته ـ احيقار ـ السرياني ـ او «هيكار» البابلي ـ ٤ الاف عام ـ .

ففي مثل هذه الحكايات يبرز ذكاء العاجز بازاء خصمه القوي، فالفأر عادة ما يحقق انتصاره على الاسد، والعصفور واسع الحيلة ـ او الزعرور في الحكايات السورية، ينتصر في النهاية على الضبع، وعنزة العنزوية التي تأتي لاولادها الثلاثة بالحشائش مغنية، وعندما يتنكر الضبع ويقلدها مختطفا اولادها، تستردهم في النهاية بمبارزة الضبع بقرونها الذهبية، كما ان العصفور ـ او الحجل ـ ينجح في الافلات من الثعلب المكار، ليطير محلقا من بين مخالبه .

ولا بأس من التوقف هنيهة عند حكاية من هذا النوع، عن تعاليم ثلاثة لعصفور ذكي، صادفتني تنويعاتها في عديد من حكايات البلدان العربية .

وشغلت هذه الحكاية كثير من الدارسين، فلها انموذج مدون في «نماذج وانماط الحكايات الفولكلورية» The Types ونص اخر في قاموس الموتيفات تحت اسم «نصيحة الثعلب» .

فتعاليم الطائر الثلاث حكايات بسيطة لدرجة انه ليس لها سوى موتيفة روائية واحدة، وبهدف الاستشهاد فان النموذج الواحد يكفي.

ولقد عثر على هذه الحكاية بالتحديد في عديد من اقدم المصادر المعروفة وروعي في اختيار انموذج دقيق لها،كما روعي المحافظة على ادق التفاصيل الاساسية للقصة، دون الاحداث الوصفية، او المتنوعات الاخلاقية للحكاية

والتي كثيرا ما يتوالى تكرارها بشكل يتملك الجسد الاساسي للحكاية ويحرفها وخصوصا فيما يتصل بالحكايات الدينية بشكل عام .

والحكاية ترد على النحو التالي :

«امسك رجل بعندليب، فوعده العندليب بثلاث نصائح غالية اذا ما اطلق سراحه، وتركه يطير في حرية. ولما وافق الرجل، قال العندليب في التو : «لا تجرب المستحيل. لا تتحسر على ما فات. لا تصدق حكاية بعيدة الاحتمال» ، وهنا اطلق الرجل سراح الطائر، وبعد ان انطلق الطائر حرا، اراد ان يمتحن الرجل فقال له : «يا غبي انك لم تتعرف على الكنز الذي اضعته من يدك، لان معي لؤلؤة كبيرة في حجم عين النسر» وتملك الطمع الرجل، وحاول ان يمسك بالعندليب مستعينا بالباب، واعدا بانه سيعيد اطلاق سراحه فقال العندليب : «لقد عرفت الان الكيفية التي استعملت بها نصائحي الثلاث، فانا نصحتك بان لا تيأس على ما فات، وها انت الان تقف متحسرا لاطلاق سراحي، ونصحتك بان لا تقتحم المستحيل، وها انت تحاول الامساك بي برغم عجزك، ولقد اخبرتك بان لا تعتقد فيما هو بعيد الاحتمال . لكنك صدقتني، عندما قلت لك ان بحوزتي لؤلؤة اضخم من كل جسدي» .

وتعيش هذه الحكاية الان في مجموعات الحكايات الشعبية التي تحتوي على ما هو شفاهي منها، وما له مصادر ادبية، فلقد رواها شحاذ هندي، واطفال احدى قرى جزيرة سيلان، ودونت في كتاب « حكايات قرية سيلانية» ، وقيل ان مؤثرات ايرانية تبدو فيها، ووجد « للعصفور العاقل والرجل الغبي» سبعة اشكال في الفولكلور الالماني، وفي قاموس موتيفات الحكايات الشعبية وانماطها لتومبسون، كما وجدت اشكال لها تحت اسم «التعاليم الثلاثة» .

وعندما يستشهد بكل هذه المجموعة المتنوعة من هنا وهناك يصبح الامر عسيرا في تعقب الحكاية منذ مصدرها القديم الذي هو مولد البوذية، حتى اشكالها الحاضرة في مجموعات حكايات القرن العشرين الشعبية ، واقدم نص معروف دون باليونانية في بداية القرن السابع الميلادي،ويعتقد ان كاتبه هو (١) «جون الدمشقي». ولقد وجدت هذه الحكاية متخللة جسد حكاية رومانسية هي «بارلام ويوسف» . والنص في مصدره اليوناني يقرأ هكذا :

«قصة شيقة ترجع الى زمن المدينة المقدسة، من اقصى اراضي

(١) او يوحنا .

اثيوبيا التي تدعى الهند، وتحكي حياة برلام ويوسف الرجلان الشريفان الصالحان» وهذه القصة الرومانسية الدينية، تحكي عن ملك يحكم الهند، ويضطهد الرجال المخلصين ويعذبهم . وفي الترجمة المسيحية يظهر ان الشعب المضطهد هم المسيحيون) وعند مولد ابن الملك ، دعي الملك خمسة من حكمائه ليتنبؤا فأفرح اربعة منهم قلب الملك بتنبآتهم عن الطفل، اما الخامس فقد تنبأ بان الطفل سيكون مسيحيا. (في التراجم المسيحية ان الطفل سيكون ناسكا دينيا). وكانت النتيجة ان سجن الملك ابنه في قصر معزول ، وتحكي القصة عن حياة الامير ونموه داخل هذا القصر، بمعزل عن كل العالم، وكانت اهم شخصية في حياته هي معلمه برلام، الذي انفق من حياته ثلاثين سنة في التعبد في البرية وبدأ برلام يعلمه اصول الدين والحكمة، وحكى له مرة عن الجهلة من عبدة الاوثان ـ قاصا عليه فيما مضى حكاية نصائح الطائر الثلاث ، دون ان يكون للحكاية علاقة مباشرة بعبادة الاوثان، المهم انه من خلال حكايات ونصائح وتعاليم الناسك الهندي برلام،وهب الامير نفسه تماما لحياة التنسك، متخليا عن قصره ومنبته الملكي. كما ان حكاية برلام ويوسف وجدت ايضا بكاملها في تعاليم بوذية ويعقوبية ومسيحية .

ولقد اعتقد «جون الدمشقي» (١) المصدر المدون للنصوص البرلامية المبكرة انها ترجمات مسيحية لروحانيات رومانسية اكثر قدما، الفها في الهند دعاة البوذية، اما الكاتب المفترض هنا فهو جون الدمشقي وكان رجلا متعلما ليس فقط لمعرفته الواسعة باللغات، وشئون الدين والفلسفة،ولكن ايضا بالنسبة للعلم، وتروي عنه حكايات كنتر بري انه كان دكتورا في الفيزياء .

والحكايات التي مصدرها الهند نقلها البوذيون الى الصين والتبت وبقية الدول الشرقية ، وايضا الى الغرب بعد رجوع الاسكندر من الهند، وخلال القرون اصبح لكتاب برلام شعبية واسعة في كلا الشرق والغرب، وترجم الى الهندية والصينية والفارسية والعربية والعبرية وعديد من اللغات الشرقية وصلت اكثر من ٦٠ ترجمة، وفي كثير من الدول الاوروبية وخصوصا في القرون الوسطى، بدت ترجمات هذا الكتاب كما لو كانت تجري وقائعها في اوروبا ووجدت اصوله في عديد من المتاحف والمكتبات.

وتغيرت معالم الكتاب الهندي واختفت تماما مصادره البوذية الى ان اعيد اكتشافه في القرن التاسع عشر، باكتشاف ان الامير يوسف لم يكن

(١) يوحنا الدمشقي، وكان يكتب بالسريانية .

سوى البوذا ذاته .

لكن خلال العصور لم يحاول احد مشقة الوصول الى من هو برلام ومن هو يوسف. واين عاشا. واتخذت اسماؤهم صدى الاسماء العربية والعبرية وربما كان موطنهما فلسطين او الشرق الادنى بشكل اعم. ووصل الامر ببرلام ويوسف الى حد انهما اتخذهما الرومان الكاثوليك، والكنيسة اليونانية كقديسين خلال ايام جريجوري الثالث عشر. وهكذا عوملا كقديسين واتخذا اماكنهما في «اجندة القديسين» للاخوة الدومينيكان في القرن الثالث عشر، فاتسع انتشارها اكثر فاكثر ، حتى وصلت الى اللهجات الشعبية لكل الشعوب الاوروبية، ووصل بين سنتي ١٤٧٥ حتى ١٥٢٠ الى تحقيق اقصى مدى ممكن من الانتشار حققه كتاب .

وفي العصور الوسطى استخدمت قصص هذا الكتاب الاستطرادية، في كافة اغراض الخلق الادبي، في كتب القصص والاشعار والمسرح .

وكذلك ترد قصة «برلام ويوسف» في الادب السرياني ــ مدونة ــ على النحو التالي :

«قصة ابن الملك يوسف ومعلمه المسيحي برلام» وهو : انه كان بأرض الهند ملك كبير يحب الدنيا ويعمل جاهدا لها،يكره الزهد ويحرق الزاهدين، فلما كان ذات يوم سأل عن رجل من خاصته، فقيل له انه قد زهد في الدنيا، فعظم ذلك عليه وارسل في طلبه، فلما مثل بين يديه انكر عليه الملك هلاكه لنفسه،ومفارقته لاهله، فاجابه الناسك بان الدنيا الى فناء، فحياتها موت وغناها فقر، وفرحها حزن، وشبعها جوع، وصحتها سقم، وقوتها ضعف، وعزها ذل، ولذتها الم.

واستمر الناسك على ذلك يصف الدنيا واهلها واحوالها في حديث طويل ما ان انتهى منه، حتى سأل الملك، هل يريد ان يصف له الآخرة ، ولم يكن جواب الملك الا ان جازاه بالشقاء والحرمان وبطرده من مملكته.

ويدور الفلك ويرزق الملك بغلام بعد يأس من الخلف والانجاب،ويجتمع المنجمون والعلماء ويبلغونه ان هذا المولود سيجيء بدين جديد.

★ ★ ★

فاذا ما كانت نقطة بدءنا هي الحكاية الحيوانية، الطوطمية، ضيقة الجزئيات، وانموذجها الموفق في « تعاليم الطائر الثلاثة » ، بصرف النظر عن ما صاحبها من استطرادات، ولنقل ما طرا عليها من هجرات ومؤثرات بوذية، ثم مسيحية، واخيرا سريانية .

ففي الامكان الارتداد الى نقطة منطلقنا عن حكايات الحيوان الشارحة.

وتقديم انموذج ـ اخر منها ، جمعت احد نصوصه من مصر الوسطى عام ١٩٥٤ ، واقدمه هنا كنص شفهي للمحافظة على فويماته :

الديب والتمســـاح

ديب (١) متعود يزور تمساح كل يوم ، ينط يركب على ضهره .

التمساح يعوم به على وش بركة قارون ، ويلف به يفسحه فـــي عموم البحــور .

وليفة (٢) التمساح زعلت وانقهرت ، وفي يوم زارتهــا واحدة ست عجوزة ، وقالت لها : « زعلانة من ايه ؟ » قالت لها : « جوزي التمساح ، مصاحب ديب ، والديب كل يــوم بيجي من على البر يزوره ، وخلاص ما عدش راجلي التمساح سائل فيه وبيحبني » العجوزة قالت لها : « اعملي عيانة (٣) ، وقوليلو ان الحكيم وصفلك قلب ديب » .

التمساح رجع البيت ، وجدها عاملة عيانة ، ولما سألهــا وقالت لــه ان دواهــا على قلب ديب، التمساح طمنها وقال لها : « الديب موجــود وصاحبي ، وحايجيني بكره الصبح البحر ، وحاجيبلك قلبه .

ولما الديب تاني يوم زار التمساح الصبح ، وركب على ضهره زي عوايده ، التمساح خده فــي وسط البحر وحكالو الحكاية ، فقاللو الديب: لا مؤاخذة يا تمساح انا سايب قلبي في البيت وماجبتوش معايا النهارده، طلعني على البر ، وانــا اروح اجيبلــك قلبي من البيت وارجع .

التمساح وصله للبر ، والديب اول ما حط رجله على البر ، مات على روحه من الضحك . التمساح شافه قاللو : « بتضحك ليه ؟ » الديب قاللو:

بضحك عليك .

عليل ما دويت .

وصاحب ما بقيت .

★ ★ ★

ودونت هذه الحكاية الحيوانية للمرة الاولى بالعربية بالفية الكاتب العبري اليهودي « ابن سيرا » ، على النحو التالي :

ما ان خلق الله العالم ، حتى امر ملاك الموت ان يلقي بمجموعة من

---

(١) في معظم النصوص ياخذ الثعلب مكان الذئب .

(٢) الوليفة هنــا تعني الرفيقة او العشيقة ، وفي نصوص اخرى ، تذكر الزوجةالغيور .

(٣) تتصنع المرض ، وهي جزئية متكررة، حيث تصنع المراة اشياء تتهشم تحت فراشها،خبزا محمصا ، او قشر بيض ، او رقاق .

الحيوانات من كل الانواع في البحر ، لكي يعيش كل حيوان مع ما يخالفه من حيوانات . وعندما جاء ملاك الموت للثعلب ، وجده يصرخ ويهلل على شاطىء البحر ، وما ان سأله عن السبب ، حتى قال انه يبكي صديقه الذي ألقي به في البحر ، اندهش ملاك الموت ، وترك الثعلب يمضي.

لكن الديب الذي خبر لعبة الثعلب ، نجح ايضا في التهرب، وفي نهاية السنة،بعد ان احصى الحوت(ملك البحر) جميع الحيوانات افتقد الثعلب والديب وارسل الحوت رسله ليكتشف كيف هربا من مملكته ، وعندما سمع بخبث الثعلب ، رغب في ان يلتهم قلبه لكي يزداد ذكاءه وحيلته ، وأرسل عديدا من الاسماك ليحضروا له الحيوان الماهر ، وعندما وجد السمك الثعلب بجانب البحر ، اخبروه ان الحوت قد مات ، وانه سينصب ملكا بدلا منه . فامتطى الثعلب ظهر احدى الاسماك وحمل الى داخل البحر ، وفي داخل البحر ارتبك، فسأل الاسماك عن حقيقة ما يحدث ، فقالت احدى الاسماك ، ان الحوت ، حاقد على ما يتمتع به من دهاء ،وانه يرغب في التهام قلبه ليصبح اكثر دهاءا منه ، وهنا اجاب الثعلب ، بانه كان من الواجب تذكيره مبكرا ، لان الثعالب عادة تترك قلوبها في منازلها قبل خروجها .

وهنا اعادته الاسماك الى الشاطىء ليذهب ويحضر قلبه .

على الشاطىء سخر الثعلب من السمك الذي يعتقد بأن مخلوقا بدون قلب يمكن ان يعيش .. وفتك الحوت برسله الاغبياء فقتلهم والتهمهم .

ولقد عكف اثنان من كبار اساتذة الفولكلور ، هما د. موسى جاستر والبروفيسور لويس جنتزبرج ، على دراسة هذه القصة او الفبيولا من الفية ابن سيرا . وارجع د. جاستر ان القصة متشابهة قليلا مع اخرى هي « قصة القرد والتمساح » ، واضاف ان نهايتها تشير الى قصة اخرى هي « قصة الاسد الذي قتل حمارا ، والقى بجثته لثعلب ، واستطاع الثعلب ان يتسلل ويسرق قلب الحمار ويأكله . موهما الاسد ان الحمار لا قلب له » .

واتفق جنزبرج معد. جاستر في ان اسطورة اوفابيولة ابن سيرا ، مزج بين ثلاث قصص متفرقة : حكاية الثعلب وملك الموت ، وحكاية الثعلب والاسماك ، واخيرا حكاية الاسد وابن آوى والحمار . اذ انحكاية الثعلب وملاك الموت لا رابط بينها وبين الثعلب والسمك . والاخيرة لا علاقة لها بحكاية هندية ، عن القرد والتمساح التي يمكن تتبعها

فـي كليلـة ودمنـة .

القرد والسلحفـاة البريـة

فيعتقد الاستاذ جنزبرج ان للقصة اصلها فـي الحكايات الهنديـة والعربيـة اكثر احتمالا منه في الادب اليهودي القديم « طالمـا ان المؤلف (ابن سيرا) كان يعرف الكثيـر من فابيولات الحيوانات التي لم تكـن موجودة في الآداب اليهوديـة المبكرة . ويـرى جينزبـرج ان القصص الاستطرادية المتعرجة الاحداث جديدة تماما علـى الآداب المبكرة للفولكلور الاوربي وفولكلور الشرق الادنى . لكنهـا ترد في كليلة ودمنة تحت اسم « قصـة القرد والسلحفاة البرية » متصلة مـع الاسد وابن آوى والحمار. وقـد يكـون ابن سيرا قد جاء بهذه القصة من مصادر شفاهية ، امـا حكايـة القرد والتمساح فلهـا مصادر شفاهيـة مستمرة ، الـى جانب تاريخهـا المدون منذ حوالي الفين سنه ، وتنوعاتهـا الشفاهية تمتد من زانزبار حتى موسكو ، ولهـا بعض الاختلافـات في كوريـا واليابـان والفيليبيين والملايـو واندونيسيا ، كما امكـن التعرف على ثلاثة متنوعات للحكاية وجدت في الشرائعالتي تنتمي او تنسب الى الـ Jataka وبها اشكال ــ اقدم ــ اغلب الوثائق والمدونـات الفولكلورية ، اي اغلب المجموعـات القديمـة التي تمتد الآن في آداب كل العالم .

وظهرت الجاتاكا التي يعتقد انها الفت أو دونت) في شمالـي الهند، قبـل عصر الملك اسوكا الذي توج في ٢٧٠ قبل الميـلاد . وامتصـت الجاتاكا اغلب الجسد الفولكلوري لهذهالمناطق(١)،ومعانتشار البوذية خارج آسيا سرت الجاتاكا ، ومعها حكاية القرد والتمسـاح فـي (٢) البنكاتانترا وانتشرت فـي منطقتنـا بيـن سنتـي ٢٠٠ بعـد الميلاد و٥٠٠ بعـد الميلاد ، ويبدو انها تشكلت بشكل محتمل في شمال الهنـد او جنوبها ، وتحوي هذه المجموعة من التراث الفولكلوري ايضا قصة القرد والتمسـاح، من اصل سنسكريتي لمترجمها والتـي منهـا جـاء الاصـل العربـي لكليلة ودمنة وفقدت بعد ذلك ، لكـن عـن الاصل العربي لكليلة ودمنة ، ترجمهـا العبريـون ونقلوها الى الغرب وعرفت في اوربا خلال القـرون الوسطى ، بالاضافة الى الترجمة العربية ــ عن البهلوية ــ لابن المقفع .

ومن هنا وصلت كليلة ودمنه اوربا في القرن الحادي عشر الميلادي،

---

(١) شبه القارة الهندة بالاضافة الى غرب واواسط آسيا .

(٢) اي الكتب الخمسة ، اما الجاتاكا معناها محيط القصة او الحكاية .

وقبل بداية القرن السادس عشر ترجمت الى اليونانية واللاتينية والاسبانية والايطالية والالمانية والانجليزية والسلافية القديمة والتشيكية ، واصبحت كليلة ودمنة في كل اوروبا اول كتاب شرقي يحظى باستقبال شعبي كبير .

★★★

واذا ما اكتفينا بهذا القدر حول مصادر الحكايات الطوطمية ، خاصة في كليلة ودمنة ، وانتقلنا الى مثل تطبيقي ثان ، وليكن ما يتصل بقصص الخلق الحشرية الطوطمية ، وهي ايضا ملمح جوهري من ملامح تراثنا العربي السامي . نجد ان الحكاية او الفابيولا ، ترد بسيطة عفوية على النحو التالي :

فعندما اراد الاله الاسمى ، سينجابونجا ، ان يشكل مادة الارض ، امر السلحفاة البرية ، ان تذهب وتحضر له بعض الطمى من اعماق المياه الفطرية ، وغطست السلحفاة في اعماق المياه واخذت الطمى ووضعته على ظهرها ، وخلال صعودها ذاب الطمى بواسطة الماء ، وفشلت السلحفاة، ونفس القدر السيء صادف الرسول الثاني (ابو جلمبو) او الزعرور.

واخيرا امر الاله الاسمى، دودةالعلق (١)،ان تحضر له الطمى ، وغطست العلقة في اعماق المحيط وملأت بطنها من الطمى ، ثم صعدت الى سينجابونجا وطرشت الطمى من معدتها في يد الاله الذي شكل الارض منه.

وهذه واحدة من اوسع اساطير الخلق المتصلة بموضوعنا عن الحكايات الطوطمية الحشرية ، والمرتبطة بخلق الارض عن طريق ارسال نصف رسول منفذ ، يأمر فيطيع منفذا .

وهم غالبا ثلاثة طيور او حيوانات ـ الثالثة ثابتة ـ يغوصون وسط مياه المحيط الصاخب لاحضار مادة خلق الانسان والعالم وفي بعض الحالات يهدف ـ الاله ـ ان يحضروا التربة من الاعماق ، وغالبا ما يفشل الرسولان الاولان والثالث فقط هو الذي ينجح في احضار الطمى او التربة التي عن طريقها ستشكل الارض .

وفي عديد من قصص الخلق ـ الطوطمية ـ المتنوعة ، من وسط وشمال آسيا ، يحاول الشيطان احضار الطمى من اعماق المحيطات ، وغالبا ما يفشل مرتين او ينجح في المرة الى الحيوات والحيوان .

---

(١) يلاحظ خلق الانسان من علق .

ونماذج اساطير خلق الارض ، لها اشكالهـا المتنوعة عند عديد من القبائل الهندية القديمة ، ووسط وشمال آسيـا ، وفي شمال امريكـا وغرب الهنـد الامريكيـة .

ففي كينيا تعد قصصا شعبية ، وهي ايضا قصص شعبية في اوروبا الشرقية ، ورومانيا ، وروسيا ، واستونيا ، وفنلندا وكل مكان .

ونحـن لا نقصد هنا طرح الاساطير المتنوعة حول منوعات هـذه الاسطورة او حتـى مجرد تتبـع اصلهـا البعيد ، ويكفي ان نلاحظ هنا ان كل الاحتمالات تشير الى ان الاسطورة ـ الام ـ منشؤها الهند، كما تؤكده اغلب المصادر الهندية خاصة في البرجاباتي ، عند البراهمـة ، وفيها يتخذ الرسول هيئة الخنزير البري (الحلوف) او السلحفاة ، يغوص في ميـاه المحيط الفطريـة ليحضر ـ مادة ـ الارض من قاعة .

والغرض من هذا الاستطراد هو في جذب انتبـاه الفولكلوريين والدارسين لهذه الاسطورة ، وللحقيقـة العلميـة التي ينفرد بهـا اليهود والعرب والفلاشا والاحباش . ومن جانب ثـان ، لمدى الاهميـة ، التـي قد يجنيهـا باحث الفولكلور وجامعه ، من مجرد الاهتمـام بالحكايـات ـ الطفولية ـ لقصص الحيوان والزواحف والنبات الطوطمية .

وتجدر الملاحظـة الى ان المتنوعات الساميـة لهذه الاسطورة تنفـرد باحتوائها علـى خلق الانسان الاول ـ آدم ابو البشر ـ بعكس الفولكلور اللاسامي ، الذي تتوقف حدوده عند مجرد خلـق الارض ، والادوات الثلاثة المشار اليهـا وهي الطمى ، الطين ، التراب ، والتـي بحث عنهـا انصاف الرسل الثلاثة ، الذيـن لا اهميـة لاثنيـن منهما ، والثالث فقط هو الذي نجح ، والموتيفة الاخيرة شائعـة في الاساطير الساميـة وغيـر الساميـة ، وليس هنـاك خط فاصل بيـن الخلـق الاصلـي للارض ومخلوقاتهـا بعد الطوفـان ، او فيما قبله .

وتصف اسطورة الخلـق عنـد الشيروس والهنـود ان الالـه الاكبر « بهاجوان » تضايق من الرسوليـن الاولين اللذيـن اخفقا . وأمـر الرسول الثالث بأن يحضر الطمى من اي مكـان ، فاحضره « جارو » مـن السماء ، وليس من اعماق المحيط الغميق القديم الفطرية .

وقصة الخلق في الفالاشا تبدأ على النحو التالي : فعندمـا اراد اللـه ان يخلق الانسان ، وارسل رسله الثلاثة من الملائكـة الثلاثـة : « جبرمائيل ، وبرنائيل ، ثم ميكائيل » .

ويتشابه النموذج العام لاسطورة الخلق هذه ، مع واحدة مـن اهم

اساطير الخلق الشعبية لدى مجتمعاتنا الاسلامية ، ولهـا عديد من الاشكال في الاداب العربية الكلاسيكية، كما يوجد ايضا منها عديد من النصوص الشفاهية الحديثة مسجلة من فلسطين وتركيا ، ويوجد ايضا اسطورة رومانية مشابهة للاسطورة الاسلامية .

وبشكل مجمل فان الاسطورة اليهودية والاسلامية متشابهتان ومنحدرتان من اصل واحد ، هو الاسطورة الفلاشية (١) برغم ان اسطورة الخلق الاسلامية تحتوي على بعض الاختلاف اذ انها ـ اي الاسلامية ـ تنسب الى عزرائيل شغل وظيفة ملاك الموت ، ويمكن تلخيصها على النحو التالي :

« امر الاله الملاك جبريل ان ينزل الى الارض ويحضر حفنة من التراب لكي يخلق منها آدم ، وعندما سمع الشيطان ابليس عن مهمة جبريل، انطلق الى الارض ، وتخفى في ثياب ناصح او ناسك مقدس، واخبر الارض ان الله يريد تشكيل مخلوقات من ترابها ، بهدف ان يسيدها على كافة مخلوقات الارض قاطبة . قال ابليس : « لكني خائف .. اذ ان هذه المخلوقات ستجدف ضد الله ، لذا لا تسمحي له بان يأخذ منك اي شيء . وبناء عليه تصرفت الارض ، لكن عندما سمع جبريل برفض الارض ، عاد الى الله بلا تراب ، ونفس القدر صادف الملاك الثاني ميخائيل ، لكن الرسول الثالث الملاك عزرائيل ، لم يعط اهتماما لبغي الارض ، مفضلا طاعة امر الله وأحضر حفنة من مختلف الاتربة ، ومن هذا التراب خلق آدم ، لكن عندما عاد عزرائيل من رسالته ، كان مأخوذا ، حتى انه ظل بلا حركة ولا كلام اربعين عاما وبعد ان سمع الله تقرير عزرائيل ـ باركه كثيرا وكافأه بان جعله ملاك الموت، يقبض (٢) ارواح كل المخلوقات .

وتكشف هذه الاسطورة عن كيف ان اداة خلق الانسان هي نفسها اداة موته المتمثلة في ملاك الموت . وكيف أن دائرة المجيء والغياب نهائية، وان الموت ضروري ، والا ازدحمت الارض بمخلوقاتها .

ولعديد من الفولكلوريين دراسات عن هذه الاسطورة ، منهم من

---

(١) الحبشية .

(٢) ويلاحظ ان تعبير «يقبض» ما يزال هو التعبير الشائع المشير الى مكافاة هذا الملاك الثالث ـ الفائز ، بان يقبض الارواح .

يضيف بانه عندما علم عزرائيل بمهمته انخرط يبكي ويندب ويقول : « بين كل ابناء الانسان، سيكون هناك انبياء وقديسون سيمقتوني بلا جدال على ما فعلته. فأجاب الاله : « سارسل عديدا من المصائب والكوارث على الجنس البشري وسأشغلهم عن معاداتك .

وتتشابه هذه الفكرة في الملحمة الهندوسية حيث ذكرت مرتين في المهابهارتا ، فآلهة الموت خلقها الاله براهما بلا شفقة من اجل الارض المزدحمة واشتكت طويلا من انها ستصبح ممقوتة مكروهة من الناس . فوعدها براهما بان كل انواع الكوارث والاوبئة ستجعل جميع المخلوقات ترحب بمجيئها وتستقبلها بكل ترحاب .

ويعتقد (م. وينتميرنيتز) ان لهذه الملحمة قيمة اثرية اذ ان براهما يظهر فيها كالخالق ذاته .

وبالاضافة للاسطورة ، التي يلعب فيها عزرائيل الدور الذي يلعبه (برنائيل) في الفلاشا ، توجد حكاية اخرى يلعب فيها ابليس دور عزرائيل بشكل مدهش ملفت للانظار منتميا اكثر للاسطورة الفلاشية .

فعندما ارسل الله ابليس فأخذ حفنة من الطمى ، من على ظهر الارض من الخصب والمالح ، والتي منها خلق الله آدم ، من تلك الحفنة التي جلبها ابليس وهذا هو سبب قول ابليس : « أأسجد لواحد خلقته من تراب ، تلك الحفنة من التراب التي احضرتها بنفسي » .

ويجدر بنا الاشارة لما بين الاسطورة الاسلامية والاسطورة الفلاشية (مثل عقاب برنائيل وتكريم ـ الاله ـ لعزرائيل ، فمما لا شك فيه ان للاسطورة الفلاشية تأثير على اسطورتي الخلق عند المسلمين وكذا الابوكريفا اليهودية ، ومنابع الارباب اليهود ، على الاقل فيما يتصل بواقعة السقوط التي جاءت بها الابوكريفا الاثيوبية .

وفي « كتاب اينوش » اذا ما تتبعنا نقط الالتقاء بين هذين المصدرين ، كما تبين العالم « ليسلد » نجد ان النقطة الهامة في هذا التوافق ، هي الاشارة الى ارض دلمون ، التي ذكرت مرارا في الاسطورة الفلاشية ، ولم تكن خطأ مطبعيا في المصدر العربي ، فهي نفسها ارض ديدال لكتاب اينوش الاثيوبي ، التي ذكرت بوضوح وتعيين: « وقال الرب مرة اخرى لبرنائيل ، كتف ادين ورجلين عزرائيل ، والق به في ظلام الهاوية ثم اصنع انفتاحا في الصحراء التي هي ديدايل، والق به هناك منبوذا وغطه بالصخور والاحجار » .

ويجمع دارسو الاساطير على ان عزرائيل هنا هو الملاك الساقط او المطرود والمصادر الاسطورية الهندوسية المغرقة في القدم (مختلف الاشارات في الفيدا) اكدت ان الارض الجديدة المزهرة فجأة ، اغتصبت بواسطة الحية العظيمة حية البحر العظيمة (المختصة بالنظام الشمسي) وفي هذا ايضا تشابه مع الاسطورة البابلية للالة مردوك الذي تغلب على التنين البحري .

وفي اساطير اقدم فان الله خلق مجموعة من الملائكة وسألهم : « اليست هذه رغبتكم ان اخلق الانسان على صورتي ؟» غضبوا : « ما هو هذا الانسان الذي أنت مشغول به » ،وصرفهم واتى بالمجموعة الثانية . ففي هذه الاسطورة المبكرة نجد ان مجموعتي الملائكة الاولى والثانية عارضت خلق الانسان وهي تتفق في هذا مع الفلاشا والاسلام.

والمتنوعات كثيرة ، ففي بعض اساطير الخلق الهندية الشائعة التي فكرتها الاساسية ان الانسان شكل واتخذ هيأته وشكله من قذارة جسد الخالق .

ومن الاضافات المثيرة في اسطورة الخلق المندانية نجد ان روح الانسان مسيرة خلال رحلتها عبر ممالك الكمال بواسطة برنائيل ، اما في اساطير الخلق الآسيوية فان المتملك لهذه المسيرة هو الشيطان ذاته ، وليس برنائيل .

وهناك قصة شعرية دينية اخذها اليهود من اصولها الاسلامية وهي قصة الخلق المحفوظة التي موجزها :

انه عندما نزل جبريل كرسول من الله ليحضر التراب لخلق الانسان، رفضته الارض ودفعته بعيدا ، فاعترض جبريل محتجا : « لماذا ايتها الارض لا تسمعين لصوت الله » واجابت الارض : «اني موعودة مقضي على باللعنة من الانسان » .

اخيرا اردت من تقديم هذه الالمامة المقارنة ، عن قصص الخلق ـ للعالم والانسان ـ الطوطمية او الحشرية ، للرسل الثلاثة من سلحفاة برية، لابوجلمبو ، لدودة العلق ، والتي انتهت في الرسل الثلاثة ، الى اضفاء المزيد من الاهمية لحكايات الحيوان والطير والحشرات والهوام المصاحبة لطفولة الانسان الاول ، ومن هنا تجيء اهميتها القصوى .

كذلك اردت عبر هذه الالمامة الموجزة ــ المقارنة ــ لقصص الخلق الاولى للانسان وارضه او عالمه ، عن طريق الرسل ــ الحشراتية ــ واهمهم ــ عربيا وعبريا ــ هنا ، هو دودة العلق .

حقا الاما اقرب اليوم ، من أمس ، باكثر من غد .

الفصل السابع

الحذور والالغاز في الحكايات العربية

من المتفق عليه ان الالغاز والحذور والاحجية ، وبشكل عام تلك اللغة السحرية الاسطورية المضمنة التي نصادفها بكثرة مفرطة في ثنايا الحكايات الخرافية ، والشعبية بعامة ، ملمح عالمي ـ سحري ـ عثر عليه بكثرة شديدة في فولكلور مختلف الشعوب ، وهو ليس بقاصر على الحكايا الشعبية ، بقدر ما هو موجود في ثنايا السير والملاحم والبالاد الشعرية والشعر الفولكلوري عامة .

الا ان من المتفق عليه ايضا هو تفرد الفولكلور العربي واغراقه في هذه المستنقعات السحرية الملغزة منذ اقدم نصوصه ـ ملحمة جلجاميش ـ بما يمكن ان يشكل ملمحا محدد السمات والخصائص للتراث العربي، من كلاسيكي وفولكلوري .

فما اكثر الحذور والالغاز ومباريات الذكاء والفصاحة في التراث العربي السامي ، سواء منذ قصة احيكار او اهيكار السريانية ، ذات الجذور البابلية .

كما انه ما اكثر هذه الملغزات في البرديات الفرعونية ، والمأثورات الجاهلية ، ثم الاسلامية فيما بعد ، وانتهاء بحياتنا الآنية المعاشة ، وما يسودها من احجية (١) . وملغزات .

---

(١) يلاحظ فوازير رمضان ، وظاهرة انتشارها على طول اجهزة الاعلام العربية ، الى حد الاسفاف في اذاعة وتلفزيون القاهرة بخاصة

ولقد اولت المدرسة الفنلندية اهتماما ملحوظا ، لهذه الخصيصة الفولكلورية ، منذ روادها الاول ، واخصهم « انتى آرني » ، بما اسهم في بلورة منهجه ـ الجغرافي التاريخي ـ في دراسته للالغاز .

فاستوفى آرني معالم ومقومات هذا المنهج في بحثه عن حكايات ومأثورات الالغاز والاحجية ، وما يعرف بالفوازير ، « وحذر فزر » ويطلق عليه في بعض الاحيان ب « الحذر » ويبدو انه تعبير درج على استخدامه في معظم مجتمعاتنا العربية .

وتشير كلمة « حذر » الى حظر ، بمعنى الممنوع والمحظور ،والذي هو بذاته مرادف التابو ، وهو كما لاحظ آرنى سمة مشتركة في هذه الحكايات الاحجية ، او المحجبة ، الغاصة بالتضمينات والعبارات ، من شعرية لسجعية ، لتعاويذ غامضة ، تشمل المواقف والامكنةوالافعال المحرمة ، كما يشمل نفس التحريم ـ والحظر ـ بالنسبة للنطق ، وكذا التعامل مع ساعات النهار والليل ، وفصول السنة ، وايضا اطوار العمر المختلفة ، خاصة ما يتصل بالاطفال الموعودين ، الذين يأتون الخوارق الملغزة ، بل هي تصاحب مولدهم ، مع اشهر الحمل التسعة، ملازمة لنموهم ـ المدهش ـ كما حدث مع ابراهيم ، ويوسف ، وموسى، وسمير اميس ، والمسيح وهكذا .

واذا ما اخذنا انموذجا لحكاية سورية ، اشك في نمطيتها بقدر ما تبهرني موتيفاتها المفردة ، والتي يتبدى فيها مدى حجم ـ التابو ـ او المحرمات وانفراجه على طول الحكايات الشعبية بتقسيماتها المختلفة المتفق عليها ، ما بين حكايات فرفشة (Merrytales) وخرافات جان ، وحكايات طوطمية ، والغاز او احجية ، يتحكم فيها التابو ، مما دفعني الى اعتباره ـ اي التابو ـ ملمحا جوهريا استراتيجيا او منطلقا رئيسيا ـ على الاقل فيما يتصل بفولكلورنا العربي ـ فافردت له فصلاً خاصا في كتابي « الفولكلور والاساطير العربية » دار ابن خلدون ـ ١٩٧٨ : بيروت .

فالتابو هنا جزئية ـ او موتيف ـ رئيسي مصاحب لحكايات الحذور والحكايات الملغزة ، التي يغلب عليها الذكاء الكوني ، وكشف حجب المستقبل ـ بل والماضي ـ واستجلاء استاره وخباياه ، والتطاول في اتيان افعال معجزة ، والقدرة اللامحدودة للفولكلور العربي في التصدي لتحديات التناقضات ، في كل من الذات والموضوع ، او الانسان والطبيعة .

فاذا ما اخذنا حكاية سوريا ـ العليا ـ « قاتل التسعة

والتسعين » . ومحورها طفل ـ قدري موعود ـ ما ان يولد حتى ينطق بالحكمة ، ذلك انه ينحدر ـ تجاوزا ـ من صلب اب قاتل لتسعة وتسعين نفسا ، ومكتوب على جبينه ان يكمل مائة ، لكن قومه قبضوا عليه واحرقوه بالنار ، حتى اصبح جسده رمادا يتطاير في الهواء ، ومرت فتاة ـهي ام هذا الطفل ، وما ان ابتلعت لحسة من رماده ،وتنفست هواءه حتى حملت منه وكان ان وضعت هذا الغلام ، المتوقد الموعود الذي تكلم في المهد بالحكمة ، الى ان ذاع صيته ووصل الى الملك فطلبه ليفسر له حلما رآه (١)

فطلب الطفل المعجزة من الملك ـ على (٢) عادة النصوص الفارسية ـ ان يعطيه تاجه ساعة ، ثم طلب ان يعطيه خنجرا .

وبدأ الملك يروي للطفل ـ بديل الملك ـ حلمه ـ او لغزه او حذره ـ قائلا : « رأيت السكين تاكل من الجبسة » (٣). وهناطلب الغلام خادمة الملكة زوجة الملك وطلب ان يرفع عنها ثيابها الداخلية ، فرفعوها، فاذا هي رجل ذكر ، وقام الغلام فطعن الخادم بخنجره، والتفت الى الملك قائلا : امراتك يا جلالة الملك هي الجبسة ، ثم هتف : انا ابو التسعة والتسعين والآن اكملت مائة نفس » .

وهي ـ كما يتضح ـ حكاية شديدة الثراء من حيث موضوعنا ، تغري بالدراسة المتأنية ، سواء من المنطلق الفرويدي ، لتشبيه الخادم المتنكر في ثياب امراة بالسكين ، وزوجة الملك الخائنة العاشقة ـ بالبطيخة ـ الجبسة ـ الحمراء المكتملة النضوج ، التي تشقها السكين او عضو التذكير .

او المنطلق القدري ، لقاتل التسعة والتسعين المكتوب على جبينه والمقدر له ان يتم المائة ، وحين يتحدى قومه قدره ومكتوبه ، باحراقه وذر رماده في الهواء ـ كما هو مألوف مع الشخصية الشريرة في الوجدان العربي المعروفة « بالبين » ، واشلاء سيرته مع الملك معروف، يأتي ابنه ـ سفاحا ـ فيكمل قدره ومكتوبه بقتل المائة .

وكذا يمكن تناولها من منطلق الجارية التي تحمل دون ان يمسها بشر ـ مثل مريم العذراء ، ونعناعة في نص مصري مشابه ، وفاطمة في حكاية سودانية ، التي تكيد لها زوجة اخيها ـ محمد ـ وتسقيها بول

---

(١) حكايات من اللاذقية ، المصدر السابق . (٢) حيث ان الطفل سياخذ هنا بديل الملك.

(٣) البطيخ الناضج الاحمر المكتمل الاستدارة .

البهائم ، فتشرب وتحمل سفاحا ، دون ان يمسها بشر .

وفي حكاية سودانية ثانية ـ ود النمير ـ يطلب المنجم من الزوجة العاقر ، صحن من عظام الموتى لتشربه زوجة ود النمير ، لكن ما ان يقع المحظور ويشرب زوجها من المعلاق ، بدلا منها ، حتى يحمل في وركه » .

كذلك يمكن التعرض ـ لجزئية ـ قاتل التسعة وتسعين ، الموعود بأن يصل بضحاياه الى المائة ، حتى انه في بعض النصوص ـ ملحمة النبوت ـ التي سانشرها بكاملها في الجزء التالي المخصص للملاحم والسير العربية ـ يذهب قاتل التسعة والتسعين الى المقابر ليزرع نبوته، فاذا اخضر فياليوم التالي ، اتخذ طريقه ـ بعد الموت ـ الى الجنة . لكن ما ان يفاجأ ـ داخل المقبرة ـ برجل انسى شبق، ينكح جثة لامرأة جميلة دفنت حديثا ، فيقتله بنبوته مكملا المائة ويزرع نبوته ويفاجأ باخضراره اي ان ـ حسنة ـ القتيل الاخير ـ المائة ـ ذهبت بسيئاته التسعة وتسعين السابقين عليها .

كما يلاحظ بالطبع الجانب الوحشي او الهمجي الدافع الى القتل سواء من المدخل السالب ، للقدرية والدهرية ، كملمح سامي ، وبتحديد اكثر عربي اسلامي .

وتأكيدا لما سبق ان اوضحه المنهج الجغرافي التاريخي يمكن ملاحظة خاصية انقسام الجزئيات او الموتيفات التي تشكل بنية حكاية قاتل التسعة والتسعين ـ السورية ـ هذه ، الى ما لا نهاية له من الجزئيات .

فتناول رماد وعظام الموتى ، يسبب الحمل ، حتى « لود النمير » في وركه .

ويولد الطفل الموعود ـ كابن حرام ـ لينطق بالحكمة في المهد . بل هو يكمل قدر ابيه ، الذي هو الرماد المحترق ، الذي استنشقته الام ، فهو اذن ـ اي الرماد المحترق ـ في موقع الاب ، والذي ما هو سوى قاتل (١) ـ لتسعة وتسعين نفس ـ .

وهكذا تتوالى الجزئيات مثل ، رؤيا الملك ، اللغز ، الزوجة الخائنة، تنكر الخادم العشيق ، بديل الملك، عدالة القتل .تمجيد القاتل ، او القاتل الصالح ، ناهيك هنا عن المقولة الطبقية الاجتماعية ، للطفل ـ بديل الملك ـ والمغتال في ذات الآن ، حفاظا على التاج والتسلط .

---

(١) مقدس او تحت التابو .

وفي احدى الملاحم الشعرية الغنائية ، ينتهي به ـ اي قاتل التسعة والتسعين ـ المطاف الى الجنة ، وفي عديد من النصوص العربية الوعظية والتعليمية ، يتبادل مكانـــــه ـ كقاتل وشرير ـ مع نقيضه الخيـــر الصالـــح (١) .

ولعله ملمح يشير الى صراعي الخير والشر في الثنائية الفارسية، والعربيـــة ـ الاسلامية فيمـا بعد ـ مثل الرحلات العبوريـــة ومنهـــا مصاحبة جلجاميش ، لخصمه ونقيضه انكيدو ، والخضر لموسى ، والحكيم لقمـــان للاسكندر المقدوني . فكثيرا ما يتبدى الخضر ـ لموسى ـ كقاتل ومغتال صالح فهـو يغرق سفننا ، ويهدم جدرانا ويقتل طفـلا مجزيا او منتقمـا للمحسن ومعاقبا المسيء بالقتل .

ويشير كراب بطريقة متعجلة الى ان الاوربيين اتيح لهم معرفة هذه الشخصية الاسطورية ـ الخضر ـ خلال فترة الحروب الصليبية .

وحتى لا نفقـد خيط بدايتنا عن تحكم سلسلة من التابوات فـــي الحكايات ـ الخرافية ـ الملغزة ، او الحذور والمحظورات ، وكيف ان اناسا اقل شأنا ، في مقدورهم حـــل هذه الالغاز والطلاسم ، والرؤى ، والكلمات والعبارات والتعاويذ والاشعار والأسجاع العويصـــة الملغزة ، والمحظـــورة لغيرهـــم .

وعادة ما تصاحـــب هذه الالغاز والحذور ، حكايات الحب والعشق، والاسعار والمخاطر ، سوا ء المصرية او السودانية او العربيـــة (٢) ، فعادة مـــا يطرح الاب على ابنه البالغ لغزا يكافئه بالزواج اذا حله ، كأن يطلب منه الزواج من فتاة « عرضها قد ـ او مثل ـ طولها » او انهـــا تصون العرض والشرف . وقد يعطيه ذبيحة ، ويطالبه بردهـــا اضعافهـــا ، وقد تساعد الفتاة ، طالب الزواج في حل اللغــز الذي يعتمـــد على الذكاء والشطارة، كمـــا قد يستغرق حل اللغـــز سنـــوات طويلة . وفي كثير من النصوص يتعرف البطل ـ العريس ـ على والد فتاته اولا ، الذي ينقل لها خبـــره فترسل الابنةـ العروس له طعاما ـ كغريب ـ بيض وتمر ولبن ـ كلغـــز ـ بعدد فصـــول السنـــة واشهرها ، او ساعات النهار ـ او مـــواقيت اللقاء، او الانجاب ، او المساعدة في حلول لاحجية ومعضلات تعترض طريق البطل العريس .

كما قد تلجـــأ الحبيبة الى تعريف حبيبها ببلدتهـــا وعنوانها في لغز

(١) على طريقة اخذ القديس بمكان العبد في السفينة ، او ان ياخذ المسيح مكان اللصين.

(٢) المقصود تراث الجزيرة العربية ، من شمالي سعودي ، وجنوبـــي يمني .

او حذر . وفي حكاية سودانية ، تلقي الفتاة سرا لحبيبها بابرة وليمونة وحجر واحيرا بعود ثقاب بعد ان نقرت على سنتها ، فيفهم الحبيب انها من بلدة ـ سن : نار ـ او سنار ، وفي بيتها الحجري شجرة ليمون ، وبجوار البيت حائك ، رمز الابرة .

وللبدو والقبائل العربية ـ اصحاب الوبر ـ باع طويل في طرح وحل هذه الالغاز والطلاسم والحذور . فقد يذهب بطل الحدوثة يقطع المخاطر، لكي يسأل « عرب العربة » او العرب العاربة ، اشارة الى الفصاحة العربية ، وعلاقة التسمية العربية بالاعراب ـ اللغوي ـ وقد تتمثل ـ هذه الفصاحة والذكاء في فتاة عربية ، كما في هذه الحكاية السورية ، عن شاعر الملك الذي لفظ له بشطرة بيت « لوح لي عائدي فقلت له » ومات .

وعندما سأل الملك فتاة عربية ، فصيحة ، اكملت له :

لوح لي عائدي فقلت له لا تزدني

أما علمت بأن النار بالتلويح تتقد

وغالبا ما يحل اللغز او الحذر ، ابن او ابنة فقيرة ، مثل بنت (١) الحطاب ، التي طلب الملك من ابيها ، ان يأتيه عريانا ولابسا في ذات الوقت، فأشارت البنت على ابيها بان يلف نفسه بشبكة صيد فنجا .

ويمكن الجزم بان الاقتدار بحل مثل هذه الالغاز والحذور ، منوط على الدوام ببسطاء الناس من المضطهدين ، في مواجهة من يسومونهم الاضطهاد والقهر .

ومن اللائق هنا ان لا ننسى اقدم اشكالها المصاحبة لحل يوسف وهو سجين مضطهد لحلم خادمي فرعون ، ثم فرعون ذاته ، لحين الوصول الى اقصى سلطة .

ثم جمرة وتمرة موسى ـ الطفل ـ في مواجهة فرعون ، حين نتف له ذقنه ، وكاد فرعون ان يفتك به ، فتدخلت زوجة فرعون السيدة آسيا ، بحجة انه طفل لا يفرق الجمرة من التمرة ، وحين جاءوا بالجمرة والتمرة ـ فعلا ـ ألهم موسى وامسك بالجمرة ، بدلا من التمرة ، ومن هنا ثقل لسانه . « رب انـي ثقيل الفم واللسان » .

ولا تبعد الالغاز والحذور كثيرا ، عن الخوارق والمعجزات ، بدءا

---

(١) القصص الشعبي في السودان ـ د. عزالدين اسماعيل ـ هيئة الكتاب القاهرة.

من الاخوين، ولعنات موسى العشرة للمصريين ، وضربه البحر بعصاه، ومساس اشعة الشمس لقاعه مرة واحدة ، حتى انها اصبحت لغزا شعريا :

« وان كنت فنان وصاحب فن قوم هاتلي
امارة عن أرض جت فيها الشمس مرة جات »

وكذا بقية خوارق موسى مع قارون ، حين أمر الارض بابتلاع قصر قارون وثروته التي تسد عين الشمس واطاعة الارض لامره ، حين واجهه مشيرا : « يا ارض خديه » فأغرقت الارض قارون وقصره وضياعه » .

وتعد المنوعات الاكثر قدما ـ السومرية والبابلية ـ لملحمة جلجاميش من أقدم النصوص المغرقة في هذه التضمينات والالغاز ،خاصة خلال تجوال جلجاميش او قلقاميش ، كما تسميه العرب ، في العالم السفلي ، حيث ظل اثنتي عشرة ساعة مضاعفة يتجول دائما في الظلام وقاوم النوم ستة ايام وسبعة ليال ، بحثا عن الخلود ـ الذي يبدو انه مرادف التيقظ .

حتى اذا ما وصل ذلك البطل السامي جلجاميش الى كبير الالهة « أو تونبشتم » ،تعرض للكثير من الامتحانات،منها وضع سبعة ارغفة على رأسه ، « وان يعجن الرغيف السابع ، ويشكل السادس ، ويبلل الخامس ، ويترك الرابع يختمر ، ويحمر الثالث ، ويشوي الثاني . ويعد الاول للاكل وهو على رأسه (١) .

ويبدو ان طرح مثل هذه الالغاز والحذور ، التي عادة ما يصادفها ابطال الحكايات الخرافية ، كانت بمثابة حيلة لتعطيل البطل ، لكن كثيرا ما يلجأ البطل ذاته الى طرحها على ما يتهدده من مردة وعفاريت وجان واعوان ليعجزهم .

وتكثر في حكاياتنا العربية جزئيات مقاومة النوم ، بل يلاحظ ان كثيرا من حكايات ـ الشطار ـ المصرية والشامية ، يلجأ فيها اصغر الشطار الثلاثة ـ الموعود ـ بحل اللغز الى جرح نفسه ليظل معانيا صاحيا متيقظا .

وتحفل الحكايات الهندية بشكل خاص بالمضمون القائل بأن « من يعجز عن حل اللغز يفقد حياته » . وفي حكاية هندية من هذا النوع ،

---

(١) عمر هذا اللغز يفوق ٥ آلاف عام .

يكـون اللغـز الذي يطرحه الملك على راغبـي الزواج من ابنته الاميـرة الجميلة ،عبارة عـن دميتين خشبيتيـن لهما نفس الشكل والحجـم والايقاع ، والمطلوب التفريق بينهما ، وحين يتقدم ولد فقيـر صبي خياط او حائك ، يفشل طويـلا في حل لغز الدميتين ـ المتشابهتين بالحجـم الطبيعي الى اقصى حد ـ الى ان يتنبه في النهاية الـى ادوات مهنته ، فيستخرج ابرتين ، يسقطهمـا في اذن احدى الدميتين ، فتستخرجمها من فمها . اي انهـا لا تحفظ السر وتصونه كوخز الابر في اعماقها . لكن ما ان يسقط ابرتيه في اذن الدميـة الثانية ، فانها تحتفظ بهما دون ان تلفظهمـا من فمها بمعنـى انهـا تكتم السر ، وانها هي الدمية الفاضلـة القادرة على الكتمـان وحفظ السر .

وعلى هذا النحو اخترق صبي الحائك اللغـز ، باستخـدامه فقط لادواته اوكاره ومهنته واستعداده .

وعادة مـا يطرح اللغـز او الحذر ، في اجتماعـات احتفاليـة جماهيرية ، اشبـه بساحات المدن والقصور ، من ذلـك منازلة جلجاميش لخصمه انكيدو امـام بيوت العرائس ، والمقصود بهـا ساحات المعابـد العشتروتية ، للبغايا المقدسات .

وفي نص « كنزرامبسيت » (١) الذي جمعه هردوت من مصر ، تطرح ابنة الملك ـ البغي ـ لغزها الممثل في ان تطلب مـن طلاب ـ الاتصال الجنسي ـ بها ، سماع اغرب واعجب حكاية صادفهـا ـ البطـل ـ في حياته ، وينجح البطل اللص ـ حين يخبرها بانه ، حين اضطـر لقطـع راس اخيـه .

اما لغز فاطمة الجميلة في حكاية الخلخال ـ السودانية ـ فهو اجادتها للعبة سودانية شعبيـة منقرضة تعرف ب « المانقلا » ، تجرد طالب الاتصال بهـا من ثروته ـ وربما ثيابه ـ ، حين تهزمه .

والمراة في الحكايات السورية واللبنانية والاردنية ، لهـا جانبهـا العشتروتي ، حيث انها تشترط على مـن يتزوجها « ان ينام معها اولا ليلة واحدة . فان ادركه الصباح وهو حي ، قبلته زوجا » .

فتكمن جدليـة الحذر ـ او التابو ـ في انه محمل ببذور فنائه ، طالما ان بطل الحكايـة قادر في نهايـة الامر على الانتصار في اقتحـام المخاطر والمحظورات والحاق الهزائم بكل ما يعترض طريق رحلاته العبورية

---

(١) الذي استطردنا في تناوله « حكايات اللصوص والكادن »، في الفصل التالـي مـن هذا الكتـاب .

المتفائلة دوما . بل ان لمثل هذه الحكايات الملغزة نهاياتها السعيدة كملمح جوهري واكيد ملازم للحكاية ـ او الخرافة ـ الشعبية ، في كل شفاهيات العالم .

ومن هنا فالبطل في كل حالاته ، يقف في مواجهة المحظور بمعنى التابو ، سواء أكانت امكنة وعالم ـ الدوات ـ ما تحت الارض ، او كانت الاقتتال مع الجان والشياطين والعفاريت والرياح والنداهات والسلعوات ووحوش الجبال ، من ضباع لحيتان وثعابين وتنينات حيوانية وحشية خرافية مجنحة ، أقرب الى ما جاءت بها الحفائر والرسوم البابلية والآشورية . ولها اسماءها الغريبة ، مثل : الهايشة ، والهجين ، والمردة والاعوان . وسواء أكانت مطالب البطل ميسرة او غير ممكنة « كأن يجدل حبلا من رمل الصحراء » او اشجارا وجنات تطرح في غير اوانها، او مولود يتكلم بالحكمة في المهد ، والانتصار حليف البطل في نهاية الامر.

فاذا كانت اقصى حالات التابو تتمثل في مجتمعاتنا الشرقية والعربية بخاصة بالنسبة للمرأة والجنس ، فان الحذر قادر على الدوام على ايلاجها .

وفي حكاية « لذة اللذة » المصرية ، يطرح الملك سؤاله على رجل بسيط عن « لذة اللذة » وتقوم ابنته الصغيرة بتقديم الحل وانقاذ ابيها من القتل قائلة للملك :

ـ حكمك لرعيتك دي لذة، لكن نومك مع حريمك دي لذة اللذة » .

وعندما عرف منها الملك انها ما تزال بنت بنوت صغيرة ، حينئذ سألها كيف عرفت ، فحدثته عن آلام ولادة امها ومعاناتها ، فعرفت ان الدافع لهذا العذاب لا بد وان يكون هو لذة اللذة .

وتصل هذه الجزئية ـ اللغز ـ الى اقصى انفتاحها في المصادر الهندية [1] فيذكر «بنفي» حكاية هندية ، صادفها في الملحمة الهندية الشهيرة ـ الماهابهارتا ـ عن ملك يتحول الى امراة حين ينزل ليستحم في نهر محدد ـ تابو ـ وهنا يتخلى عن عرشه ، عبر رحلة عبورية في غابة موحشة ، وهناك يلد ـ بعد ان اصبح امراة ، اولادا جددا .

وحين يزوره الاله ـ اندرا ـ ليطرح عليه لغزه او سؤاله عن « لذة اللذة » وأي الوضعين يفضل ان يتحول مرتدا ، الى رجل ، ام يظل امراة، يجيب الملك ـ المراة ـ بانه يفضل ان يظل امراة « لان المراة اكثر استمتاعا

(١) فاللذة هنا قاصرة على كلا السلطة والجنس ، ليس غير .

بالحب ـ الجنس ـ من الرجل » .

كذلك فكثيرا ما اعترتمثل هذه التحولاتالنوعيةاو الجنسية،الحكايات ـ الهومرية الاغريقية ـ مثل الكاهن المتنبأ ـ الخرافي ـ تريزياس،وهيرا،حول هذا اللغـز : « ايهمـا يجنى لذة اكبر من الاتصال الجنسي أهو الرجل ام المراة » . بل ان تريزياس نفسه ذلـك الكاهن ، الواقف على الدوام فـي صف التسلط . كثيرا مـا تحول الى امرأة ، ونفس الشيء يجري حدوثه للالهة في الكلاسيكيات الهندية .

وعادة ما تكشف حكايات الالغاز والحذور ـ او التابوات ـ عن اصولها الطوطمية ، بل هي قـد تؤكـد مأثور او حكمـة شعبية عالية القيمة ، وعلى درجة ملحوظة من حيث الذكاء والتبصر،سواء من جانب انسان او طائر او حبيبة وزوجـة وهكذا ، في مواجهـة ، قوى تسلطيـة لملـوك وفراعنة ونماردة واعوان ، وملاك كبار ـ شبعانين ـ متسلطين .

من ذلك توقف الملك المتنكر ، على نجع عربي ـ اوبير ـ تقف عليـه فتاة جميلة تملأ جرارها . وهي كما هو معروف خرافة دائمـة التردد في الفولكلور السامي سواء التاريخي او المعاش مثل لقاء يعقوب ـ اسرائيل ـ مع ابنتي خاله لابان بن ناحور الحوراني ـ ليئة وراحيل ـ وتكررت مـع اسماعيل ـ ابو العرب العدنانيين القيسيين في الشمال ـ مع (١) زوجته الثانية . وكذا موسى مع ابنة شعيب ، في مدين او سيناء .

فما ان يواجه ملك مثل هذه الخرافة ، البنت ـ العربية او البدوية ـ الجميلة ، حتى يبادرهـا من فوره طارحـا تساؤلـه هذا ـ الطبقي ـ الفلسفـي :

ـ ليه يا بير عاليك مش زي واطيك ، وواطيك مش زي عاليك ..

قالت البنت : « عاليها مش زي واطيها .. قلة بعل (٢) يحميهـا » .

وهكذا سقته وتعارفا ، واعطاها سبحته وتراسلا عن طريق ، هـذا الحوار الملغـز الشيق ، الى ان تزوجهـا الملك ، على زوجته الحضرية وهنا تتبارى المراتان ، في حلول سلسلة مـن الحذور ، والاقـوال الملغـزة ، تنتهي بان يهب الملك كلا من زوجتيه ـ العربية (٣) والحضريـة ـ نقـودا متساوية ، ويطلب منهمـا النزول الى المدينة لصرفها . الا ان الزوجـة العربية تعود بنقودها ـ بمعنى انها غير مسرفة ـ وزوجها يكفيهـا كلية ،

---

(١) وتنسمى في بلاد « سارة وهاجر » بالمنية او العفوفة .

(٢) البعل هنـا ترد بمعنى الزوج .

(٣) او البدوية في مواجهة الزراعية ، ساكنة المدن او الحضر « الحضرية » .

وتجيب الملك على سؤاله عن احسن مـا اعجبها في المدينة .

فتجيب : « عجبني دكان النجار والزيات والجزار ، الزيات لان كل ماعون ينضح بما فيه ، والنجار لان فيه خشب ـ لطزان (١) ـ كل ما يقدم فـي الابواب والدواليب ، يزداد جمالا وحلاوة ، والجزار لان كل واحـد معلق من عرقوبه » (٢) .

وهي بالطبع مأثورات او امثال متداولة ، الا ان الملاحظة هنا ، مكانها ـ تقديس ـ الاخشاب .

وايضا يمكن ملاحظة مدى الواقعيـة الصادمة للمأثور والشائع عن كيف ان كل انسان في هـذا العالم الطاحـن معلق من عرقوبه ، كمثـل ذبيحة . فجدلية هذا المأثور في مدى وحشيته الداميـة ، الـى جانب فرديته وموقفه اللاقبلي . بل اللاأسري ، مما يشير الى حداثته .

فالحكايات العربية التي من هذه الفصيلة ، دورها الاخلاقي يتمثل في ارساء قيمة بعينها ، مثل الكرم العربي ، وتقديس الخال ، والاقلال من شـأن المـرأة .

من ذلك ان عربيا كلمـا طلب شيئا من زوجته ، قال لها « هاتـي الشيء الفلاني ، يا بنت عادم الراي » . ومـا ان اعترضت الزوجـة حتى طرح عليها لغزه عـن « اخف الخفيف ، واثمن الثمين ، واثقـل الثقيل »

وتنجح الزوجـة في حل اللغز ، بمساعدة ابنها ، فأخف الخفيف هو حلـول الضيف ـ وثقلـه علـى البخيـل ـ وجلوسه في حجر مضيفه الكريم ، وهي ـ كمـا اوضحنـا ـ عادة او تقليدة عربيـة ، ترد بكثرة عن جلوس الضيف على جحر مضيفه ، مبالغـة في التكريـم ، بـل وكثيـرا مـا يطلب الضيف ، طفـل ـ او غـلام ـ مضيفـه ليجلسـه في ذات هذا الوضع ـ الشاذ ـ المثير لكل تساؤل ، خاصة اذا مـا لازمت هذه التقليدة ـ عـن الكرم العربي ـ شخوص هذا التراث المقدسة ، مـن انبيـاء واوليـاء وكرمـاء ، بدءا بموسى والخضر وحاتم الطائي الذي (يرى فيه ـ ديرلاين ـ انـه « كان في الحقيقـة شاعرا عربيا قديمـا ، عاش في النصـف الثاني من القرن السادس بعد الميلاد (٣) ، وهنـاك كتاب فارسي شعبـي حور صورته الى صورة بطل يفوق هرقل وتسيوس الاغريقيين في اعمالهمـا البطوليـة ».

(١) خشب الزان المقدس .

(٢) مثل الذبيحـة .

(٣) اي سابق على الاسلام ، باقل من قرن .

اما اللغز الثاني الذي طرحه الزوج على زوجته ، فهو اثمن السمين ، وهو ــ كما تشير الحكاية ــ ماء البحر في شهر طوبة ، وهو مأثور او معتقد شعبي شائع ــ مصري ــ عربي ، مرتبط بجزئيات البحث عن ماء الخلود ، وعودة الصبا او رجوع الشيخ الى صباه والقوى الخارقة ، لمن يقدر له ان يشرب من هذا الماء ــ التابو ــ في شهر طوبة (١) ــ بالتحديد ــ.

اما اثقل الثقيل فهو نزول الضيف على البخيل .

وتستطرد الحكاية في مباراة بين الاب وابنه ، بعد ان تعرفه ــ الاب ــ بما يشير الى الاعتقاد في توارث ــ حتى ــ الذكاء والفصاحة . ذلك ان الاب يطلب من ابنه ان يرد ويباريه ، فينطلق الابن ، قائلا « يابا ما يرد الحصان الا اللجام ، والجمل الخزام ، وما يرد بنت الرجال الا رجالها » اي اهلها وعائلتها او قبيلتها او بدنتها .

ويرجح ان مصر اعطت الكثير من الانماط ــ الام ــ للحكاية الخرافية، ذات الايقاع المتلاحق ، والتي تداخلها جزئيات سحرية ، واخرى للصدق والكذب . من ذلك ان فرعونا اراد ان يغتصب زوجة جميلة لصياد فقير ، كان قد اصطادها كسمكة سرعان ما انقلبت الى جنية ــ او عروسة ــ بحر فاتنة ، فاعجز زوجها بطلب طفل مولود منها للتو يسامره، وحين نجح ــ البطل الشاطر ــ وجاء بالطفل ، الذي اعتلا كرسي العرش في مواجهة الملك قائلا :

ــ المثل (٢) على الضيف والا صاحب البيت »

اجاب الملك :

ــ على الضيف .

تنحنح الطفل قائلا « انا سني ٦٠ سنة ، لكن وانا صغير ، امي جابت كتكوتين ، ضربتهم ماتوا كلهم، ما عدا كتكوت، وقعت عليه نواية بلح، ومن حدف الطوب في النخلة ، اصبحت جزيرة ، حرتها وزرعتها سمسم، مر عليه جاري وقللي : يا جدع الارض دي ما تزرعشي سمسم ، فلميت السمسم من الارض في الزكايب ، وحاولت اربط الزكايب ، زكيبة منهم زعلت وقالت : انا ما اتربطشي عشان غايب مني سسماية ، دورت عليها، لقيتها في حافر الطور » .

وما ان يقاطع الملك الطفل ضائقا من كذبه ، حتى يبادره الطفل موافقا،

---

(١) مع ملاحظة تهيب الذهن البدائي من مدى التناقض بين تحول الماء ، الى ثلج صلد .

(٢) اي بدء الحديث والقول المأثور .

وطالبـا منه في ذات الوقت ، الموافقـة على نيـة الملك في اختطاف زوجة الصياد الفقير الجميلة . وهنا طق الملك ومات .

★ ★ ★

ويمكن بالطبع التوصل الى رصد ـ شبه ـ احصائي لموتيفات الحذر او المحاذيـر العربية التي يمكـن ان تشكل ملمحا جوهريا لقنوات الفكـر العربي الشعبي،اقرب الى الايجابية،في مواجهة بقية الملامح الآسفةالسالبة، الغيبية والدهرية والسلفية والقبلية. في تكاتفها السـالب،العامل على الدوام في صف السباحة المعاكسة والثورة المضادة ، ذلك مع الاخذ في الاعتبار، ان مثل هذا الرصد لابداعات الذكاء وشحذ الذهن ، والمغزى الذي تفيض به مثل هذه الحكايات الخرافيـة الملغزة ، في سخريتهـا من حياة البذخ والطراوة، من ذلك الحراث الذي شاهده احد الملـوك يحرث ارضه سعيدا مستغرقا ، وزوجاته الثلاثة يقفن له على رأس الحقل بالاكل والماء البارد، لانه يحسن معاملتهن وعشرتهن ، ولا يحول بينهن وبين ما يردن (١) .

وحراث آخر يعمل باقصى عنفه ، دون منتبه ـ لحنش ـ الثعبـان الذي علق بكعبه المشقق ، وحين يختاره الملك ليعمل في حديقته تأخـذه وتتملكه حياة القصور ونعيمها ، لدرجة ان يمرض عند اول دخول شوكة نبات صغيرة في اصبعه ، ويلازم الفراش .

وكذا ـ ولكي لا ننسى ـ حكايات الطرد مـن الفردوس عند اول اقتحام لشجرة المعرفـة ، وعند اول شكايـة من الموت ، داخل المـدن المسحورة ،والفاضلة واليوطوبية .

ومن الصعب التغافل عن تلـك المنمنات العربيـة التي جاءت بهـا الليالـي ، للسندباد الحكيم ، ولقمان ، وهيكار الحكيم ، أو احيقـار السرياني،ذا الاصل البابلي،وحكايات داود وسليمان،وحكايات الشمامسة، والزاهدين ، والراهب الشحاذ ، ثم نسوة بغداد ، وحياة الحريم والبغاء ـ المقدس ـ وذلك المزيج الخليط المشير الى بداية تواجـد الطبقة الوسطى ـ الصغيرة ـ من حرفيين وصنايعية ، من فطاطرية وحلوانية وخبازيـن واسكافية ، وخياطين ، وصيادين ، وصياغ مهرة ، وبحارة ، وحلاقين ـ ثرثارين ـ وذوي عاهات جبارين مثل الاحـدب ـ المحجـب ـ واطفـال

---

(١) سواء أكان السرقة ، او الجنس المفرط والمضاجعة ، فيمـا عدا زوجته الثالثة التي من خصالهـا الخبص والايقاع ، ممـا دفع بـه الى استنكارها وخنقها .

حكماء ، ولصوص ، وصيع وأفاقين .

والقاسم المشترك لكل هذه الحكايات الملغزة ، هو ان القادر يعجز ، بينما العاجز يقدر .

وهو كما يلاحظ نتيجة ــ او حد ثالث ــ لجدلية ، تعلى من شأن الفقراء وبسطاء الناس ، عبر صراعهم الازلي المتفاقم دوما في مواجهة الطرف ــ او الحد ــ الثاني ، للقوى السلطوية المتجبرة القادرة داخل المجتمع .

تنتهي دوما بانتصار البسطاء ، الشعب .

★ ★ ★

الفصل الثامن

الابطال اللصوص والشطار النزقين والمكاريـن

كنت متأففا قليلا، وانا اجمع هذا النص ـ اللص والملك ـ من مصدره الشفاهي، باحدى قرى الفيوم الصغيرة المجدبة، الواقعة قريبا من بحيرة قارون ،الى ان وقع نظري على مصدره المدون حيـن اورده « هردوت » في كتابه الثاني من كتبه التسع، الذي يحوي كل جزء منها احدى عرائس العلوم والفنون من بنات «زيوس» التسع،الذي تحدث فيهم / ابو التاريخ ـ عن الشرق القديم، مسميا كل جزء باسمه العام، كالاحاديث الليبيـة او الروايات الاشورية، ثم حديثه عن مصر. الذي زارها حوالي عـام ٤٤٠ ق.م. ودون فيها هذه الحكاية الشفاهية ـ التي جمعتها عام ١٩٦٣ ـ مع ما جمعه ودونه من احداث ومشاهـدات، ومواد فولكلوريـة واسطورية، كما يشير بهذا في الفصل ٩٩ «ان ما قلته حتى الان هو نتيجة لمشاهداتي الخاصة وارائي وابحاثي الشخصيـة. وسابدأ مـن الان ـ فصاعدا بقص الروايات المصرية، طبقا لما سمعته» .

وهردوت مثله مثل كل المؤرخين والرحالة والمفكرين الذين سبقـوه في المجيء الى مصر والشرق القديم، سواء من سبقونه في المجيء مثـل «هيكاتية الملطي» وفيثاغورس وابقراط وطاليس و وسولون وديموقريطس الابدري وكذلك ديودور الصقلي واسترابون وبلينوس واسطفانـوس

البيزنطي وبلوتارخ وافلاطون والمئات غيرهم، اصبحت كتاباتهم وملاحظاتهم مراجع اساسية، لا غلب المعارف الانسانية، سواء ما يتصل منها بالتاريخ والاجتماع او ما يتصل بالفولكلور والدراسات الاثنولوجية والاساطير المقارنة وعلم ما قبل التاريخ .

وبرغم ان اولئك المؤرخين والرحالة، كانوا دائمي التشكيك في بعضهم البعض ، ففي الوقت الذي شكك فيه هردوت فيمن سبقونه، مثل هكاتية الملطي الذي اتهمه بالجهل ، اتهم بلوتارخ هردوت بانه كان « صديقا للبرابرة »، وذلك لتغلغله داخل الحياة الشعبية في مصر، راصدا ومسجلا ما تقع عليه عيناه النفاذتين، وبصيرته الفاحصة .

وفي تقديري ان العهد الذي قطعه هيردوت على نفسه بعدم الغوص بكامله في قضايا اللاهوت والالهة والاساطير المصرية ، بعكس ما تم مثلا بالنسبة لغيره من المؤرخين والمفكرين الذين زاروا مصر، مثل هكاتية وديودور الصقلي واسترابون وبشكل اخص بلوتارخ ، فقد وجه طاقته الى رصد مظاهر الحياة والمعتقدات، مثل القصص والحكايات وطقوس وشعائر الميلاد والزواج والوفاة، وكذلك التقويم المصري القديم والجاليات والاقليات التي كانت تزدحم بها مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، من فرس ويونانيين وفينقيين وفريجيين واحباش وليبيين وما يتبعهم من عادات وتقاليد ومظاهر معيشية يومية .

لذا راح هيردوت يتحدث عن مهن «الفرازين» الذين يفرزون البهائم، بتحسس ما تحت ذيولها. وعن «التابو» الذي حرم على المصريين عدم اكل راس الحيوان ـ اذ ان الراس مكمن كل خطيئة ـ والخنازير وطرق اخراج احشاء الذبيحة بعد ذبحها، وتحريمهم ذبح اناث الابقار، تقديسا لحيوان ايزيس المقدس، وتحريم التضحيات البشرية من الاطفال الذكور، والبنات على خلاف عادات الاسيويين والساميين والايجيين، وحتى اليونانيين. وكذلك تحدث عن نجاسة الخنازير والكلاب وتحريمهم دخول المعابد بعد الجماع دون اغتسال . « وسائر الشعوب ـ فيما عدا المصريين واليونانيين ـ يجامعون النساء في المعابد، ويدخلونها دون اغتسال» ثم سبقهم عن الكيفية التي كان يتقي بها المصريون القدماء البعوض باستعمال «الناموسيات»، وسبقهم في اكتشاف «باسم اي اله يسمى كل شهر وكل يوم ، وحظ من يولد في يوم كذا وكذا » وكذلك اكتشافهم الاول لعلم «المساحة» وكذلك تحدث عن الطبقات السبع التي كان يتكون منها المجتمع ـ طبقة الكهنة، وطبقة المحاربين، ورعاة البقر، ورعاة الخنازير، والتجار،

والمترجمين، والملاحين» لكن كان اقسى صمته وفاءا لما قطعه على نفسه، بعدم الحديث عن لاهوت مصر، حين تحدث عن تلك «الاستعراضات التي كانت تقدم ليلا، في هذه البحيرة المستديرة، التي تمثل مصيره المحزن (يقصد اوزيريس) التي يسميها المصريون «اسرارا» ومع انني عليم بتفاصيل ما يدور بكل منها الا انني التزم الصمت بصددها».

واحتفالات عيد قيامة الاله المزق اوزيريس، وما يطابقه من الهة الجوع والاخصاب، على طول الشرق الاوسط، ادونيس ـ تموز ـ واتيس وديونسيوس زاجريوس» في جزر بحر ايجه، وديونسيوس عند الاغريق قائلاً:

« ويكاد يكون احتفال المصريين بعيد «ديونسيوس» ـ يعني اوزيريس ـ ان يشبه من جميع الوجوه احتفال اليونانيين به، فيما عدا الرقص. وقد ابتكروا بدلا من المذاكير، تماثيل طول التمثال منها ذراع، يمكن تحريكها بواسطة خيط، تطوف بها النساء القرى، وعضو التذكير بها متحرك ولا يقل كثيرا عن باقي الجسم، ويتقدم الموكب الزمار، تتبعه النساء اللاتي تتغنى بديونسيوس، اما عن السبب الذي من اجله كان عضو التذكير كبير الحجم، وكان يتحرك دون سائر اجزاء الجسم، فلذلك قصة مقدسة يروونها».

ويصمت هردوت عن الخوض في سرد «القصة» التي هي وكما يقول عالمنا د. احمد بدوي، في شرحه وتعليقاته الموسوعية على كتاب هردوت «انها اسطورة ايزيس واوزيريس، وتحريك العضو المذكور من التمثال دون سائر الاعضاء، فقد يكون المقصود منه الرمز الى بعث «ازوريس» والعثور على العضو ثم الى عودة الحياة بين يدي النهر».

وسلامة تفسير الدكتور احمد بدوي، صحيحة لان هيردوت قدم الى مصر في ايام الفيضان، ويؤيد فريزر هذا الراي في الجزء الرابع من المجلد الثاني في موسوعته الذهبية «الغصن الذهبي» البالغة اربعة عشر جزءا، بقوله في دراسته الرائدة عن الالهة الفصلية، الهة الزرع والاخضرار التي تموت وتصحو بجدب وقحط الماء والنبات «والتي كانت منتشرة بكثرة في شرق البحر الابيض المتوسط، تحت اسم اوزيريس، تموز. ادونيس واتيس وديونسيوس لشعوب مصر وغرب اسيا».

وقبل ان نتوه في سرد تفاصيل هذه الجزئية عن هجرات التراث والاساطير، نعود الى موضوعنا الاساسي، وهو حادث عثوري ـ عرضا ـ على حدوتة شفاهية، ذكرها هردوت بنصها، في الفصل ١٢١ من كتابه،

ناسبا وقائعها الى احد ملوك مصر اسماه «رامبسينيتوس» يرجح د.احمد بدوي انه رمسيس الثالث ١٢٠٠–١١٦٨ ق.م «اول ملوك الاسرة العشرين ويصف هردوت هذا الملك الذي هو موضوع الحكاية في بداية سرده لها بقوله :

«وقالوا ان «رامبسينيتوس» قد امتلك من الفضة ثروة طائلة، لم يستطع ملك ممن خلفوه، فيما بعد، ان يقتني اكثر من هذه الثروة او ان يدانيه فيها » .

ويعلق د. بدوي على هذا بقوله : «والشيء الذي لا شك فيه هو ان رمسيس الثالث، كان ملكا غنيا واسع الغنى.. اعطى فاجزل عطاءا لم نسمع بمثله في تاريخ الفراعين من اسلافه وخلفائه» .

وفي تقديري ان لشخصية ذلك الملك تأثير كبير لجانب من حواديتنا او حكاياتنا الشعبية. ونظرا لان هذه الحكاية التي قمت بتدوين نصها الشفاهي عام ١٩٦٣، والتي دونها هردوت في القرن الخامس، على اعتبار انها وقعت لذلك الملك ـ رمسيس الثالث ـ الذي حكم مصر لمدة ٣٢ عاما في القرن الثاني عشر ق.م، يصبح عمر هذه الحدوتة حوالي ٣٢ قرنا من الزمان ، ونظرا لانها حكاية يمكن تصنيفها تحت ما يعرف في الحكايات الشعبية ، باسم حكايات «المكارين» او «الشطار» ،وهي حكايات شائعة في فولكلور كل العالم، فكثيرا ما كانت تصادفني «موتيفاتها» او بعض افكارها الرئيسية التي تتصل بنمطها العام الثابت، مهاجرة تائهة من حكاية لاخرى في حواديتنا المصرية .

والحكاية المدونة عند هردوت ، يمكن تلخيصها ، في ان بناء خزنة الملك التي «تمتد احدى حوائطها الى الجدار الخارجي من القصر» صنع حيلة في بنائها، واطلع ولديه عليها قبل ان يموت «حرصا منه في ان يعيشا في رخاء»، وبعد ان مات وتناوب الولدان سرقتها، الى ان اكتشف الملك النقص في خزائنه، ونصب فخا، اطبق على احدهما مما اضطر الثاني لان يقطع راس اخيه، مخافة ان ينكشف امره هو ايضا، ودخل بها على امه يحمل رأس اخيه، وتتوالى الحكاية بعد ذلك لتكشف عن مكر ودهاء والاعيب كلا من الملك واللص، تنتهي بانتصار اللص على الملك، واقرار الملك بذكائه وبراعته وكان ان زوجه ابنته .

اما حكايتنا الشفاهية ، فانها تستبدل بالاخين اللصين، ولد وخاله ـ شقيق امه ـ فبدلا من ان يقطع لص هردوت «الشاطر» راس اخيه، يقطع «حرامي» ـ اليوم ـ النص الشفاهي رأس خاله .

فالاختلافات ضنينة بين النصين، وكان لا بد من حدوثها نظرا للبعد الفاصل الزمني بين النص الشفاهي،ومصدره المدون،بالاضافة الى الزمن الذي وقعت فيه الحكاية وهو ما يفصلها عن نص اليوم الشفاهي ٣٢٠٠ سنة ، كما ذكرنا .

وهنا لا بد من مهلة بسيطة لتوضيح بعض الملاحظات، اهمها الاعتذار عن الاستطراد السالف، عن هردوت وغوصه في حياتنا الشعبية، بما اوصله منذ ٢٥ قرنا،الى تدوين هذا النص الحي المتواتر الى ايامنا، وكأنه جامع فولكلور يقظ ، يعرف ويدرك ـ بصائب فكره المستقبلي ، اهمية النص الشفهي الجماعي الفولكلوري ، الذي سنتبين مدى صداه ، وتلك هي اهمية الجمع الميداني للنصوص الشعبية .

فالحكاية التي دونها هردوت،مع ما دونه من تأريخيات ومظاهر حياة في رحلتهالقصيرة التي لا تتعدى اربعة اشهر ،طاف فيها اقاليم مصر،ومنها اقليم الفيوم او الاقليم الارسنويتي وتحدث عن معبوده المحلي الاله التمساح ـ سبك ـ كما زار قصر اللابيرنت (١) او التيه، ووصف بحيرة قارون وبحر يوسف .

الا انه لم يذكر موطن جمعه لهذه الحكاية التي نحن بصددها والتي ـ صادفني ـ نصها الشفهي فجمعته من الفيوم عام ١٩٦٣ ، وظلت تشغلني الى حد كبير مؤرق . لكن الملفت ان الاختلافات، بين بعض موتيفات النص المدون القديم، ونصها الشفاهي المعاش على ايامنا ، تجيء طبيعية ، شبه متفق عليها، وبعضها الاخر خاضع لهجرات داخلية ـ داخل نمط او انموذج الحكاية الواحدة ـ .

كما ان بعضها الثالث، دخيل على كلا النصين من الخارج، نتيجة للاحتكاكات المتوالية التي تعتري الترا ثوتحدثها الاتصالات والتبادلات البشرية، من قرية لاخرى ومن قطر لاخر بالنسبة للحكايات الشعبية والفوكلور بشكل عام .

ويتمثل هذا الاختلاف الدخيل الثالث بشكل واضح، في الخدعة الاخيرة التي اتبعها الملك مع اللص للايقاع به وهي اقدامه على وضع ابنته في «ماخور، وامرها ان تستقبل جميع من يفدون اليها على السواء» على ان يفوز بمضاجعتها الزائر الذي يحكي لها «ابرع واخبث ما فعل في حياته» .

---

(١) احد اعاجيب الدنيا، حيث كان يحوي ٣ الاف غرفة .

فهذه الجزئية قد تكون دخيلة على النصين، سواء اكان مصدرها الهلينيين من يونانيين وايجيين الذين استقى هردوت منهم معلوماته ــ او التراجمة من المصريين والذين كانوا يقيمون بكثرة في مصر، جاء بهم قمبيز ــ الفارسي ــ اليها قبل مجيء هردوت باقل من قرن .

ويقول هردوت في هذا، انه عندما جهز قمبيز حملة على مصر «اخذ من شعوب مملكته اليونانيين الذين كانوا تحت امرته» .

ونفس هذه الفكرة، عاد هردوت ونسبها الى الملك خوفر « ولقد بلغ كيوبس ــ فيما يقولون ــ احط درجات الرذيلة ، حتى انه لحاجته الى المال ــ وضع ابنته هو في ماخور وامرها ان تحصل على مبلغ معين لم يذكروا الى مقداره» .

وليس الهدف من استقصاء هذه الفكرة ــ او الجزئية ــ هو الدفاع الخلقي عن مصر القديمة وملوكها، بقدر ما تكمن الرغبة في طرح المقارنة بين الفكرتين او الخدعتين، فالنص الشفاهي الذي جمعته يستبدل فكرة وضع الملك لابنته في ماخور، باطلاقه لسبعة ــ شاهر الذراع ــ الذي يعرف مكان الجثث ،« والملك افتكر،بعث جاب السبع ، والسبع رفع ــ شفتوره ــ فوق وشفتوره تحت، وضرب بكفه راح على سراية محمد الحرامي، الذي عاجله بضربة واحدة واغلق عليه الباب، فالسبع مات ، ما داش منطق » والضربة الواحدة القاتلة التي لا تتكرر ــ ضربة الرجال ما تتناش ــ هي تضمينه اسطورية، تصادفنا كثيرا في سير الابطال وملاحمهم ــ وكذلك الحكايات الشعبية .

ففي تقديري ان كلا الفكرتين دخيل على الحكاية الشعبية سواء استعانة الملك في نص هردوت المدون، بابنته ووضعها في ماخور، لمعرفة سر اللص، او بديلتها في النص الشفاهي، وهي استعانة الملك بالسبع او الاسد، الذي «يضرب بكفه» ويعرف مكان الجثث والصفات التي يضيفها النص الشفهي على هذا السبع او الاسد، ومنها انه «يضرب بكفه» تقودنا الى انه ليس اسدا بقدر ما هو اله،انه(١)«الاسد ثابت الذراع» الذي ما تزال تطالعنا وحداته الزخرفية، كأهم وحدة تشكيلية شعبية، سواء في التصوير الحائطي الشعبي، او الوشم، حين يوشمه الرجال على صدورهم وسواعدهم. والاسد ثابت الذراع، احد القاب الالهة الشمسيين

(1) The lion With the Steady hand .

مثل ديونسيوس عند اليونانيين،و«ليولياو» بطل الاسطورة الرومانسية (١) الايرلندية، والذي يتطابق مع اله الشمس الاشوري تموز، وبقية الالهة الشمسيين، مثل جلجاميش في الملحمة البابلية الاشورية، وشمشون،اله الشمس الفلسطيني الذي استعارته الاساطير الدينية العبرية، واتخذ في النهاية طابع الابطال الاسطوريين الاسرائيليين في فترة حكم القضاة،وكذلك هرقل في الاساطير البريطانية القديمة .

ومن اسم هذا الاله الاسد «Lion» اشتقت اسماء الكثير من المدن الاوروبية مثل «لاون وليون وليدن ، وليونس الخ .

وربما كان اصل هذا الاله، انه كان الها سومريا، توارثه البابليون والاشوريون منذ الالف الثالث قبل الميلاد، وتنسب اليه الاساطير الايرلندية والانجليزية انه «اول من استعمل الحصان في المعارك الحربية».

ويخيل الى ان كلا «الموتيفين» او الجزئيتين، سواء ـ وضع الملك لابنته في ماخور لمعرفة سر اللص عند هردوت، واستعانته بالاسد لمعرفة السر في النص الشفاهي يكمل كلا منهما الاخر، وبمعنى اخر انهما كانا في الاصل تضمينه اسطورية مترابطة .

فالتداخلات والتغيرات بين الاسطورة، والحكاية الشعبية، او الحكايات الشعائرية دائم الاستمرار، وبعض الحكايات الشعبية، كما لاحظ الاخوان جريم، (٢) ما هي الا اساطير ممزقة» ، او «بقايا اساطير» وكثير من الاساطير، انتفعت بموتيفات الحكايات الشعبية الشائعة ورفعتها الى عوالمها الفوقية، في تأليهها للوقائع البشرية .

ويرى «سير.ج.ل.جوم» ، انه «عندما اصبح الشطار والمكارين بشريين، بدلا من كونهم في اصل مقدسين،وعندما اصبح البطل انسانا، بدلا من كونه الاها، اصبحت الاسطورة احدوثة» .

لذا فان المطابقة بين الجزئيتين ـ الموتيفين ـ ، رغم الفاصل الزمني بينهما، يحيلنا الى خصيصة شبه موحدة، تتسم بها كل الالهة الشمسيين، اولئك الذين تطاردهم نساء او الهات ليتعرفن اسرارهم، وبعد ذلك يفتكن بهم، مثل «اناث» في الاساطير السومرية (٣) اللاسامية ومطاردتها للاله

---

(١) وهو اله شمس من اصل فلسطيني ، هاجر الى انجلترا وايرلنده منذ مطلع الالف الثاني ق.م.

(٢) اشرنا الى هذا باستفاضة اكثر من مقدمة ـ ١ ـ من هذا الكتاب .

(٣) يلاحظ كيف تطل عناصر التراث السومري كاقدم منابع تراثنا الفولكلوري العربي، على الدوام .

البطل ، «انليل» او «ليل» وهي الاساطير التي توارثها بعد ذلك الساميين، ومنها اسطورة الالهة البغي «عشتروت» التي كانت تحيل عشاقها عقب مضاجعتهم الى حيوانات، والتي خدعت البطل الاسطوري جلجاميش في ملحمته الشهيرة، ، وخداع دليلة لشمشون لمعرفة سر قوته وكانت النتيجة ان استجاب لالحاحها المتكرر عندما «تاقت نفسه الى الموت» كما يقول النص المدون في سفر قضاة، فاصبح العوبة في يدها، على الرغم من تعارض تصرفه هذا مع المسار الاجتماعي القبلي، الذي اباح لدليلة انتزاعه لقبيلتها الفلسطينية بما يتعارض قبائليا ،حيث العادة ان تنتقل الزوجة الى قبيلة الرجل ـ ولو بزواج ـ المضاجعة ، وليس العكس .

واسم شمشون معناه ابن اله ،و«دان» هو اسم قبيلته « اشتقاق من اله الشمس الاشوري شماش» .

واذا ما عدنا الى حكايتنا الشفاهية لوجدنا ان قتل الشاطر محمد للاسد بضربة واحدة من سيفه، وطبخ لحمه ، وربما اكله كما بدا في حديثه مع جاسوس الملك ـ ثم مطاردة ابنة الملك له لمعرفة ـ السر ـ امكن لنا في النهاية مطابقة هذه الافعال، مع كل من الالهين الشمسيين، شمشون وهرقل، فكلاهما قتل الاسد، وكلاهما طاردته امرأة لمعرفة سره، دليلة مع شمشون ، و« ديانييرا » نحو هرقل في اسطورة الكلاسيكية ، وكل متنوعاتها ومشتقاتها في الغرب .

ويلاحظ ان هذه الحكاية النمطية، شغلت عديد من الدارسين، نظرا لانها هي ذاتها الحكاية التي اصبحت فيما بعد قصة دونت في القرون الوسطى، باسم علي الزيبق (١) ، وكان لعالم الساميات نولدكه ، سبق التوصل الى انها هي بذاتها حكاية رامبسينيت، التي جمعها هردوت .

واوضحت د. سهير القلماوي ان بعض متنوعاتها واشكالها دخيلة على الف ليلة وليلة .

اخيرا فان احتفاء حكايات مختلف الشعوب ، بحيل اللصوص الفقراء الذين يدوخون الملوك والحكام، كتلك التي عثر عليها منذ القرن الرابع عشر في ايطاليا وقبرص وسيبيريا ، كما عثر على اقدم انماطها في الكلاسيكيات الهندية .

---

(١) وفق فاروق خورشيد ، في اعادة صياغتها الادبية بما حفظ لها اصالة قوامها .

ويلاحظ ان حكايات اللصوص والمكارين والخطافين، تكثر وتزدهر في اواخر كل احقاب ــ حضارية ، « حين تسرع تلك الحضارة الى الافول ويؤكد هذا الرأي ما ذكره هردوت ذاته، من ان حكايته وقعت في مصر اثناء الدولة الوسطى، اي خلال الفترة التاريخية المتقلبة، التي اضمحلت فيها الدولة ــ القديمة ــ المركزية .

كذلك يلاحظ ان حكايات اللصوص والحرامية والافاقين تشكل الجانب الاوضح في الف ليلة وليلة، ويرجعها شبنجلر الى حضارة السحر، «حين كان خلفاء بغداد والقاهرة يحثون الخطى نحو انحلال دولتهم» .

وتوجد الاف مؤلفة من مثل هذه الحكايات في فولكلور شعوب البحر الابيض بعامة، ومصر بخاصة. وسأورد هنا مجموعة نماذج لمثل هذه الحكايات المتصلة باللصوص والمكارين واخلاقياتهم ، ونزقهم وطرائفهم ، في النصوص ــ الشفهية ــ التي قمت بجمعها على مدى سنوات طويلة، ويرد نشرها في هذا الكتاب .

★ ★ ★

الفصل التاسع

تحولات ابطال الحكايات الخرافية، وسخطهم الى حيوانات

اما فيما يتصل بتحولات ابطال الحكايات الى حيوانات وطيور وهوام في معظم الحكايات الخرافية عن طريق السحر والتنجيم ، واهم الامثلة هنا اوديت وفتياتها الفاتنات في «بحيرة البجع» التي اقام عليها تشايكوفسكي البالية الشهير .

ثم الهرة الجميلة التي تجمع الفاكهةوالزهور من حديقة الامير بالنهار، وما ان تخلع ملابسها لتستحم في بحيرة البستان ليلا، حتى تصبح فتاة جميلة، في احدى الحكايات السورية .

وتعرف هذه الخاصية المترددة بكثرة في خرافاتنا العربية ـ خاصة السحرية ـ بالسخط او المساخيط وهي مقدرة التحولات لشخوص الحكايات الى حيوانات. وبالطبع فهي خاصية ليست بقاصرة على تراثنا الفولكلوري العربي بل هي ملازمة للسحر كملمح عالمي، او هو قاسم مشترك لموروثات العوالم القديمة في عمومها، اقدمها بالطبع، الانماط ـ البردية ـ المصرية .

وتتبدى هذه الجزئية اكثر استغراقا في القدرية في احدى الحكايات السودانية من كردفان ـ حين يطلب الملك من ابنائه الثلاثة ، ان يغرز كل

منهم رمحه امام باب الفتاة التي يبغي الزواج بها، وهنا يلقي الابن الاصغر برمحه في الخلاء، لينغرز في جذع احدى الاشجار التي تجلس على قمتها قردة، يعرف انها قدره ونصيبه فيتزوجها، وليلة العرس تصبح فتاة جملية جدا ، لدرجة ان الاب ذاته عشقها وقرر ان يقتل ابنه، لكي يستحوذ عليها .

ولعلنا نتذكر حكاية«القرد الكاتب» في الليالي التي تزخر بهذه النماذج المتناسخة والمسحورة والمتحولة .

وتزخر الحكايات السورية واللبنانية والمصرية بهذه التحولات مثل «الكلبان المسحوران»، والاسماك التي تتحول بمجرد اصطيادها الى زوجات جميلات يحققن رغبات ازواجهن من الكادحين، ما بين صيادين، ورعاة بهائم، واناس او ابطال، لا تخبرنا حكاياهم عن اعمالهم ولنقل اشغالهم وكارهم، لكنهم عادة ما يصمدون امام محكات امتحان زوجاتهن من غير الانس لهم .

اما الزوجات ــ فكما هو متفق عليه ــ يملكن قدرات على التحولات لعجائز وبنات بنوت وطيور واسماك، وحيات تسعى وجمادات او اشياء.

وملاحظتي بعامة انها في معظم حالاتها حكايات مسمومة من حيث غاياتها الوعظية الاجتماعية او الطبقية التي عادة ما تتفق عند مقولة « ان من يشبع ينطح» (١) .

ففي كل النصوص المصرية التي توصلت الى جمعها، عادة ما يكون بطل الحكاية فقيرا معدما،لا يمتلك ابعد من طاقة عمله«على دراعه» ، وما ان يرمي بشبكته في البحر او يضرب بفأسه وجه الارض، حتى يعثر في ثالث ضرباته على شيء ثقيل، قد تكون سمكة، او قطعة خشب، او حجر، وما ان يحملها مستاءا ملقيا بها في منزله حتى تتبدى فتاة جميلة شهية تبدأ في مساومته، والاتفاق معه على الاقتران والزواج، او العشق والمخاواة ــ مع ملاحظة ان هذا النمط، وما يصاحبه من حكايات وخزعبلات، وهو مخاواة الانسى البشري لجنية من تحت الارض ، خاصة بالنسبة للعزاب، هو انموذج شائع على طول ريف مصر حتى ايامنا هذه وكذا معظم مجتمعاتنا العربية، ينتشر خاصة بين الدراويش ومجتمعات الفلاحين والرعاة ، والحرفيين، ومعظم خدم المساجد والاضرحة، بل وحتى صغار الموظفين،

---

(١) والامر لا يبعد كثيرا عن المقولة المعروفة ذات الجذور الفارسية «اتق شر من احسنت اليه » .

من مدرسين وكتبة .
وما ان يقترنا ــ الانسى والجنية ، وكذا يتحول البطل من الفقر والعوز الى الثراء والعز والرغد، حتى تبدأ هي ــ الجنية ــ ، تضع امتحانها العسير،الذي عادة ما يتعثر فيه البطل ــ المتبدل (١) والمتحول بدوره ،من حيث كان ،من طبقة الى اخرى ــ وهكذا تلفظه الجنية في نهاية الحكاية الخرافية، او هو يصحو من اغفاءته ليجد نفسه حيث كان، فقيرا معدما نهبا للندم،حيث انه لم يصن النعمة،ويفتقد الى الوفاء (٢) ، نتيجة لما صعد اليه من غنى وجاه .

بل كثيرا ما تعرج بعض التنويعات عن نمط الحكاية الخرافية التي على هذا النحو، الى الاستطراد الشديد المستهدف تأكيد جزئيات المقولة الاجتماعية المفضية الى الوصول بالمأثور الى اقصى مداه الوعظي التعليمي الطبقي .

فقد يلتقي بطل الحكاية الكادح منذ خروجه مبكرا الى عمله اليومي، براعي ــ خرافي ــ يرعى بهائمه في مكان صحراوي مجدب ، بينما الزرع والكلأ يملأ الارض من حوله ، فيتوقف سائلا :

ــ لماذا ترعى في الجدب ، وها هي المراعي والزرع الاخضر .

وفي البداية ينهره الراعي الحكيم مرات، الى ان يفضي اليه، باحد اوجه ذات المأثور او النصيحة ــ المقدسة ــ قائلا بأن :

«من يشبع ينطح» . بمعنى انه يتعمد ان لا يشبع غنمه او مواشيه، حتى لا تخرج ــ طبعا ــ عن طاعته .

ولعلها بالطبع نفس التنويعة للمأثور العربي المعروف عن « جوع كلبك يتبعك » .

كما يلاحظ ان ذات المأثور، قد يواصل سريانه وتطابقه مع كل ممارسات التربية والحكم،ومع المراة بازاء الرجل ، عن قص جناح المراة او الزوجة او العشيقة ــ للرجل اولا بأول ، من جانب مقابل .

وعادة ما يصل التجانس الى حد التطابق بين الحكايات المصرية والسودانية بالنسبة لهذا النمط من الحكايات التي جوهرها التحولات، من سحرية لطبقية اجتماعية ، سوى ان السودانية اكثر خشونة، واكثر تعاملا مع الحيوانات وزواحف الارض، والايماء الى مراحل اكثر بهيمية ــ

(١) مع ملاحظة ان مثل هذا الصعود والتحول الطبقي، لا يخلو من مسحة سحرية .

(٢) اي الوفاء للطبقة الجديدة التي صعد اليها .

بالمعنى الانثروبولجي ـ . من ذلك الاتصالات البشرية الحيوانية، والاشادة بفضائل الحيوان التي كثيرا ما يفتقدها الانسان . وان كانت هذه الخصيصة اشمل، في كل فولكلور العالم، خاصة الهندي الاري، كما سيتضح.

وكذلك بالنسبة لاقتران الانسى بالجنية ، بشرط الالتزام بتابو محدد، حتى اذا ما اخل احد الطرفان بهذا العهد او الوعـــد، انحل الزواج او المعاشرة، وعاد كلا منهما الى عالمه ونوعيته ووضعه الاجتماعي ، حيث كان.

فكما اوضحنا عادة ما تقوم السمكة، او عروسة البحر، في التنويعات المصرية والشامية، بدور اختبار طويل لعشيقها او زوجها، ينتهي فـــي النصوص المصرية بنهاية مشئومة محققة ، على غير ما درجت عليه الحكاية الخرافية ـ خاصة السودانية ـ في عمومها، من تأكيد صيغ التفـــاؤل والختام البهيج .

فالحكاية المصرية على عكس نظيرتها السودانية، الاقرب من حيـث جزئية اقتران البطل بزوجة قردة، الى ما يقرب بها الى الطوطمية، منهـا للحكاية الخرافية ، بالاضافة الى السمة الغالبة للنهاية ـ الســودانية ـ السعيـدة .

وقبل الغوص في المقارنات ـ التشريحية ـ العربية، نعود الى مدخلنا الالمامي العام لحكايا التحولات هذه .

فمثل هذه الحكايات الخرافية التــي تهدف نهايتـهـا الوعظية ـ التعليمية ـ الى اثبات ان الحيوانات والزواحف اكثر اخلاصا وصدقا من الانسان ، سواء من حيث طرح الصارع ـ والاختبار ـ بيــن البطل الانسى ونقيضته الجنية، او بين الانسان والحيوان والزواحف والاشجار التــي يقف بعضها في صف البطل، او العكس اي ان تضاعف عراقيله. وهــي الانماط التي وردت بكثرة في المصادر الهندية الاسبق من البوذية .

فكثيرا ما يصادف الاله بوذا نفسه مجموعة حيوانات وزواحـف ـ فأر وحية وببغان ـ محبوسين او معلقين فـــي افرع شجرة، فيقـــوم بوذا بانقاذهم، وهنا كافأته هذه الحيوانات ، بان خلعت عليه ثروتهـــا وكنوزها، وقدراتها الخارقة، لكنه حين يقدم على انقاذ ابن احـد الملوك ـ انسان ـ حتى يحقد عليه لانقاذه لهذه الحيوانات والحشرات من قبله، وهنا ما ان يسترد ابن الملك ـ الانس ـ لمنقذ عرشه ، حتــى يأمر بضرب ـ الاله ـ الناسك بالسياط، لحين تبدى ـ او تحول بوذا ـ الناسك من جديد الى هيئته كاله، ينزل بدوره العقاب بابن الملك ـ الانسان ـ الخائن، فــي حين يكافىء هذه الحيوانات المخلصة ، التي حفظت لــه صنيعه وردت اليه

جميله ومعروفه .

ولعل ما اود ايصاله، فيما يتصل بالتحولات التي تعتري الابطال داخل الحكاية الخرافية هو انه ملمح عالمي اقرب الى المنابع والاصول الارية .

فبرغم ان مثل هذه التقمصات والتحولات مغرقة في القدم منذ قصة باتا ــ الاخوين ــ التي دونت ــ فقط ــ في الدولة الوسطى، ومن المرجح انها ترجع الى ــ نهاية ــ الدولة القديمة في مصر الفرعونية .

كما وردت هذه التحولات في معظم النصوص ــ العشتروتية السامية، خاصة معظم تنويعات نصوص ملحمة جلجاميش، الذي رفض الاستجابة لمطاردة العشتروت له لكي يبادلها الحب، لانها سبق ان نكلت بعشاقها الستة، فما يزال زوجها الاول الشاب الجميل «تموز» يبكي سوء طالعه، اما عشيقها الثاني الراعي، فقد اصبح طائرا مكسور الجناحين، يبكي (١) عبر الغابات «كابي» اي واجناحاه . وتحول العشيق الثالث بعد مسخه الى اسد مطارد . اما الرابع فمسخ في صورة حصان ، يضربه الناس بالسياط فيركض سبع ساعات مضاعفة، ومن خصائص هذا العشيق الحصان ، ان لحافره فيالوجدان الشعبي ــحدوة الحصان ــ قدرة اتقاء الحسد ، واثارة المياه ، اما العشيق الخامس فتحول الى ذئب مطارد من الرعاة والكلاب، وكذلك تحول عشيقها السادس من بستاني جميل، الى طائر جارح .

ويبدو ان هذه التحولات، كانت اقرب الى ان تكون ممارسات شعائرية ، فهي عادة ــ كما يقول كراب ــ ما يتوفر لها كخرافة شرط جوهري واحد ، هو ان تكون حكايات متقنةجيدةممتعة،منطقية في بنائها، تحمل الى الناس غاية اخلاقية، بصرف النظر عن محلية هذه الغاية .

فاذا ما كانت هذه الغاية ــ مثلا ــ عدمية او نهلستية، تصب اللعنة على سقوط ــ الانسان وفساد طبيعته بازاء اخلاص الحيوانات، وزواحف الارض، في الحكايات البوذية الارية، فهي في حكاياتنا السامية العربية ، والمصرية بشكل اخص، تضيف بعدا اجتماعيا .

ومن هنا فالرحلة ــ العبورية ــ الاجتماعية للبطل الخاسر او المحكوم عليه بالسقوط ومهانة الفاقة والذل، بأزاء هذه المقولة او المأثورة الشعائرية

---

(١) ابدع شعراؤنا العرب، بدر شاكر السياب ، عبد الوهاب البياتي ، ومعين بسيسو، في التعبير الاعذب في استيحاء مخزون هذا التراث الاسطوري العربي .

العربية : « ان من يشبع ينطح » او « جوع كلبك يتبعك » ، والكلب هنا مرادف للانسان البسيط المهان .

وهو مأثور ـ شريف ـ له مرادفاته، ولنقل توالده الذاتي داخل تراث السلف ـ الصالح ـ سواء في حالة استبدال «كلبك» بجملك او ثورك في المثل المعروف « اللي يشبع ينطح » وهي فكرة او جزئية تتردد بكثرة في حكاياتنا ـ الخرافية ـ المصرية ، والعربية ، بعامة كما قلنا ، حيث يستبدل الكلب بالرعية والشعب .

ومن تكرار مثل هذه المقولة باساليب واغراض وابتكارات مختلفة ، سواء من حيث الاستعارات الحيوانية ـ الطوطمية ـ او سواء اكانت بشرية ـ انسية ـ لها ايضا منظورها الطبقي، كأن يأخذ العبد او الخادم والاجير عامة، مكان «الكلب» والجمل والثور، ولكل حيوان منهم بالتالي دلالته ـ الانثروبولوجية ـ وهو ما ليس موضوعناهنا،سوى ان الغرض هو في الوصول الى ان تكرار هذه المأثورة العربية داخل رقعة الحكايات العربية ، يؤكد **دورها الطبقي الاستراتيجي**، فلا بد انها كان لها دورها في البنية الاجتماعية للكيانات العربية، على مختلف ما يتعاقب عليها من انماط قهر وانسلاب سواء في المجتمعات الرعوية «اصحاب الوبر» او الزراعية «الحضرية» .

فهي مثلا في ـحكاياتـ مصر والسودان والجزيرة العربية، اكثر حدة ومباشرة عنها في سوريا وفلسطين ، وما بين النهرين بعامة ، كما لاحظت في انماط الحكايات التي من هذا النوع .

ففي حكاية «نية الملك» الذي كما هو مالوف يتنكر فيها الملك ووزيره ويجوبا رعيته ليلا متنكران. وما ان يستضيفهما رجل موسر في حديقته المزهرة، ويقدم لهما رمانا شهيا (مع ملاحظة ان الرمان هو الفاكهة المقدسة لادونيس وتموز الاله المزق لسوريا العليا وما بين النهرين بعامة) فرغم ان المضيف يشيد بنية الملك الطيبة لشعبه امام الملك المتنكر ووزيره ، الا ان الملك (١) يضمر حقدا للمضيف الموسر، ويصدر امره بزيادة الضرائب المفروضة على الشعب الذي ازدادت الاموال في صناديقه تحقيقا بالطبع لذات المقولة ، «من يشبع ينطح» .

وتمر سنوات خمس يزور بعدها الملك ووزيره الرجل الغني مرة اخرى، ويطلبان رمانا، فيقدمه لهما ضعيفا ضامرا مع رأي المضيف في

---

(١) اتصور ان ما دفع الملك الى ان يضمر حقدا، هو لا شعوريا، تملكه واحساسه بان من يشبع ينطح» .

الملك الذي تغيرت نيته نحو شعبه،وبالتالي تغيرت وتبدلت أرزاق شعبه.

وفي هذا النموذج ـ السوري ـ الاكثر ايجابية، يستعيد الملك نفسه ويراجعها فيرفع الضرائب والاثقال عن شعبه .

وفي حكاية ـ فرفشة ـ سورية اخرى ، اجدني اميل الى اعتبارها محلية، عن الاربعين درويشا وزعيمهم الفني من الحشاشين الذين هالهم ان الحالة في المملكة«فلتانة»ولا ضابط ولا رابط للاسعار والبيع والشراء ، ففرضوا اتاوة على الموتى، حتى ابن السلطان اخذوا منه «رسم فلتانة مائة جنيه»، وعندما استدعاهم السلطان، اخبروه بانهم عندما وجدوا ، اهتزاز الاسعار وانفلاتها، فقرروا عمل رسم فلتانه على الموتى، وفي النهاية ضحك السلطان ووظفهم مراقبين للاسعار لاصلاح حال الناس .

وهو انموذج نادر للسخرية من ـ التسعيرة الودية ـ كما يتضح.

وكما هو معروف فهناك اتفاق، على معادات ـ العرب ـ الساميون ـ من عرب وعبريين ـ لفراعنة مصر، ونماردة بابل وعمالقة الشام وفلسطين ـ وما بين النهرين عامة ـ ومحاربتهم واعتبارهم خارج النسل السامي، والسخرية منهم . كما يتضح في حكاية سورية، عن فرعون الذي كان يقتل عجائزهم . فدبر له العجائز ـ مسخرة ـ اناس يفركون ايديهم ـ الفارغة ـ في الهواء كمن يفركون ـ فريكا ـ او قمحا اخضرا في كفوفهم ويسفونه، وعند ما يسأل فرعون ـ او فرع عون ـ احدهم اجابه بطل الحكاية «اننا نحصد، ومما نحصد نأكل» .

وطبيعي ان يحس الملك بان وراء هذا الملعوب «عجوزا حكيما» فيطرح امامه بدوره لغز ان يأتيه غدا «راكب وراجل ومنتعل وحاف» واذا فشل فسيقتله هو وجده الذي يحل له اللغز على النحو التالي : بان يذهب للملك بحذاء لا نعل له، وحمار صغير ـ اتان ـ (١) يركبه ماشيا .

ولا تخرج الحكاية المصرية، عن جذورها ـ السائدة ـ السامية ، في عدائها لفراعين مصر ونماردة بابل، وعمالقة الشام وفلسطين، المعروفين بالعماليق، او بني عمليق .

وان كانت الحكايات المصرية والكثير من النماذج اللبنانية والسورية تفرق وتعزل الى اقصى نقيض بين الفرعون والملك «ولا ملك الا الله» او

---

(١) وحكايات الاتان وفابيولاتها، تعد ملمح اساسي داخل رقعة الحكايات الاردنية الفلسطينية، وعنهما تواترت الى التراث العبري، عن بلعام ـ وملاعيب ـ اتانة ، التي تنطق بالحكمة، مواصلة تواترها حتى «حمار الحكيم» .

الاميـــر .

فبينما الفرعون طاغية، يتوحد بالشر والحمق والبين والشؤم والنجاسة فان ملمح الملك هو ظل الله .

وتتطابق هذه الجزئية المصرية في معاداة فراعنة مصر، خاصة الثلاثة الذين عاصروا التواجد العبري في مصر، وهم فرعون ابراهيم ـ مختطف سارة ـ وفرعون يوسف الذي اصابته لعنة السنوات السبع العجـاف، وفرعون موسى ، الذي يفرد بطون الحوامل ويقتل الاطفال، بمـا يطابـق بينها وبين انماطها في العراق، ووادي الرافدين بعامة، في عداء النمـاردة وهم ستة (١) نفر، الاول نمرود بن كنعان بن حام بن نوح وهو الذي ملـك اندنيا، وهو صاحب ابراهيم، والثاني نمرود بن كوش بن كنعان بن حـام ابن نوح، وهو صاحب النور وامه من نسل اخنوخ» ، اي ادريس .

واخيرا فما يهمنا هنا هو ان في تحولات ابطال الحكايات الخرافية، تبعا لمفهوم شعائر الانتقالات، كما اشار اليها «فان جنيب»، ما يشكل ثراءا رائعا ، يسانده الكثير من المهارات والذكاء ، خاصة في تصدي الوجدان الشعبي ـ الفولكلوري ـ العربي للقوى التسلطية، من فراعين طغاة، وملوك وحكـام الهة، يفتقدون الى الحكمة والذكاء والمهارات التي تفيض بهـــا قـدرات بسطاء الناس العاملين .

★★★

---

(١) كتاب المحبر ان حبيب المتوفي ٢٤٥ ـ مطبعـة جمعيـة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد عام ١٩٤٢ ص ٤٦٦ .

الفصل العاشر

علاقات قرابية وزواج

اجدني حريص في تناولي لتراثنا العربي ـ السامي ـ في كل مرة من مدخله ـ الاتصالي ـ الاسري القرابي القبلي .

وهو كما سبق ايضاحه منطلق صحيح، طالما ان الخصيصة الاستراتيجية له، اي هذا التراث العربي السامي برمته، قبائلية في المحل الاول .

وطبيعي ان لا يقتصر بحثنا عن البنية القرابية ، او القبلية على ـ ميكانزم ـ العلاقات بين الجماعات القرابية كالبدنات وفروعها، العائلات الكبيرة . والبدنة كما يعرفها الاستاذان ايفانز برتشارد وفورتس، وحدة دائمة تظل موجودة على مر الاجيال، نتيجة لانضمام افراد جدد اليها ، او تركهم لها بالموت او اي سبب اخر . فالبدنة ـ او العمارة ـ جماعة ترد انتسابها الى جد واحد في خط واحد. ومنها بالضرورة يستمد الشخص مركزه السياسي والقانوني .

وتشكل العلاقات القرابية، والزواج جانبا ملحوظا في تراثنا .

ولعلها فكرة اساسية مصاحبة للاقدام على الزواج، فكرة ان يطرح والد العريس ـ او العروسة ـ لغزا او حذرا عويصا ، يواجه به ابنه، الذي عادة ما يكون وحيدا ـ للامتحان العسير كان يطالبه في« شطارة

العريس» بان يعطيه ٢٠ جنيها على ان يشتري منها الابن ــ العريس ــ ذبيحة، يحضر منها «رطلين لحم» ورطلين عضم، والذبيحة صاحية كماهي»

ويتزوج الابن بعد ان وفق في شراء الذبيحة، واخذ رطلين لحم من اليتها، واثنين من قرونها، والذبيحة كما هي .

وقد يلجأ الابن العريس ذاته الى الدخول في امتحان، كما في حكاية ــ بائع الكلام ــ حيث اشترى ــ البطل ، بالثلاثين جنيها مهــر عروستــه، ثلاثة كلمات او نصائح، من بائع ــ او ناصح ــ كلام ، بما يذكرنا بالحكايــة الطوطمية، نصائح الطائر الثلاثة، مقحما نفسه في خارقة جان استطرادية مهاجرة الجزئيات،، حين يقبل العمل عنــد صاحب طاحـــون مهجور ــ مسكون ــ ببنات الجان، اللاتي يظهرن له طارحات جزئية وقوع البطل في احبولة تفضيل امراة على اخرى، المصاحبة للحروب الطروادية، هنا يتذكر ــ الشاطر ــ النصيحة الاولى «حبيبك اللي تحبه ولو كان عبد نوبى » اما النصيحة الثانية « من آمنك لا تخونه ولو كنت خاين » ــ

وتتسبب النصيحة الاخيرة الثالثة « ساعة الحظ ما تتعوضش » في افلاته من الموت .

وعادة ما يتم لقاء البطل ــ العريس ــ بعروسه ،عند ابار وموارد المياه ــ الموردة ــ كما حدث لاسحق ويعقوب مع راحيل ام النبي يوسف ، ثم موسى مع زوجته صفورة ابنة شعيب كاهن مدين .

ففي الحكاية ــ المنشورة ــ عرضها ــ طولها ، يلتقي البطـل بخطيبته حائرا باحثا عن تحقيق وصية ابيه، التي لا تعدو لعبة اشتقاقية لغويـــة للعرض ــ او الشرف ــ المساوي للطول «لزواج من فتاة عرضها قد طولها» الى ان يدفع العريس كل ورثه وما يملك مهرا لزوجته الموهوبة بدورها فـــي صنع ــ المحارم (١) الملوكية» غالية الثمن ، على ما عرف عن الطيور التـــي تضع ذهبــا.

فالزوجة المبروكة التي تثبت الحكاية حرصها على شرفها، في الجزئية الاستطرادية للتاجر الخواجا المصري، او اليهودي في المتنوعات السوريـــة والعربيةعامة ،الذي يراودها ،اي ان تستولى على املاكه ، كمــا تكشف

---

(١) منديل خاص بالتابو، كما تدل تسميته اللغوية المشتقة من الحرام والتحريم يستخدمه العريس في اخذ وش او بكارة عروسه ، وعادة مــا يستخدم في اشهار دم العروس ، والطواف بــه اعلانا عــن عذريتهــا .

الحكاية عن ذكاء الزوجة الذي اعجز القاضي ، في جزئية قطع رطل اللحم من جسد البطل،التي استعارها شكسبير في يهودي مسرحيته تاجر البندقية ، وتصادفنا كثيرا في تراث الحكايات الشرقية، حين اشارت على القاضي «اقطعرطل اللحم،واذا ما قطعته زايد عن الرطل ، قص الفائض من جسد الخواجا ، اما اذا لم يزن رطلا ، استكمل الباقي ـ ايضا من جسد الخواجا » .

وهكذا اعجزت الفتاة كلا من القاضي، والخواجا او اليهودي الذي تنازل فورا عن قضيته، وهرب بجلده .

فمن قسمات تراث الحكايات العربية، سواء في مصر او الشام، او الشمال الافريقي بعامة ، هو ان سعد الرجل الزوج ، او شقائه وهبوطه ، يرجع الى زوجته .

وفي حكاية «هذا من امرأته» تثبت الحكاية ان في مقدور الزوجة ـ ابنة الملك ـ ان تصعد بزوجها من هوة الفقر والعجز والغباء،الى اعلا مراتب العز والغنى «وكله من امرأته» .

ونفس المقولة ترد في ـ السبحة ـ (١) حيث يصل العجب بالملك او المالك صاحب العمارة مداه من احد العمال ـ فاعل ـ الذي يعمل بهمة ، وايقن ان امرأته هي سبب هنائه وراحة باله ، وحين يقرر الملك امتحانها والتعرف عليها، وينجح فعلا في زيارتها، تصنع له الزوجة سمكا مطبوخا وزعته على اربعة اطباق، على ان يتذوقه الملك قائلا : «طعم واحد» وهنا عاجلته الزوجة الوفية راجحة العقل : «هكذا نحن يا ستات .. طعم واحد ، ولعلها ـ كما يذكر القارىء ـ فكرة اخلاقية ماركسية، وردت في الرسائل اللينينية مع احدى المفكرات الماركسيات .

لكن يلاحظ ثبات وجوهرية الادانة الازلية للمرأة، من قبل الرجل طبعا، منذ اساطير الخلق السامية الاولى، فحتى في التحولات ـ الشعائرية ـ السحرية، المرأة دائما حية رقطاء، وفي حكاية ـ فن النساء الذي غلب فن الرجال، تنتصر الفتاة، بعد ان تسببت في ان يتزوج بطل الحكاية الفتاة الكسيحة .

اما كبيرة الكبائر المدانة البغيضة في تراث حكايات القرابة والزواج، فهي المرأة الفتانة، فالحراث الفقير الذي استلفت نظر الملك المتنكر ووزيره،

(١) نص سوري من اللاذقية .

حين كان يحرث حقله «وفي بطن الحقل يرقص رقصة، وفي صدرها اخرى» نظرا لان نسائه الثلاثة، يرحن باله، حتى ان الملك اقدم على اخذ نسائه الثلاثة ، واعطائه غيرهن ، لكي يتعرف سر حب النساء له» فكان ان اقدم الفلاح ـ الحراث ـ على خنق المرأة التي خصالها الفتنة، بينما ابقى على الفتاتين، الزانية واللصة، مطلقا لهما التعبير عن انفسهما.

ويلاحظ ان الحكاية التي يتضمن موضوعها على تعدد الزوجات، لا تقيم وزنا لعلاقات الزواج، بقدر ما تشير الى انحدارها من عصور طابعها السبي والنخاسة .

الفصل الحادي عشر

خوارق الجان وخرافة ـ الاله الحمار ـ سعد الدين

اقف قليلا عند هذه الحكاية الخرافية عن «سعد الدين» ـ كانموذج ـ لا على اعتبار انها بالاد (١) او ملحمة او قصة شعرية، بما تبقى فيها من نظم، بل على انها حكاية او خرافة جان ، اسمح لنفسي بان اصفها نموذجية. بل هي ربما كانت واحدة من اوسع واقدم حكايات الجان انتشارا في فولكلور العالم اجمع.

فهي تخضع وتتطابق مع مواصفات حكايات وخوارق الجان التي شغلت العديد من المدارس الفولكلورية والانثروبولجية زمنا طويلا ، منذ ان توصل جامعا الفولكلور الالمانيان ـ الاخوان جريم ـ من جمع ودراسة مجموعة كبيرة منها اطلق عليها ـ يعقوب جريم ـ حكمه المتعجل القائل بان حكايات الجان انتاج آري كامل .

بمعنى ان كل ما يتواتر على الشفاه، على مستوى العالم اجمع من حكايات وخرافات وخوارق الجان والعفاريت والنداهات وام الشعور والاعوان وسكان تحت الارض، والرياح، يرجع بكامله الى موطنه ومنبته

---

(١) قصة شعرية خالصة، وقد يتعاقب فيها الشعر مع النثر، ومن اشهرها، بالاد السيد Le Cid في الفرنسية والاسبانية، وفي العربية، حسن ونعيمة، ويوسف وزليخة.

الام، الهند وايران .
فمنذ ان اطلق الاخوان جريم حكمهما، في موسوعتهما الاجرومية الجرمانية ـ عام ١٨٤٢ ، حتى اثار حكمهما هذا عاصفة من الجدل، ما تزال ممتدة، شارك فيها معاصرهما المستشرق عالم الآريات، تيودور بنفي، باعلانه نظريته الشهيرة عن ارتكاز التراث ـ الاري ـ الاوروبي قلبا وقالبا على التراث الآري ـ الهندي ـ الفارسي ـ، واخصه الاساطير والخرافات .

فمن هذا المدخل والمنطلق اسوق هذه الخارقة عن البطل ـ الحمار ـ سعد الدين. والتي لا شك في انها بقايا اسطورة مصرية عربية ـ او فلسطينية اردنية ـ من الفها الى يائها، تحكي عن خوارق ومزايا اله ما قبل التاريخ ـ الحمار ـ المصري الفرعوني ست او ستخ، الذي لقبه اليونان بطيفون، ولقبه العرب ببعل، او زوج او سيد .
واهمية هذه الخارقة التي ما تزال تعيش على الشفاه الى ايامنا هذه، تأتي من ان هذه الاسطورة التي ترجع اولى منابتها الى ٤ الاف عام قبل الميلاد، اي انها ترجع الى ما قبل فجر التاريخ المصري برمته او عصر ما قبل الاسرات، ومن مصر هاجرت الى تخومها المجاورة في فلسطين والاردن. الى ان اصبحت من اهم ملامح الاساطير والفولكلور السامي باكمله.
ومن هنا يمكن مناقضة نظريات مروجي الارية التي اكتملت في النازية القائلين بالاصل الاري لخوارق الجان .
فها هي خارقة ذات جذور مصرية، منحدرة من ـ رحم ـ اسطورة، تتحول مع توالي العصور الى خرافة جان . ما يزال بطلها ـ ست ـ يتوحد بالحمار، وتجيء به الى الوجود المراة ـ العذراء ـ التي لم يمسسها بشر .
فيجيء بطلها سعد الدين او الحمار الى الوجود، تصاحبه فكرة اسطورية، يصنف بموجزها على انه طفل موعود.
وهذا لا ينفي طبعا ان في معظم الاحوال ما تحكي وتفيض اساطير الجان عن طفولة ابطالها وخوارقهم وتفوقهم .
فهو يجيء الى الوجود بعد ان يموت الاب ويفتقد، وتنفذ الام وصيته، بتسليم بناتها الثلاثة، ثم ابنائها الثلاثة، الى الغول او الجني او القوى المجهولة او نهر ـ النيل ـ ويذهب ابناؤها الثلاثة بحثا عنهم ولا يعودون، وتجلس الام وحدها سوى من حمارها او ـ طوطمها ـ المسمى «الرقيق»،

وتقرر الام ان تنتحر، وتشرب من بول الحمار. وهكذا يجيء الى الوجود سعد الدين كطفل معجز «موعود» مكتوب على صدره سعد الدين .

«الحافر حافر جحش والودان ودان جحش» .

«واسنانه تامة، ويومه بسنة» .

بل ان الخارقة تبالغ في اعجاز هذا ــ الاله ــ الحمار، فما ان ولد وقامت الداية لتغسل يديها، حتى قام فجلس على حيله« الداية شافته واللمية (١) سبقتها» .

وما ان قامت لتغلق الباب، حتى قام وراءها فاغلقه. وكان ان قررت الداية ان لا تولد بعد سعد .

وهكذا تواصل القصة او الخارقة سردها لقوى البطل الخارقة، فسعد ــ اوست ــ يلعب مع العيال في يومه السابع .

وفي حواره مع امه ، تخبره بانه « ابن جحش » وتبكي وتطلب منه ان يمكث بعد ان اخذ منها الجان كل اولادها فيجيبها « انا مش جي لك، انا جاي اتم المكتوب» .

وركب حصانه ــ او بغلته ــ مكملا رحلاته ــ العبورية ــ بحثا عن اخوته في عالم ما تحت الارض قائلا : « قصدتك ياللي البرور (٢) والسما والارض لك » .

★ ★ ★

وتتوحد هذه الخارقة الى اكبر حد ممكن مع اسطورة البعل السامية (٣) ، الذي يخوض رحلاته العبورية في عالم ما تحت الارض بحثا عن « بناته (٤) الثلاثة الذين اختطفهم ــ الجان .

واذا ما كان كلا البطلين ــ والفاصل بينهما ٤ الاف عام ــ البعل السامي ، وبطلنا المعاش اليوم سعدالدين .

اذا ما كانا ما هما الا وجه واحد لنفس الاله او الطوطم ، ست او ستخ او طيفون ، لادركنا مدى استنبات هذه الخارقة التي تعيش الى اليوم على الشفاة من تراثنا العربي الفلسطيني الاردني، ومنه تواترت وهاجرت وعاشت في معظم تراث كل العالم ــ بل وربما التراث الهندي

(١) اي بالت على نفسها هلعا .

(٢) جمع بر ــ او برية (٣) اردنية فلسطينية.

(٤) اللات والعزي ومناة الثالثة الاخرى .

الآري ذاته .

فخوارق الجان التي على هذا النمط ، اي التي يخوض بطلها عالم خرافي او عالم ما تحت الارض او العالم السفلي ، لفك اسر واسترداد الاخوات والحبيبات والفتيات ـ المعلقة من رموش عينيها ـ والتي يختطفهن الجان او الوحش او راس الغول ـ سعدان ـ او التنين ، او النيل ، او العون .

خوارق الجان من هذا النمط، تنتشر بكثرة شديدة جدا . ومنها ما يشكل الجسد الاسطوري والملحمي في اوروبا اللاتينية ، مثل خوارق ذي اللحية الزرقاء، وقصة او ملحمة بيوولف الشهيرة جدا، والتي لها متنوعاتها في انجلترا وايرلندا والدانمارك . ثم ملحمة كالفالا الايرلندية .

بل ان سيرجيمس فريزر يسوق عشرات ـ ان لم نقل مئات ـ من متنوعات اختطاف القوى المجهولة او الكائن الخارق للطبيعة الذي تزف اليه النساء، فهو في الاغلب احد الآلهة .

ويلاحظ في معظم الامثلة التي يسوقها فريزر، انتمائها الى مصادر عربية او اسلامية ، منها ما كان منتشرا حول بحيرة فيكتوريا حيث منابع النيل ، ومنها ما ينتشر في جزر المالديف قبل ان يعتنق السكان هناك الاسلام، يقول فريزر « وقد وصف الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة هذه العادة وطريقة القضاء عليها ، فذكر له الكثيرون من الثقاة من اهل الجزيرة ـ وقد ذكر ابن بطوطة اسماءهم ـ انه في الوقت الذي كان الناس هناك يعبدون الاوثان ، كانت تظهر لهم في كل شهر روح شريرة من الجن ، تأتي عبر البحار على شكل سفينة مليئة بالمشاعل الملتهبة . وكان الشغل الشاغل للناس حين يرونها هو البحث عن فتاة عذراء صغيرة ، يزينونها ثم يسوقونها الى معبد وثني معين على الساحل وله نافذة تطل على البحر ، فيتركون الفتاة هناك طول الليل، وعندما يعودون اليها في الصباح كانوا يجدون انها فقدت بكارتها وفارقت الحياة . وكان الناس يسحبون ـ القرعة ـ في كل شهر ، فمن وقعت عليه القرعة ، وجب عليه ان يتنازل عن ابنته لجني البحر ، وظل الحال كذلك حتى جاء رجل صالح ـ سعدالدين او مخلص او ماري جرجس ـ من البربر وامكنه ان يخلص آخر فتاة قدمت بهذه الطريقة الى ذلك العفريت ، وان يطرد العفريت ذاته الى البحر بتلاوة القرآن عليه » .

ويواصل فريزر « والقصة التي يحيكها ابن بطوطة عن الجني العاشق وعرائسه الآدميات تشبه شبها قويا نوعا معينا من القصص الشعبي الشائع، والذي يتخذ صورا واشكالا مختلفة من اليابان وسيام في الشرق، واسكنديناوه واسكتلندة في الغرب .

وتختلف القصة في التفاصيل من شعب لآخر ، لكنها في عمومها تتخذ الشكل التالي « كانت هناك بلد يهددها ثعبان او غول او تنين او اي وحش آخر له عدة رؤوس وينذر اهلها بالدمار » .

لكن ما فات فريزر وغيره ممن تعرضوا لهذه ـ البقايا ـ اساطير التي تتخذ مسوح قصص الجان وتعيش بشكل خاص الى اليوم في ذاكرة شعوبنا المصرية والعربية ، تورث للاطفال مع لبن امهاتهم .

ما لم يلتفت اليه الانثروبولجيون عامة ، هو ان في هذه الخارقة او الحكاية انتهت وحفظت اقدم واوسع ديانة العرب واليهود الساميين المعروفة بالبعليم . ممثله في عبادة الاله ـ الطوطم ـ السلف الحمار عند بعض الاقوام والحضارات ومنبتها في مصر الاله الحمار ـ ست، منذ ما قبل فجر التاريخ المصري او الاسرات او الدولة القديمة ، حتى انه كان هناك حلف قبائلي بمقتضاه يسود الحمار المصري ست متزعما ثلاثين حضارة وقبيلة من حضارات الشرق الادنى القديم في الشام وفلسطين والاردن واليمن والجنوب العربي عامة .

ومن اسم الحمار تسمى الملوك الحميريين ، او حمير التي ترد اخبارها في سيرهم عن عنترة ، وسيف بن ذي يزن ، والتباعنة ـ جمع تبع ـ ومنهم التبع حسان اليماني ،والزير سالم ـ وعشرات التباعنة.

فالجسد الروائي ـ سواء ـ لنصنا الشفهي المتواتر اليوم، او اسطورة البعل الكنعانية ، موجزة اختطاف الجني او القوى الشريرة لاخوته الثلاثة ـ في نصنا الفولكلوري اليوم ـ ، وبناته الثلاثة في النص الكنعاني ـ ٤ الاف عام ـ وفي كلا النصين ، يخاطر ـ الاله الحمار ـ سعد الدين ، محققا انتصاره بعودة بناته المغتصبة .

ليعاود من جديد اعتلائه ، قمم اشجار السنط ـ او البكاء ـ كقرين للريح وانذار الاعداء.

فهذا البعل ـ الصحراوي ـ المتجبر ـ ست او سعد ـ هو البذرة الاولى، للاله ليهوة رب القبائل الاسرائيلية، امس واليوم .

★ ★ ★

الفصل الثاني عشر

« نــوح وزوجته والشيطــان »

ليس مــن السهل اغفال احد السمات الجوهريــة للتراث السامــي لاساطيــر وحكايـــات وفابيولات الطوفــــــان المتوارث بــدوره، منذ ان جاء ــ بالعديد ــ من جزئياته وموضوعاته النص السومري للحمــــة جلجاميش .

واذا ما تتبعنــا تفاصيل الطوفــان ــ كعقاب ــ منذ بذرته السومرية الاولى ، وفي التراث البابلي ، وما انتهى اليــه فــي المدونــات العبرية ــ التوراة والتلمود «البابلي» ــ والمدراش ــ ثم التنويعـــات المسيحيـــة والاسلامية ، وانعكاسهــا في تراث الحكايات ــ الشفاهية ــ المعاش، علــى طول بلداتنا العربية، لوجدنا انه ــ الطوفان ومأثوراته ــ يستحق وقفـــة خاصــة .

ولا بد هنا من تأكيــد حقيقــة هامة ، هــي ان موضوع الطوفــان واحد او ايتم من اساسيات اساطير الخلق المبكرة جدا ، عنــد مختــلف الشعوب . فالطوفــان بدايــة لخلق ارض ــ موعودة ــ جديدة . كمــا ان من المفيــد التذكير ، بان موضوع الطوفــان ليس بقاصر على تراث الاداب والاساطير السامية ، وهو ما كشفت عنه بوضوح التسجيلات الفولكلورية عند مختلف الشعوب .

فمنــــذ عــام ١٩١٤ ، سجـــل جامــع الحكايات الباحــث بــول رادن «نصــا لخرافــة ــ طوطميـــة ــ من اوتاريو يقول النص « ان الاله

المهذب نيبوجو الذي جاء بالاصداف الجميلة الباهرة، وزين بهـا الاسماك، غضب عندمـا افشى اليه طائر عملاق بنبأ ، ان سبـاع البحر ، افترست اخيـه .

فانتقم منهم نيبوجو بأن كمـن لهم وقطع اشلائهن، والقى بهـا فـي مجاري المياه ، حتـى فاضت واغرقت الارض . فصنع نيبوجو مركبـا واخذ من كل نـوع ـ او زوج ـ اثنين . وبعـد فترة قال لنفسه « اعتقد ان طوفـان الماء لن يتوقف ، ومن الافضل ان اصنع ارضا جديدة » .

وتتداخل هذه الجزئيـة الفولكلورية عن الطوفان ـ كانتقال حضاري ـ لارض جديدة ـ مع جزئيـة خلق تتصل باساطيـر خلق الانسان الاول، حين يرسل الاله حيواناته ـ حشراته ـ البحريـة الثلاثة ، لتحضر لـه الطمى ، وكالعادة يفشل الرسولان الاولان ، وينجح الثالث ، حين يحضر الطمى من اعماق الماء الفطري ـ وهو مـا تناولناه في مدخل سابق ـ .

وفي القصة عديد من الجزئيـات والعناصر ـ المعارف ـ البدائيـة الاولـى ، وتأثيـر القصـة الام ، مثل الطوفـان كعقـاب ، وازواج الحيوانات والطيور وسقوط الغراب ، ثم الحيـوان غواص الارض الـذي اعـاد خلقهـا .

وهناك بعض التشابه مع حكايات الطوفـان والخلق الهنديـة المغرقة في القدم، مع نصوصنا العربية السامية .

وفي احد النصوص التي جمعت من الاسكيمو ، يرينا النص ، كيف ان حيوان الماموث الذي يوجد في الجليد، هو حيوان (١) مطرود لرفضه ركوب فلك نوح. اي ان كل بلد تضيف الى القصة حيوانها المحلي ـ سواء في المكسيك او اوروبا ـ .

ويقدم « افاناسييف » اسطورة الفلاحين الروس عن نوح وزوجته والشيطان وهي من نوع القصص الاستطراوية Episode وتجيء عـلى النحو التالي :

فقد طلب اله الطوفـان عقب الوصول من الراكبيـن مع نزولهم سـد الطريق على الشيطـان الذي تسلل نازلا ، وواجه الاله بانـه عدوه اللدود ، رغم انـه اخيه الاصغـر ، وطلب منه الاله الغوص في اعمـاق الماء واحضار حفنة من ترابها ليخلق الله العالم ـ الجديد بعد الطوفان ـ واطاع الشيطان وحاول مرات ـ ثلاث ـ احضار التراب ، لكنه عندما فشل

(١) الحيوان المطرود في نص الاسكيمو، يتوحد بالابن الطريد المعاقب فـي النصـوص الاسلاميـة .

في المرة الرابعة، امره الاله بان ينطق هذه الكلمات ليحقق عمله : «يا الهي السيد المسيح» واخيرا ينجح الشيطان في احضار التراب، ويخلق الاله العالم .

هذه القصة بحسها المسيحي ، وثنائيتها الايرانية ، تحكى في سيبريا ومختلف البلدان المسيحية ، بل انها تروى بين بعض الشعوب، على ان يأخذ المسيح مكان الخالق ، ويطلب من الشيطان احضار التراب، وعندما يحرن الشيطان رافضا، يضربه المسيح على مؤخرة عنقه ، فيندفع الطين من احشائه الى فمه مشكلا الجبال المحيطة بالارض منذ الازل . اما في النصوص العربية ــ السورية والفلسطينية ــ فتأخذ الحية ــ فتن ــ مكان الشيطان ، في تشكيل السهول والجبال.

اما اروع ما في قصة « نوح « وزوجة الشيطان ،النص المدون في تراتيل الملكة ماري، وهذه القصة التي انموذجها ٨٢٥ في تصنيف تومبسون ، سوف تخدمنا في تقديم موضوعنا عن نوح والفولكلور . وهي حكاية فولكلورية تعتمد على مصدر مدون . وسواء أكان مصدرها الاول هو اقدم نص مدون في التوراة والمصادر الاسلامية ــ فيما بعد ــ،او الصراعات الفارسية بين الخير والشر ، او بين الثنائية البدائية الاساسية للجنس البشري عامة ، او المفسرين والشراح اليونان المسيحيين ، مثل « ابيفانيس » الذي دون حكاية gnostic عن كيف ان زوجة نوح (برها) اشعلت الفلك نارا عندما دخلتها ، وربما كان مصدر هذه الجزئية شعائر (١) Shamanistic والاساطير ــ الكنسية ــ البدائية في اوربا وآسيا .

وفي اسطورة « افاناسييف » التي سجلها في القرن التاسع عشر، لحكاية ام ترجع لثلاثة قرون سابقة في مصدرها ، فان نوح يأخذ مكان آدم في اقتحام ــ تابو ــ التفاحة المحرمة بايعاز من زوجته (ايفجا) . فقرر الله على الفور ان يرسل الطوفان ، وطلب من نوح ان يبني الفلك على ان يبقى هذا سرا، فبناه نوح في سنوات طويلة في الغابة المهجورة، وعندما سأله الشيطان ماذا يفعل، رفض نوح ابلاغه، فتعقب الشيطان زوجته ايفجا ليعرف منه حقيقة ما يفعله نوح في الغابة ، وعندما اتم نوح صنع الفلك واخبر كل الناس ، فكان ان دمر الشيطان الفلك بمساعدة الزوجة، لكن بعد ستة شهور بناه من جديد ودمر، وفي المرة الثالثة نجح، وعندما دخلته ازواج الحيوانات ، تسلل الشيطان في هيئة فأر ، الى داخل الفلك مستعينا بمساعدة الزوجة في تخدير

(١) الشمامسة الكنسيين .

نـوح بالشراب ومعرفة السر ، ممـا الحق النكبات به عن طريق المـرأة التي يدعوهـا حواء . ويحدث خلط بينهـا وبيـن الحيـة ـ على عـادة النصوص الاسلاميـة والعبرية .

ويوجد عديد من تنوعاتهذا الموتيف في الغرب ، وفي السويد حائط فرسك من القرن الرابع عشر يصور هذا المعنى . وقصيدة ترجع الـى القرن ١٣« باسم جينشن اينكل . ثم كشف جيمس ديلارجي مديـر عـام الجمعيـة الايرلنديـة للفولكلور النقاب عن نص (١) توصل الى جمعه عام ١٩٥١ ـ اهم ما بـه ان نوح استغرق في بناء الفلك ٨١ سنة ، وكان يدمر بواسطـة الشيطان مرة كل سبع سنوات . ويتخذ فيه الشيطـان هيئة الغريب ثم يستعيـن هذا السيد المهذب الغريب بتملكه لزوجة نوح ،ودفعها للتعرف على اخبار بنـاء الفلـك بسؤالهـا لزوجهـا كلمـا خرج او عـاد الى بيتـه « اين كنت ، والى ايـن تذهب » . ثم اللجـوء الى سكـره ، وتهديـد الزوجـة لـه بهجره اذا لم يستجب ويشرب من (شرابالامان .

ثـم دمر المركب ثانية بعد ان كاد نوح ان يفشي السر ـ فجاءه صوت يأمـره بالتوجه الى وادي معين مهجور ويبني الفلك وحيث تنتشر اصوات الـدق والصدى في كل الارض .

ويفسر اصوات الدق والعمل هذه في عديد من النصوص الشرقية المتنوعـة على انهـــا الاصـل الاول لصدى الصوت . كمـا تفسر بعض النصوص تسلل الشيطـان الى الفلك بواسطـة زواجه ـ او عشقه ـ مـن الزوجة اللعينـة .

والتشابه بين ثلاثة نصوص، هي الروسـي والاستونـي والايرلندي كبيرة ، كما يكشف هذا عـن تميز النص الشرقي الام . ويحتمل ان تكون هذه النصوص قد تحولت الى مـا يعرف بمكائد العفاريت ، نتيجة لعبورها الطويـل للبحـار بـدلا مـن التحـولات المشابهـة التموجـات Wavlike transmission التي تحدثها الاسفار الارضية البرية .

يقول سميث تومبسون : « ومثلما تفعل طرق الاسفار الطبيعيـة ، تتبع الحكايـات هذه الطرقات الطبيعة في عبورهـا للمخالطـة الحضارية الاكثر اهميـة، وهي تفعل هذا ممتدة عبـر المياه ، حتى لو كانـت هناك طرقات اكثر يسرا يمكـن ان تغـزو عـن طريقهـا الاقطار المجـــاورة لحضارات مجاورة .

وكثيرا من الحكايات الالمانية اتخذت هذا الاسلوب في هجرتها الى

---

(١) جمعه من راوي يدعى ميشيل سيلك، بمنطقة جالوي .

السويد مباشرة دون ان تلمس الدنمارك « ونحن لا نحتاج هنا الى اظهار ان هناك عديد من الطرق التجارية بين دول البلقان » متضمنة ومحتوية روسيا وبعض الجزر الانجليزية والايرلندية التي يلتقي فولكلورها عند سمات وقسمات متقاربة .

فخلال الدراسات المضنية التي اجريت على جزئيات الحكايات النوحية ، لوحظ من خلالها ان القفزات التي تحدثها الرحلات والهجرات ـ للحكاية ـ مرة واحدة ، تضمن تغيرات بدرجة اقل لجزئيات الحكاية ، منها في حالة الهجرات والانتقالات ـ البطيئة ـ الرتيبة عن طريق الاسفار البرية ، كما ان نفس هذا القانون يجري سريانه في حالة الاحتفاظ بالاماكن والاسماء وما يعرف بشعائر الانتقالات، في حالة الاسفار البحرية ، بينما تتعرض هذه السمات وتصبح عرضة لتدخلات ومزاوجات وتغييرات في حالة الاسفار البرية .

ولعل هذا ما كشفت عن الدراسات التي تولي اهتماما اكبر لفولكلور الشرق الاوسط ، او العالم العربي ، التي كثيرا ما يطلق عليها البعض بالمدرسة الشرقية ، خاصة ما صاحب جزئيات وتيمات الطوفان .

فلقد جاءت التغيرات طفيفة، كان يستبدل الحمار بالبعير ، في حالة خداع زوجة نوح ـ لنوح ـ في مساعدة الشيطان على التسلل الى داخل الفلك ، في النصوص العربية المهاجرة الى المانيا .

وصاحبت معظم هذه التغييرات ـ النصوص الشفهية ـ خلال هجرة حكاياتنا من الشرق الى الغرب، كاختلاف الحيوانات الشارحة على ظهر الفلك، ثم وهي تواصل هجراتها من الغرب الى اوروبا بعامة، عن كيف ان الفيل عطس خنزيرا، والاسد قطة وهكذا .

كذلك احتلفت درجات ادانة وسقوط (١)حيوانات مثل الحمير والجمال، لم تستطع كبح رغباتها ـ الجنسية ـ في النصوص العربية ، عنها في التنويعات المهاجرة .

كذلك عثر على نص الماني، يشير مفسرا الاسباب التي جعلت جلد الحاميين ـ والشعوب السوداء بعامةـ اسودا .

ولعلها اول افكار ترد عن القبيلة او الامة او الرهط الملعون ، متمثلة في خطيئة حام ، حين سخر من عرى ابيه نوح ، والتي بسببها اصبح وجه الحاميين ـ ذوي البشرة السوداء ـ اسود في المصادر العربية ،

---

(١) بحيث تصبح حيوانات نجسة او مشئومة .

ولعن بسببها كنعان ابن نوح في الاساطير العبرية (١) « ملعون كنعان عبد للعبيد يكون لاخوته » .

وكان ان انحدر من حام ابن نوح « كوش ـ ابو الكوشيين في النوبة والسودان ـ ومصرايم وفوط وكنعان ـ وكوش ـ ابو الصيادين في البر والبحر ـ ولد نمرود » الذي ابتدأ ان يكون جبارا في الارض اما ابنه كنعان ـ ابن اللعنة ـ فولد (٢) « صيدون ـ مؤسس مدينة صيدا ـ في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وبكره حثا ـ ابو الحيثيين ـ واليبوسي والاموري والجرجاشي » وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار الى غزة وحينما تجيء الى سدوم وعمورة (٣) وآدمه ـ آدم ـ وصبوييم الى هالاشع » .

وهو على عكس التمجيد الذي اضفاه هذا التراث القبلي على السامين ـ اصحاب الوبر ـ من عرب وعبرين .

وفي عديد من النصوص يأخذ نوح مكان آدم ويتطابق معه ، ويروح ابليس يغري الزوجة ويدفعها الى ان تدفع نوح بدورها للاكل من الشجرة المحرمة ، بما يدفع الله لان يسلط عليهم الطوفان كعقاب .

وتتوالى جزئية او فكرة غواية الشيطان للزوجة بشكل متوال في اغلب الاساطير السامية ، فالشيطان هو الذي وسوس لامرأة لوط، حين هجر لوط قومه وفر مهاجرا ومعه اهل بيته، فارسل العذاب على مدينة « سادوم وقراها الخمس » « عمره وادماء وصبويم وبالع » حين سمعت المرأة اصوات خراب المدينة، فصرخت « واقواماه » وكان ان تحولت الى عمود ملح » .

وفي احد النصوص التي تتعرض لغواية الشيطان، لرحمة ـ او ناعسة ـ ، امرأة ايوب. يقول النص انه كان لـ «ايوب بن زارع بن العيص بن اسحق بن ابراهيم الخليل ، زوجة اسمها « رحمة » ، وكان ايوب صاحب اموال عظيمة وكان له ملك البثنية جميعها وهي من اعمال دمشق، فابتلاه الله بان اذهب امواله حتى صار فقيرا ، وهو مع ذلك صابر على

---

(١) تكوين ٦ : ٢ .

(٢) تكوين ١٠ .

(٣) ارض ادوم، في صحراء بادية الشام ما بين سوريا والاردن، وهي التي اعطت لادم ابو البشر اسمه، وذكرت نفس التسمية «ادمة» في نصوص البحر الميت بفلسطين وراس السمرا بسوريا، وجبيل بلبنان .

عبادته وشكره ، ثم ابتلاه الله في جسده ، حتى تجذم ودود ، فبقي مرميا على مزبلة لا يطيق احد ان يشم رائحته ، فكانت زوجته تخدمه وهي صابرة على حاله، فتراءى لها ابليس واراها ما ذهب لهم ، وقال لها اسجدي لي لارد مالكم اليكم ، فاستأذنت ايوب ، فغضب وحلف ليضربها مائة ، ثم ان الله تعالى عافى ايوب ورزقه ورد الى امرأته شبابها وحسنها، وولدت لايوب ستة وعشرين ذكرا ، ولما عوفي ايوب، امره الله بان يأخذ عرجونا من النخل به مائة شمراخ ، فيضرب به زوجته، ليبر في يمينه».

وما يمكن ملاحظته في ذلك النص ، هو ان ابليس، ارى الزوجة « رحمة » ما ذهب لهم ـ بمعنى انه هو الذي كان قد سلب عنهم اموالهم وعزهم .

واصاب ايوب بالداء ، وفي مقدوره رد ما اخذ ، لو ان المراة سجدت له .

فالعلاقة بين المرأة والشيطان تتواتر بكثرة شديدة ، خاصة في نصوص واساطير الخلق والطوفان الاولى ، عند عديد من ملل ونحل الشعوب والقبائل السامية العربية .

وما يهمنا هنا هو هذه الفكرة السومرية ، وهي فكرة توحد الشيطانة ليليت بالحية ، وليليت هي ما عرفت عند الساميين بحواء الاولى ، والتي عادت بدورها فتوحدت بالحية ، خاصة عند القبائل العبرية ، ففي التوراة ان اصل الانسان من الحية ، والحية من الجن . وترددت هذه التضمينة في عديد من اسفار الخلق والبدء،عند اغلب ملل ونحل الشرق الادنى ، خاصة بالنسبة لنوح وزوجته والشيطان ، لتحقيق مقولة المنتجات الروحية، وانسلاباتها المتوالية المتكافئة البنية ، بدءا، بالانسلاب ـ الذكري ـ للمرأة، اسطوريا ـ طبعا ـ ، وبالضرورة ماديا طبقيا اجتماعيا ، حيث تعامل المراة ـ كنصف ـ سواء بالنسبه للارث او الشهادة .

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

موســـى

وتتبدى شخصيـــة النبي موسى في الفولكلور ، حاضرة على الدوام، على عــادة شخصيــات او آلهــة الاساطيــر مثــل اندرا ، وزيوس ، وبوذا ، والخضر ، والاقطاب الاربعة في الوجدان ــ الطقوسى العربي .

فقد تجيء حكاياته ــ او اساطيره ــ على النحو التالي :

« سيدنا موسى ، ماشى في يوم رايح يقابل ربنا . رجــل فقيـــر انتظره في الطريق وطلب منه أن يسأل له ربنــا ، فلان ابن فلانة ، مالوش عنــدك رزق ، اكثر ممــا هو فيه » وتستمــر الحكايــة على هذا النحــو في حوار بين الرجل الفقير والرب ، والوسيط هنا هــو موســى كليــم اللـــه .

وبرغم تواكل هذا النص الوعظي ولآلاف غيره ، في الاشارة الى ان الرزق لا يعطى الا للاتقيــاء ، وربطه الاخيــر في ان الاوضاع الطبقيــة ،من فقــر لثراء لا دخل فيها للارادة ، وهكذا الا ان الملفت في هذا النص هــو انه ــ اسطوري ــ نادر ندرة الاساطير في التراث العربــي ــ الشفاهي ــ المعاش .

فتتبدى شخصية موسى في هذه الحكايات ، كشاهد ــ خفي ــ او قدري على مــا يحدث ، كمــا يتضــح من حكايــة « القاتــل والمقتـــول

وموسى » .

وكيف انه كان دائم التردد ، على جبل « الملاغاة » ليسأل « يا رب جيت اسألك ، فظهر له ربنا وقاللو : اسأل يا موسى » .

وهي عادة ما تكون حكايات قاسمها المشترك هو القدر والقدرية ، كملمح جوهري لتراثنا العربي .

كما ان في مقدور موسى ، ان يتصل بعالم الموتى ، ويقيم حوارا مع الميت كما في حكاية « موسى والعبد » .

وفي تصوري انه نص عبري، قد يرجع تاريخه الى تواجد القبائل الرعوية العبرية في مصر ، حوالي منتصف الالف الثانية ق.م .

ذلك ان ملك او فرعون قاس كان ينكل بعبده الصالح المطيع ، حيث ربطه في طاحون مهجور او كما يذكر راوي هذا النص ــ ربطه في هودية ، وفي نص ثان ينطقها الراوي ان ــ الفرعون ربط عبده في « يهودية » .

ويبدو انها كانت بمثابة آلة تعذيب مرتبطة باليهود واساليب تعذيبهم من قبل فراعين مصر ، مع الاخذ في الاعتبار ان هؤلاء الفراعين كانوا في تلك الفترة ، دخلاء على حكم مصر .

المهم ان ذلك الملك مضى يعذب وينكل بعبده ليل نهار ، الى ان ــ ظهر ــ له سيدنا موسى ورثى لحاله، وطلب من الملك ــ او الفرعون ــ الرحمة له فرفض ، بينما اخبره العبد مستكينا «كله حايزول».

ومرت الايام، الى ان اصبح العبد ملكا عن طريق حذر او لغز تتردد تنويعاته كثيرا في الحكايات المصرية ، والى حد في نظائرها العربية، وهو حلول طائر في فمه خيوط من الزمرد، وحطه على راس ــ العبد ــ الذي اصبح ملكا حكم قومه الى ان مات ، وزار قبره موسى، واخبره عن حاله ، فاخبره بانه في نعيم دائم .

فمن سمات موسى في الشفاهيات السامية ، انه دائم التواجد والحضور لانصاف المظلوم والمقهور والمنكوب ، كما ان له خاصية الخلود، مثله مثل مرافقه عبر الرحلات العبورية الخضر ، الا ان ما يميزه على الخضر ــ وغيره من الشخصيات الطقسية ــ هو خاصية ظهور ــ الرب ــ له وحواره معه ، الذي قد ينم في بعض النصوص عن تقريع الرب له ، كما في « موسى والزانية » التي حملت في الحرام ووضعت طفلا ــ سفاحا ــ في خلاء الجبال ، وحرقت المولود ودرته في الهواء » .

وفي بكور اليوم الثاني، خرجت لموسى في خلا الجبال وجلست له في طريقه وسألته « رايح فين ؟ » قال موسى « رايح اقابل ربنا ، عندي

ميعـاد معاه » .

فطلبت منه ان يسأل لها الاله كيف تتصرف بعد ان حملت ـ حراما ـ وولدت وحرقت ابنها . وعندمـا ينسى موسى ـ او هو يتناسى ـ بدافع الحياء والخشية ان يسأل لها الرب ثلاثة مرات، يبادره الرب ذاتـه فـي المرة الرابعـة « يا موسى لما بني آدم يحملك امانة توصلها لـي . لمـا لا توصلهـا ، وعندمـا برر لـه موسى خشيته ، قال له الرب« انت اختشيت من البنت الزانية دي ، وهيه ذنبهـا اخف من ذنب امك » .

كما يحفظ هذا النص الشفهي (١) «موسى والزانية » الاسم ـ العربي ـ لوالد موسى « ابو بكر (٢) » .

وحكايـات موسـى بشكـل عام مـع الخطايـا والزانيـات لا تنتهي ، خاصـة النص الذي اورده بكثـرة الكتـاب الكلاسيكيـون العرب ، مثل الطبري والمقريزي والثعالبي ، عـن الزانية ـ الحامل ـ التي استعان بها قريبة الغني صاحب الكنوز « التي تسد عين الشمس » قارون لكي تواجه موسى يومـا وهـو يخطب في النـاس فـي الاسواق قائـلا « لا تكذب لا تزنـي » ، وهنـا تعترضه الزانيـة معرية بطنهـا وفرجهـا على رؤوس الاشهاد ومواجهـة بانه « يخطب في النـاس لا تكذب لا تزني، وابنك في بطني يا موسى » .

اما المرادف الشفاهي لهذا النص الذي جمعته من احدى القـرى المتاخمة لبحيرة قارون بالفيوم ، فيرد على النحو التالي :

« كان قارون صاحب بركة (٣) قارون، والقصر اللي جنبهـا راجـل فقير ، اتجوز سيدة قريبة لسيدنا موسى . وكانت تلـك السيدة على علم بعلم الكيمياء ، فتعلم منهـا صناعـة الذهب ، واصبـح غنيـا عنده مـال يسد عين الشمس . وكان موسى يخطب في الناس قائلا : الزاني(٤) يتجلد مثـل الزانيـة »

وتستمر الحكايـة الشفاهية بعد ذلك دون اختلاف كبير عن نظيرتها المدونة ، في مواجهـة الزانية له .

لكـن ما يلفت النظر في نصوص الحكايات الاستطراديـة التي تحكى

(١) جميع هذه النصوص منشورة كما هي اخر هذا الكتاب .

(٢) اما في الكلاسيكيات الاسلامية فيذكر باسم «عمر بن قاهات بن لاوي».

(٣) اي بحيرة قارون بالفيوم، اما القصر المشار اليه والمعروف فعـلا باسم قـصر قارون فهو قصر اللابيرنت التاريخي الذي وضعه هردوت (٣٠٠ حجرة) .

(٤) بما يشير ويعني، انه حتى عصر موسى، لم يكن يحق جلد او رجم الزاني، وقصر الرجم على الزانية الانثى .

عـن صراع موسى مع فرعون الذي ولد فـي عصره ، وكيف ان والد ذلك الفرعـون كان اسمه « مصعب » وانـه كان راعيـا للابقار والاغنام ، الى ان تنبأت له بقرة ، بأن مولودا من صلبه سيكون من اهل جهنـم . وتحققـت النبوءة، حين ولدت زوجته ولدا شقيـا اسمه «عون»، عندمـا كبر اصبح قاطعـا للمقابر وفرض اتاوة على الموتى ، الى ان صارع ملك مصر وقتله واستولى على العرش ، واصبح ـ فرع : عون ـ او فرعونا ، ووصل بـه التكبـر الى حد انه طالب شعبه بالسجود لـه قائلا : ـ انا ربكم الاعلا .

الى ان رأى رؤيا مزعجة، فذهب الى ـ (١) المعبرين ـ وعرف منهم بخبر الولد الذي سيولد لينتقم منه ويسلبه عرشه، وامر بقتل عشريـن الف طفـل .

ويلاحظ هنـا ان هذا النص يحفظ لوالد موسى ـ عمران ـ انـه كـان يعمل وزيرا لفرعون ، ملازمـا لـه ، حتى انه ليلة مولد موسى ، اخبرت السحرة فرعون وحددت له، ان الولد الذي ولد في تلـك الليلة هو قاتله ، حتى هاجمت جيوشه بيت الوزير ، فالقت ام موسى وكانت تخبز بابنها في شروقة الفرن ـ المشتعل ـ وحين اخرجته عقب التفتيش كـان يضحك لها، الى ان صنعت له صندوقا « على قده » ، والقت به في النيل (وهي كما يلاحظ جزئية اوزيريسية) .

لكن الام خبأته في جحر او غار مهجور (٢) ، حيـث كـان يستحلب بـازاء شخصيـة الام ، فلقـد حاول مرارا انتزاع الطفل ـ موسى ـ من احضانهـا ليقدمه لفرعون بنفسه لكي يقتله .

لكن الام خبـأته في جحر او غار مهجـور ، حيث كان يستحـلب اصابعه لبنا وعسلا ، على عادة الاطفال القدريين .

كذلك يلعب لبن ثدي الام ، دوره السحري ، كأثر ـ او اتر ـ فـي سحـر المشاركـة كشيء مستمر الاتصال ، بحسب تفسير فريزر .

فقبل ان تضعه الام في الصندوق ، طلبت من الله ثاكلة ان يرد لها لبن ـ الدفاتي ـ الـى ان استقر الصندوق بالطفل داخل سراية فرعـون المشادة على النيل ، وكيف انـه اشفى ابنة فرعون من برصها .

كذلك يكشف لنا هذا النص، كيف ان زوجة فـرعون ـ السيـدة آسيا ـ كانت على نقيضة، وانها كانت « مسلمة » ، وانها كانت جميلة ، وكانت بكرا « لهـا ٣٦٠ ضفيرة يعجبوا العايقين » ، بعدد ايام السنـة

---

(١) اي المعبرين، ويبدو انهم اشتهروا بالكهانة وتفسير الرؤي، كيوسف الصديق.

(٢) مثلما خبات ايزيس طفلها حوروس، في احراش الدلتا .

القمريـــة .

بل هي نجحت في الدفاع عن طفولة موسى مرارا وانقاذه من فرعون وجنوده ، حين ـ نتف ذقنه ـ وحين كسر له السرير الذي ينامــان سويا عليه، نصفين . ثم كيف ان «طقــة » ـ اكل ـ فرعون، كانت جملا صحيحا يقف في صنيته مستويا محمرا . ثم كيف صرخ موسى في الجمل كما لو كــان بطــلا شعبيا ، يستصرخ شعبه محرضا :

« انت منتظر لما يأكلك . قوم على حيلك » . فما كــان من الجمل الا ان انتصب على قوائمه على مشهد من فرعون المذهول ، هائجا ، وتــرك الصينية وجرى عبر ردهات القصر . وكان ان انطلق موسى بدوره جاريا، فارا ـ كمــا يذكــر النص ـ الى بلد اسمهــا « مديــن جنب جبل الطور » وهي سينـــاء التي التقى فيهـــا بشعيب (١) . وهـــو شيخ كفيف ، ثـم كيف رعى (٢) غنمه ـ١٢ الف رأس ـ لمدة ثمانيـــة اعوام واتفقا على ان يأخذ شعيب ذكورهـــا ، بينمـــا يقتصر موسى على الاناث .

وهنا يرسى النص ملامح موسى ، كتاجر سامي ، مثله مثل سالفــه يعقوب مع خاله لا بان بن ناحور، الذي اعتبره فريزر مثالا للتاجــر السامي الحريص على الكسب .

فلا يغفل هذا النص الشفهي الذي جمعته من رواة الفيوم ، كيف ان اختيار موسى لاناث الغنم ، ملأ الدنيـــا عليه بالغنم والثراء .

كذلك لا يغفل النص الشارة السلفيـــة لموسى ، وهي عصاه التـــي اهداها لــه شعيب قائلا « دي عصـــا آدم اللي جبرين نزلو بهـــا من الجنة، حافظ عليهـــا يا موسى دي بالليــل تغنيلــك وتسليك وتنور لــك طريقك وتنصرك على اعداءك » .

ويمتاز هذا النص باحتفاظه باحداث وجزئيات مضافة على ما ورد ، سواء في المدونـــات العبرية او الاسلامية ـ فيما بعد ـ من ذلـــك ولادة زوجة موسى ، حيـــن اخذهـــا عائدا الـــى مصر ، بجوار جبل الطــور ، وحيـــن تركها ليبحث لها عـــن ماء او نار ، الى ان ظهر له الرب على هيئة نار ، وحادثه وطلب منه الذهاب لهداية فرعون . وكيف ان عجز لســـان موسى ، يرجع الى جزئيـــة الجمرة والتمرة ـ التي جعلته يلثغ « بل انـــا ثقيل الفم واللسان » ، حيـــن طلب مـــن الرب اصطحاب اخاه هارون ،

---

(١) وهو شعيب ـ او يثرون ـ بن نويت بن رعوائيل بن مر بن عنقاء بـــن مديـــن بـــن ابراهيم، وكان مبعوثا الى اهل مدين ـ الطبري . تاريخ الرسل والملوك تحقيـــــق محمد ابو الفضل ابراهيـــم .

(٢) وفي بعض النصوص الشعرية ـ البالاد ـ انه كان يرعى الغنم عند قبائـــل بني سهل.

الذي كان ما يزال يعمل في قصر فرعون ليلا ، حيث كان فرعون نائما ، وهارون يسهر على حراسته .

وكيف قتل فرعون سحرته السبعين(١)، بعد ان تفوق عليهم موسى ـ بعصاه، فقطع ايديهم وارجلهم وصلبهم، بعد ان آمنوا ـ وكبيرهم الاعمى ـ بموسى ، لتفوقه عليهم كساحر .

وحين احتجت السيدة اسيا وماشطتها على صلب السحرة والكهنة، القى بها داخل « صندوق مليء بالزيت المغلى ومعها اولادها وماشطتها » .

بل ان الاختلاف والاضافات التي يجيء بها هذا النص ، عما سبقه من مدونات عبرية وعربية ، تصل الى اللعنات العشر ، ومغزاها خيانة فرعون وخبثه لوعده وكذبه . وجزئية الكذب ، اكثر ـ صدقا ـ واتساقا وانتماء لملامح التراث المصري الفرعوني منه بالنسبة للسامي .

فكما هو متفق عليه ، فان حكايات الصدق والكذب الخرافية والمحلية ، على السواء تشكل ملمحا تراثيا مصريا رئيسيا ، مع الاخذ في الاعتبار ان تراث الحكايات المصرية في عمومه يعتبر واحدا من اكبر الخزانات ـ او المخزون ـ العالمي ، جنبا الى جنب مع الآري الهندي والسامي العربي .

واشهر هذه الحكايات، الفابيولا ـ البردية ـ التي اكتشفت عام١٩٣٠ عن الصدق والكذب ، وكيف انهما كانا اخوين تنازعا فيما بينهما على عادة نظائرها من الحكايات الخرافية .

ويمكن القول باني جمعت مجموعة لا بأس بها من تنويعات ، النماذج الام ـ البردية المصرية ـ التي ما تزال تعيش على الشفاه .

كما يلاحظ بوضوح تام ان الصراع بين موسى وفرعون صراع، عقائدي اضفى عليه الراوي المسلم طبعا انه صراع بين الكفر والايمان او الاسلام .

يضاف الى كل هذا تأكيد شخصية موسى ، كبطل شعبي ـ محوري ـ يناصر الضعفاء ويجمع حين ينادي على الرحيل او الخروج ٧٠ او ٨٠ الف من مناصريه ، اي اليهود المضطهدين .

كما يلاحظ ان للارقام التي ترد في هذا النص، دلالتها الاسطورية

---

(١) وتذكر بعض المصادر، انهم كانوا من قرية «ابو صير» بالفيوم، وحيث توجد مجموعة من القرى، منها الهوارات، واطسا بلدة الكاتب صلاح حافظ، وقرى ـ دمشقين ـ الكابيين، فديمين ، السيليين ـ .

والتقويمية القمريــة وليست الشمسيــة مثل الرقم ٣٦٠ .

وفي النهايــة يرجح هذا النص الاحتمال ـ الشائع ـ القائل بان ، الفرعــون الذي كان يحكم مصر في تلــك الفترة ـ منتصف الالف الثاني ق.م كان ساميا ،ولنقل أسيويا ـ دخيلا ـ بعامة .

من ذلك اسمه الذي يرد في المصادر العربية ، على انه كان يدعــى «الوليد بــن مصعب» ، يضاف الى هذا جزئيــة ذقنــه الطويلة، وفكــرة او مهانه « نتف الذقن » ، واكل لحم الجمل ، وصلب اعدائه من سحــرة وكهنة ، الى آخــر مــا يضفيه عليه النص من ملامح ساميــة اكثــر منها مصريــة حاميــة .

اما فيما يتصل بجزئية طرح الطفل موسى في الماء ـ النيــل ـ التي ترد بكثر في الاساطير السامية وغير السامية، مثل سرجون ملك بابل ـ القرن الثالث ق.م ـ وتراخان ملك جيلجيت في الهملايا ، ثــم المسيح. فأجدني اميل الى اعتبارها فكرة مصرية ، حيــث ان لروح النيــل حابي او اوجيجا، قدرة ايصال الغريــب بلده او شاطئــة الامن ، كما حــدث مــع اوزيريس، وحسن المغني في بالاد حسن ونعيمة (١) وهو ما يخالف تفسير فريزر في ان «طرح الطفل في الماء اثر ولادته لاثبات شرعية بنوة الطفــل او عدم شرعيته، فاذا طفا الطفل فانه يكون ابنا شرعيا والا فانه يكــون ابن زنــا » .

وفي بعض البالاد التي جمعتها من مصر الوسطى، ما ان نزلت اسيا ـ زوجة فرعون ـ الثمانين سلمة الموصلة الى النهر، ووجدت الصندوق الذي بداخله ـ الطفل ـ موسى ، حتى :

« بشرت بالماء وقالت .

من انت، من انت، من انت .

فهمس موسى في اذنها قائلا :

«انا صاحب الحفلة اللي تعلمي بيها»

لا يخفيك شوري ولا قولي .. انا موسى»

وهنا تتخذ السيدة اسيا مكان الام، بالنسبة لموسى، منذ ان انتزع مــن صدر امه، واحيل بينه وبين لبنها .

وهي جزئية ترد بكثرة وصاحبت مولد الالهة والابطــال ، روميلوس،

---

(١) عقب قطع راسه وفصله عن الجسد ، وعلى هذا النحــو عالجتــه فــي كــلا النصين، التراجيدي الذي اخرجه كرم مطاوع عــام ١٩٦٤ ، والفارس الاقرب الى كوميديا الفــن المرتجلة، الذي اخرجته د. ليلى ابو سيف عام ١٩٧٦ ـ شوقي عبد الحكيم .

وزيوس الكريتي، وليوليياو، وابراهيم الخليل، وسميرا ميس.

ففي كل الحالات ينتزع الطفل من امه، وغالبا ما تأخذ مكان الام، عه او سرب من الحمام، او راعي، ثم في حالتنا مع السيدة الالهة آسيا، فهي المرحلة التي يجتازها الطفل ـ البطل القدري ـ بادئا بالتخلي عن الام والتي يفسرها فريزر ـ بقتل ـ الام، مرورا الى القدسية او البطركية، تبعا لشعائر الانتقال الاخرى، المصاحبة لنمو الطفل، وهو الاصطلاح الذي ارساه للمرة الاولى ارنولد فان جنب، مشيرا الى «الشعائر المصاحبة لكل تغيير مصاحب ـ للبطل ـ في المكان او المكانة او الوضع الاجتماعي او العمر «مثل ما صاحب موسى من اطوار، بدءا ببطن امه وكيف كان يختبيء من وضع لاخر، تبعا لتفتيش ايدي جند فرعون ـ ونمرود في حالة سالفة ابراهيم ـ ، ثم انتزاعه من صدرها والحيلولة بينه وبين لبنها، الى التعميد بالماء، وقصر فرعون، وقواه النامية كبطل مدهش، في صراعه مع فرعون، لحين هروبه الى سيناء للحصول على الشارة او الطوطم السلفي وهي العصا، ومخاطبة الرب، والعودة لفرعون، ثم اللعنات او الضربات العشرة التي الحقها موسى واخاه ـ الكاهن ـ هارون بفرعون وطبقته ـ من الكفرة ـ وجنوده ـ وليس المصريين ـ كما تشير وتجمع المصادر الدينية من عبرية وعربية، بالاضافة طبعا الى الاسلامية .

وعبر شعائر انتقالاته، يعود موسى الى مكالمة الرب، طالبا عونه من فرعون ، ذلك الذي :

يفعل ولا يبالي .
يفرد بطون الحوامل .
ويقتل الاطفال .
ومنك لا يبالي .
(لحين الخروج الذي يرى البعض انه تم عبر برزخ السويس .

★ ★ ★

ويقال ان موسى لم يحكم القبائل الاسرائيلية ، منذ الخروج الى سيناء كملك او امير، اكثر من كونه قاضيا او كاهنا اي بطرق ، او شيخ قبيلة، اذ ان طالوت كان اول ملوكهم .

ولا بأس هنا من الخروج قليلا عن موضوعنا، للتعرض السريع لهذا التراث العبري السامي، خاصة وموضوعاته وجزئياته، ستطالعنا كثيرا من النصوص التالية .

فكان يشوع بن نون اول مؤسس لاسرائيل، وتروي اساطيرهم

المصاحبة للفتح واغتصاب ارض فلسطين عقب موت موسى ، تاريخا غيبيا غاية في الغرابة والتعقيد ، منها ان يشوع اقام بهم في التيه او سيناء ثلاثة ايام ، الى ان جاء بهم الى نهر الشريعة الذي هو احد افرع نهر الاردن في العاشر من نيسان من السنة التي توفى فيها موسى، ولما لم يستطيع عبور نهر الاردن هذا، امر حاملي تابوت العهد «الذي فيه الالواح ـ الشرائع ـ بان ينزلوا الى حافة الشريعة، فوقفت ـ مياه ـ الشريعة حتى انكشفت ارضها، وعبر بنو اسرائيل بعد ذلك «ثم نزل بهم يشوع فحاصر اريحا » وصار في كل يوم يدور حولها مرة واحدة، وفي اليوم السابع امرهم بان يطوفوا حول اريحا سبع مرات وان يصوتوا بالقرون ـ الابواق ـ فعندما فعلوا ذلك، هبطت الاسوار ورسخت وتساوت بها، ودخل بنو اسرائيل اريحا بالسيوف وقتلوا اهلها» (١) ، وكانوا خليطا من الامورين ـ ١٢ ملك ـ والفرزيون والكنعانيون والجرجاشيون والحويون واليبوسيون، ثم سار بهم يشوع الى نابلس «الى المكان الذي بيع فيه يوسف، ودفن عظام يوسف هناك» .

فيقال ان موسى كان قد استخرج جثمان يوسف (من نيل مصر) واخذه معه الى التيه، فبقي معهم اربعين سنة التيه، الى ان تسلمه يشوع عقب موت موسى .

وبعد ان تملك يشوع فلسطين وفرق عماله على مدنها، وبعد ان حكم الاسباط ٢٨ عام، مات ودفن في موضع يقال له كفر حارثة ، وفي تاريخ ابن سعيد المغربي «ان يشوع مدفون بالمعرة، وخلفه فنحاس بن هارون ابن عمران، وطالب بن يوفنا»، فكان فنحاس بن هارون هو الكاهن المنحدر من سبط لاوي، وهي القبيلة التي نوطت بها الكهانة، وسدانة بيت المقدس، مثلما كانت قبائل جرهم هي سدنة الكعبة، عند العرب الحجازيين بيدهم مفاتيحها، وعنهم توارثت قريش الكهانة وسدانة البيت .

وتقليد حصر الكهانة والاشتغال بالامور اللاهوتية في قبيلة او سبط، تقليد موجود بكثرة عند كافة الامم السامية وغير السامية، مثل كهنة امون في مصر، والكلدانيون ـ اقدم سكان بابل في العراق، كذلك قبيلة او سبط الماجي عند الفرس الاريون، المجوس .

فكان فنحاس بن هارون هو الكاهن المقدم على الحاكم، الذي وقع اختياره من تحالف هذه القبائل، ومعظمهم من الكلبيين.

ويقال انهم عضوا وعبدوا الاصنام في عهد فنحاس بن هارون هذا،

---

(١) يشوع ٢٤

فتسلط عليهم وتملكهم كوشان ملك الجزيرة ـ جزيرة قبرص ـ وقيل بل كان كوشان المذكور ملك الارض، وكان من ولد العيص بن اسحق، فاستولى على بني اسرائيل واستعبدهم ثمان سنين « بعدها تولى امرهم احد المنحدرين من سبط يهوذا فعقد صلحا مع صاحب الجزيرة، واستمر حكمه فيهم اربعين سنة، وبعد وفاته، عادت القبائل الاسرائيلية الى ارتكاب المعاصي وعبادة الاصنام، فتملكهم (١) «عفلون ملك مواب من ولد لوط» وحكمهم لمدة ١٨ عام، الى ان رسى الحكم فيهم لـ «اهوذ» من سبط بنيامين لمدة ثمانية سنين، وخلفه «شمكار» الذي اعقب وفاته وقوع الاسرائيليين في ايدي احد ملوك الشام، واسمه «يابين» الذي ترد خرافاته ومأثوراته عن البغض وكذا نكائده وشروره بكثرة، فاستعبدهم لمدة عشرين سنة طحنهم فيها طحنا ، وحوله نسجت عديد من الخرافات والحكايات المتواترة التي ما تزال تحفظ له اسمه وهو «يابين» او «بمعنى الشؤم مرادف الكوارث والبلاوي ، الى ان قام فيهم حاكم من سبط «نفتالي» يدعى «بارق» فقتل البين بمساعدة امراة عاتية تدعي «دبورة» كانت قاضية عليهم، فقهرا البين او سيسرا (٢)، وحكما اسرائيل اربعين عاما.

وتعتبر هذه القاضية الكاهنة «دبورة» اقدم شاعرة في تاريخ الاداب العبرية، ولقد انشدت قصيدة معروفة باسم «اغنية دبورة» تعد اقدم نصوص الاداب والميثولوجيا اليهودية فيقدر عمر اغنية دبورة بحوالي ١٢٩٦ عام ق.م. (٣) .

وموضوع القصيدة، حول ذلك النصر الذي احرزوه على الكنعانيين ـ الشوام ـ ، اذ ان امراة عبرية تدعى «ياعيل» تمكنت من قتل «سيسرا» ملك الكنعانيين، وفيها قالت دبورة «تبارك على النساء في الخيام ياعيل، طلب ماء فاعطته لبنا، في قصعة العظماء، قدمت زبدة . امدت يدها الى الوتد، وضربت سيسرا، وسحقت راسه، شدخت وخرقت صدغه. وبين رجليها انطرح سقط اضطجع » .

لكن بعد هذه الفترة عادوا الى الاغراق في الوثنية بلا حاكم لمدة سبع سنين،الى ان غزاهم الكلدانيون المديانيون او الاسماعيليون « ولانه كان لهم اقراط ذهب لانهم اسماعيليون» واخضعوهم سبع سنين،فخلصهم «جدعون» وحكم اربعين سنة، وتمثل دور جدعون هذا في انه حال

---

(١) اردني . (٢) قضاه ٥ (٣) قضاه ٤ ، ٥

دون تدخل الميديانيين (١)، وكانوا ايضا خليطا من قبائل عربية وعبرية، منحدرين ـ اسطوريا ـ من رحم «قطورة» التي تزوجها ابراهيم الخليل، عقب وفاة سارة، ومنها جاء هؤلاء المديانيون، الذين تصدى لهم جدعون، دون تسربهم داخل الاسرائيليين او الاسباط .

كما ان جدعون اخر انتقالهم الى الملكية، ورفض تقلد التاج الى ان مات. وخلفه ابنه «ابيمالك». ثم انتقل الحكم الى سبط «يشوخر» لمدة ٢٢ عاما، اغرقوا بعدها في ارتكاب المعاصي مما دفع بهم الى ايدي العمونيين من بني لوط لمدة ١٨ سنة، الى ان ـ خلصهم احد رجالهم ويقال له «الجرمي» فطرد اللوطيين «وقتل من بني عمون خلقا كثيرا» وحكمهم ست سنين .

«وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر في عيني الرب، وعبدوا البعليم والعشتاروث ـ جمع عشترت ـ والهة ارام ـ والهة صيدون ، والهة موآب، والهة بني عمون، والهة الفلسطينيين، وتركوا الرب ، فحمى غضب الرب على اسرائيل،وباعهم بيد الفلسطينيين،وبيد بني عمون «وانتقل الحكم الى سبط يهوذا، فحكمهم رجل يقال له «ابصنوُ سبعة سنوات ، وخلفه «الون» من سبط زبولون لمدة عشرة سنوات، وخلفه «عبدون بن هلال ١١٣٠ ق.م من سبط افرايم بن يوسف ، ثمان سنين» ومن جديد تفتت شملهم، فتملكهم الفلسطينيون لمدة اربعين عاما ، الى ان خلصهم « شمشون بن مانوح من سبط دان . وكان ـ لشمشون قوة عظيمة، ويعرف بشمشون الجبار فصد الفلسطينيين، ودبر بني اسرائيل عشرين سنة ثم غلبه اهل فلسطين واسروه ودخلوا به الى كنيستهم، وكانت مركبة على اعمدة ، فامسك العواميد وحركها بقوة حتى وقعت الكنيسه، فقتلته وقتلت من كان فيها من اهل فلسطين . وكان منهم جماعة من كبارهم «بعدها ظلوا عشرة سنوات بلا مدبر، الى ان ال الحكم مرة ثانية الى سبط لاوي، فملكهم علي او «عالي بن هارون بن عمران» ويقال انه كان حاكما صالحا، دبر امرهم لمدة اربعين سنة، وخلفه صموئيل النبي لمدة ١١ عاما وبهذا انتهى حكم القضاة او دولة القضاة التي حكمت اسرائيل لمدة ٤٩٣ سنة منذ وفاة موسى الذي اتخذ بداية للتاريخ اليهودي .

وتجيء بعد ذلك دولة ملوكهم، فملكهم «شاول وهو طالوت بن قيس من سبط بنيامين، ولم يكن طالوت من اعيانهم، وقيل انه كان راعيا وقيل سقاء، وقيل دباغا، فملك طالوت سنتين، قاتل خلالها جالوت احد جبابرة

---

(١) من اردنيين وسكان سيناء . (٢) قضاة ٨ .

الكنعانيين، وكان متملكا على بعض جهات فلسطين «وكان من الشدة وطول القامة بمكان عظيم ، فلما برز للقتال لم يقدر على مبارزته احد» وتجيء بعد ذلك فكرة او تضمينة الاله او البطل المحجب، ذلك الذي لا يمكن اختراق جسده وقتله، الا بمواصفات معينة كأن يضرب مرة واحدة لا غير، « ضربة الرجال ما تتناش» مثلما يحدث بكثرة شديدة في خرافات الجان والخوارق او كأن يكمن مقتله في موضع معين من جسده، مثل كعب اخيل او كأن يعلو رأسه موسى وقص الخصلات السبع من شعر شمشون او ان يصاب البطل بين عينيه، او يضرب بالعصا «التي في اخرها راس الثور» كما في الاساطير الفارسية، كما قد يكمن قتل البطل في تابو معين .

واشار فريزر الى وجود هذه الجزئية في ملحمة الملوك للشاعر الفارسي الفردوسي، خلال الصراع بين رستم بطل الفرس، وخصمه اسفنديار فكانت سهام اسفنديار لا تؤذي خصمه رستم، ذلك لان زرادشت كان قد حجَّب جسده، ضد كل اخطار اعدائه، الى ان دل طائر الرب اسفنديار، على مقتل عدوه، وذلك بنشر النباتات في عينيه واصابته .

وفي هذه الملحمة العبرية، عن صراع طالوت وجالوت والتي مهدت لظهور النبي الملك داوود الى الوجود كقاتل قدري محدد، كذلك البطل الاسطوري المحجب جالوت جبار الكنعانيين ـ الفلسطينيين ـ، فيقال ان النبي صموئيل «ذكر علامة الشخص الذي يقتل جالوت، فاختبر طالوت جميع عسكره، فلم يكن فيهم تلك العلامة سوى داوود» .

كما ان «طلسم» او «تابو» داود، تمثل في قتله لعدوه المحجب جالوت عن طريق انتقائه، او (١) «انتخابه خمسة احجار ملس من الوادي»، وتقدم داود مواجها عدوه جالوت ، وبيده عصا لا غير ، وكان قد سبق له رفض ارتداء ملابس الملك شاول وعدة حربه، حتى انهُ عندما واجه داود عدوه، الفارس المحجب جالوت استفزه جدا منظره، فصرخ في وجهه (٢) «العلي انا كلب حتى انك تأتي الي بعصا» .

وترد جزئية الاحجار الخمسة التي انتقاها داود وقتل بها عدوه في الميثولوجي العربي بكثرة شديدة، مثل الطبري والمسعودي والزمخشري وغيرهم ـ فتضيف الميثولوجيا العربية، ان الاحجار الخمسة كانت تمثل «الله وهارون والانبياء الثلاثة (٣). فمر بحجر فقال يا داود خذني فاجعلني

---

(١) ، (٢) صموئيل الاول ١٧ .

(٣) المسعودي «١» ص ١٠٧ الطبري «٢» ص ٧٠ ـ ٣٦٩ «٣» قصاة ٢ .

في مخلاتك تقتل جالوت، فاني حجر يعقوب، ومشى اذ مر بحجر اخر فقال يا داود خذني تقتل بي جالوت، فانا حجر اسحاق، فبينما هو ماشي مر بحجر فقال خذني فاني حجر ابراهيم» .

فكان صراع تلك القبائل العبرية الهابطة الى ارض الميعاد، حوالي اوائل القرن العشرين قبل الميلاد تحدوها اسطورة ابوية، تخطط لهم وترسم ارض«اللبن والعسل»في فلسطين المغتصبة مجالا لصراعهم الدموي المتواصل مع جيرانهم من السكان الاصليين او الوطنيين،وهم ما عرفوا بـ « الاقوام السبع» في ربوع الشام وفلسطين والاردن، وهي ما كانت تعرف قبلا بارض الكنعانية او كنعان الام، وطليعتها فينقيا او بلاد الاموريين، وبقية جيرانهم من آراميين وادوميين نسبة الى الرجل الاحمر ، العيص ابن اسحق، واللوطيين واشقائهم العمونيين والموابيين من رهط لوط وهم الذين خلفوا اسمهم على العاصمة الاردنية عمان .

وكان لمصر بالذات اليد الطولى كمؤثر حضاري راسخ، على طول شواطيء البحر المتوسط منذ اقدم العصور، الى جانب لجوء العبريين الى مصر والاقامة فيها اكثر من قرنين من الزمن قبل نزولهم واغتصابهم فلسطين الذي نحن بصدده .

بل ان هذه القبائل العبرية كانت تحت التأثير الحضاري العقائدي لسابقيهم من الكنعانيين والفلسطينيين وما يتفرع عنهم من اقوام وقبائل منذ خروجهم من مصر، ونزولهم المدن والدويلات الفلسطينية، بمعنى ان التأثير المصري انتقل الى الكنعانيين، وعنهم تواتر الى هؤلاء العبريين فلقد(١) «تركوا الرب اله ابائهم الذي اخرجهم من ارض مصر وساروا وراء الهة اخرى من الهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها»،بل انهم تزاوجوا بهم «فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لانفسهم نساء، واعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا الهتهم» .

بل ان هناك من يرى ان ثمة (٢) رابطة دموية محققة كانت تربط هذه الهجرات ، للقبائل العبرية، وانها كانت مزيجا لاصول دموية مختلفة من بينها الارامي والعبراني والكنعاني والعربي والمصري، ويرى اصحاب هذا الراي انه كانت هناك قبائل عبرانية . الا انها كانت (٣) ادنى منزلة من

---

(١) قضاة ٢ . (٢) مصر والشرق الادنى القديم . (٣) صموئيل الاول .

حيث وضعها الحضاري والاجتماعي، وهم من تعارف عليهم بالرهط الواطي «عبريم» .

وكانوا يقيمون خلف الاردن، ذلك بالاضافة الى البدو الرحل ، من الاشدوديين والادوميين والاسماعيليين وهم ايضا منحدرين من اصول ـ عربية ـ نصف عبرية، الا انهم تبادلوا الزواج بشكل اوسع بجيرانهم العبريين، مثل الموابيين والعمونيين، المنحدرين من لوط بن ناحور العبراني (١).

كما انهم حاربوا (٢) الهاجريين وخالطوهم بشكل متواصل، والهاجريون هم الفرع العربي المنحدر من هاجر ، كما هو معروف. وكانوا يقيمون بالاردن، فيقال انهم في ايام ملكهم شاول، الذي خلفه داود «عملوا حربا مع الهاجريين، فسقطوا بايديهم وسكنوا في خيامهم في جميع جهات شرق جاماد» .

ويجيء ذكر الهاجريين، او تلك القبائل الهاجرية ـ المستعربة ـ في احد اسفارهم الممنوعة (٣) هكذا «وبنو هاجر ايضا، المبتغون للتعقل على الارض وتجار مران وتيان، وقائلو الامثال، ومبتغو التعقل، لم يعرفوا الحكمة ولم يتذكروا سبلها » .

ويلعب تابوت العهد بالنسبة لهذه القبائل السلفية، دورا يفضي به الى انه كان بمثابة الطوطم السلف الاب، حافظ عهد الآباء، ومفتقد ذنوب الاباء في الابناء، كشعار القبيلة المقدس، يتقدم القبيلة الى ساحة القتال، ينتصر ويهزم ويأسر، ويوقع الشر باعدائه «لنأخذ لانفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من يد اعدائنا». وعندما سمع الفلسطينيون هتاف الاسرائيليين حول تابوت العهد، خافوا وقالوا «ويل لنا».

وذات مرة اسر ذلك الطوطم او تابوت العهد، ووقع في ايدي الفلسطينيين، حتى ان الاسرائيليين قالوا «قد زال المجد من اسرائيل»، اما الفلسطينيون فاخذوه ، الى بيت الههم داجون، المتوارث منذ السومريين اللاساميين ـ الالف الثالث ق.م. وداجون كان الها زراعيا عرف باله الحبوب ، اخذه الفينيقيون عن البابليين، وكانوا يرسمونه على نقودهم

(١) مع ملاحظة ان استناداتنا هي لغوية اثنوجرافية .

(١) صموئيل الاول

(٢) اخبار الايام الاول (٣) نبوءة باروك فصل ١ .

«ملتحيا خصلات طويلة من الشعر ، ممسكا بسمكة، وينتهي نصف جسمه الاسفل على هيئة ذيل سمكة،مغطاة بالفلوس او القروش،كما يبدو ان داجون في الميثولوجيا الفينيقية ، كان الها بحريا، روى عنه عالم الاساطير «فيلو الدمشقي» انه كان اول من عرف بخواص الحبوب الغذائية واخترع المحراث » .

الحاق تابوت العهد الاهوال بالفلسطينيين او العرب الاشدوديين ، وكيف انه كان يوقع بسكان مدنهم وكلما حل مدينة حل الذعر والاذى والاهوال، فكان تابوت العهد يميتهم ومن لم يمت معهم (١)، ضرب بالبواسير فصعد صراخ المدينة الى السماء» وبقي تابوت العهد عند الفلسطينيين سبعة اشهر .

وخلفت هذه الحادثة تضمينة متواترة وموجودة بكثرة لدى ميثولوجيا العرب الجاهليين، بل هي ما تزال تتواتر في تراثنا الشفاهي حتى اليوم، وتتصل هذه التضمينة بتقديس عتبات البيوت او مداخلها.

فذات مرة بكر الفلسطينيون فوجدوا الههم داجون «ساقط على وجهه على الارض، امام تابوت الرب، وراس داجون ويداه مقطوعة على العتبة، لذلك لا يدوس كهنة داجون وجميع الداخلين الى بيت داجون على عتبة داجون في اشدود الى هذا اليوم» .

خلاصة القول ان بقايا الحكايات والاساطير الموسوية والعبرية بعامة، يمكن الحصول على تنويعاتها، ومتناثرات مأثوراتها وجزئياتها، على طول رقعة بلداننا العربية سواء اكانت مدونة، او شفاهية، ما تزال الى ايامنا تواصل تواترها على الشفاه،خاصة مجموعة الحكايات او ــ بقايا الاساطير المتصلة ــ بشخصية موسى .

ومن هنا فمثل هذه التركة المغلفة بشعائر الانيمزم والروحانيات مجالي المستقبلي الوحيد، هو الفولكلور، بحكاياته ومأثوراته لا غير، ومعظمها سيطالعنا فيما يلي من نصوص مختارة ما بين حكايات خرافية، وبقايا اساطير، وحكايات فرفشة، واخرى تعليمية، وشعائرية .

حافظت قدر جهدي خلال سنوات جمعي ــ الميداني ــ لها ، على مجمل ابنيتها الخام او التلقائية .

★ ★ ★

(١) ص ١٥٨

الفصل الرابع عشر

النصـــوص

« نماذج منتقاة من الحكايات الشافهية » (١)

السمسايـة

مرة كان فيه ولد شاطر، راح البحر يصطاد، طلعتله سمكة : «قـال دي من نصيبي» . روح البيت السمكة اتقلبت بقت ملكة جميلة قوي، بنى لهـا سراية وعاش معاها، لحد ما في يوم وهية طالة من الشباك، الملـك شافها، قال : «عاوز دي» بعت نده لجوزها، عشان يطلب منه طلب يعجزه، وياخدها منه، قاللو : «عايز عنقود عنب يكفي الملك وجيش الملك» .

الشاطر روح البيت قال للملكة، بعتت جابت عنقود العنب من تحت الارض .

الملك استعجب. وطلب منه طلب تاني، قاللو : « يا ولد هاتلي (٢) طفل لسه فيه خلاصه يسامرني» .

رجع الشاطر البيت قال للملكة، بعتت جابت ابن اختها اللي اتولد امبارح، والشاطر خده وراح للملك، سندوه على الكرسي من هنا ومن هنا، قدام الملك، والطفل قال للملك : «المثل على الضيف والا صاحـب البيت» ، الملك قاللو : «المثل على الضيف» الطفل اتنحنح وقاللو :« انـا عمري ٦٠ سنة النهار ده، وزمان ايام الصبا، كانت امي جابت كتكوتيـن صغيرين، ضربتهم موتهم بالعصا، ما عدا كتكوت واحد، اتبطح ودمه نزل،

---

(١) مع ملاحظة عدم التدخل والمحايدة في حالة انتقاء النماذج والنصوص المنشورة، وكذا اعادة الصياغة الادبية او اللغوية لهذه النصوص الشفهية بالقدر المتاح .

(٢) طفل حديث الولادة توا .

فرشيت عليه شوية تراب، جافيهم نواية بلحة امهات، كبرت ونبتت، بقت نخلة، ومن حدف الطوب في النخلة، بقت ارض، حرتها وزرعتها سمسم، وفات عليه واحد وقاللي : «يا جدع الارض دي ما تزرعشي سمسم»، قعدت اجمع السمسم من الارض، لميته ما عدا سمسماية واحدة غابت من زكيبة من الزكايب، فالزكيبة قالت : « انا ما طربتشي الا ان جتني السمسماية» (١) .

الملك زعق وقال : «داكداب»، والطفل قاللو : «طيب انا كداب، وانت يا ملك عايز تاخد مرات الراجل من حضنه ليه يا ملك؟» .

الملك طق مات .

البنت حية

ابن ملك تحت الارض ، بيحب بنت واحد ملك .

لقى البنت ماشية في يوم في جنينة ابوها وحدها ، فقرب منها ، البنت سحرت نفسها فرخه ، وابن الملك سحر نفسه ديك وجرى وراها في الجنينه .

البنت اللي سحرت نفسها فرخة ، اتقلبت ـ فحل ـ رمان ، وابن الملك اللي ساحر نفسه ديك، راح يلقط حب الرمان ، ما عدا حبه انقلبت حية، وجريت ورا الديك ، لحد ما لحقته، ومصته(٢). قتلته.

بني آدم غلب القرد

راجل قرداتي عجوز ، عذب القرد اللي بيسرح بيه ، القرد قطع السلسلة وهرب ، دخل الجبل وفضل لحد ما قابل القرود .

القرود حاوطت بالقرد وسألته : « انت جي منين ؟ » قاللهم : « جي من البلاد اللي ساكنها البني آدم» . وقاللهم : «احنا بنقول على نفسنا ، احنا قرود، لكن مفيش قرد على ضهر الدنيا الا بني آدم» .

قالولو : « بني آدم ، يعني ايه بني آدم دا ؟ » ، القرد قاللهم : « عايزين تشوفوه ؟ » قالوا كلهم : « نشوفو » .

(١) تصنف هذه الحكاية بمنمنماتها كحكاية فشر .

(٢) بمعنى توحد الحية بالبنت ـ الانثى ـ الحية .

كبير القرود قاللهم : « انا حاروح اشوف بني آدم دا عامل ايه ».
راح قعد على الطريق على حافة الجبل ، لقى طور بيجري بسرعة، سأله : « بتجري من ايه » ، قاللو : « من بني آدم ، بعد شويه لقى جاموسه ، هايجه بتجري ، القرد سألها : « بتجري من ايه ؟ » قالتلو : « حايكون من مين ، من بني آدم » ، وبعد كده لقى حمار ، وجمل بيجري ويهجن ، وعرف ان كل الدنيا بتجري من بني آدم .

وبعد فترة ، لقى الراجل القرداتي العجوز ، ماشي سايب ، فكبير القرود سأله : « انت مين ؟ » ، قاللو : « انا بني آدم » ، القرد قاللو: « انت اللي الدنيا كلها بتجري قدامك ؟ » الراجل قاللو : « ايوه انا ».

والقرداتي عزم على القرد « تعالا نشوي دره » القرد قام ومشى معاه، قعدوا تحت شجرة ، والراجل قام جاب الدره ، وولع النار ، ولف من ورا القرد ورمى عليه الحبل ، وربطه في الشجرة ، اللي كان قاعد ساند ضهره لها، وسحب خرزانة سويس ، وضربه لما هرا (١) ضهره ، وعمله كمامة ، وخده على البيت ، ربطه في دار مكشوفة ، ونده على مراته : « يا بت سخني مية الدست (٢) » وجاب الميه المغلية وهرا للقرد ضهره، فالقرد ما تحملش المية المغلية ، راح قاطع السلسلة ، وطلع جري على الجبل . القرود اتلمت عليه ، لقوه مسلوخ من المية المغلية ، ولما سألوه على بني آدم واللي حصل ، قاللهم : « اسكتوا دا مجري الدنيا قدامه ».

القرود خدوا بعضيهم ، وراحوا للراجل الغيط ، عشان ينتقموا من اللي عمله في كبيرهم .

الراجل اول ما شافهم، نط طلع الشجرة، ومسك عصا، واللي يشب من القرود، يضربه بالعصا، يطلع يجري.

القرود فكروا في فكره ، ركبو على ضهور بعض ، فوق كبيرهم ابو ضهر مسلوخ والراجل فوق الشجرة ، لما شاف انهم حايحصلوه ، وان القرد اللي سلخه بالمية المغلية ، هو اللي تحت ، صرخ : « يابنت سخني الدست » القرد افتكر وخاف ، وطلع يجري ، والقرود وقعت عليه ، وطلعوا جري .

وبني آدم غلب القرد .

---

(١) ظل يضربه الى ان اهترأ ظهره .

(٢) وعاء كبير لتسخين الماء .

بمالي افعل ما بدا لي

واحد غني كاتب على دكانه « بمالي افعل ما بدا لي » (١) الملك والوزير فايتيـن بشوفو الرعية ، الملك قرا المكتوب ، ودخل على الراجل الغنـي سأله : « صنعه والا خلو بال ؟ » الراجل الغني قاللو : « صنعه » ، الملك قاللو : « طيب ياراجل انا حاجوزك بنتي ، ومن غير ما تشوفهـا ولا تتصل بهـا ، عايزك تخلف منها في ظرف سنة ، ولو اللي قلتـه دا ما نفدشى حاسيفك » والملك خـد الوزير ومشوا جوزوا الراجل لبنت الملك .

الراجل الغني اتقهر وقفل الدكان وروح ، قابل واحدة عجوزة ، ولما سألته عـن سبب زعله حكالها على اللي حصل مع الملك .

العجوزة طمنته ، وراحت عملت عروسه دهب بطول الراجل ،ودخلته فيهـا ، وقفلت عليه من جوه ، وحملت العروسة وراحت على سراية الملك دخلت عليه وقالتلو : « يا جلالة الملك دي كل ثروتي اللي حيلتي من الدنيا، العروسـة دي ، وانا طالعـة الحجاز ، وخايفة عليها ، وقلت لنفسي انا ما آمنش حد الا الملك يشيلها لي لما ارجع » .

الملك كـان باني لبنته دي سراية جوا البحر، وما فيش انس يتصـل بيها ولا يروح عندها ، فقال « دا امن مكان اشيل فيه عروسة العجـوزة الدهـب » ، وبعت العروسة على هناك .

ولما الليل روق، الراجل الغني فتح العروسه من جوا ، وطلع منها، بنت الملك خافت ، طمنها وقاللها : « ما تخافيش انا جوزك » وحكالهـا الحكاية ، ووراهـا ورقة الجواز ، فالبنت فرحت بيه ، ونام معاها فـي الليلة دي ، وحملت منه ، وبعـد سنة ولدت ، وهوه خد المولود وراح حطه في حجر الملك . استعجب وقال « صحيح المال يفعل » (٢) وعفـا عنـه وصبـح نسيب الملـك .

الصمت حكمـة

ملك انجب من الدنيا ولد واحد ، وكل الناس يقولولو : « دا ولـد عبيط اهبل » الى ان كره الوالد ابنه، وقالو لو : « داما بيتكلمش ابـدا » وشاروا عليه : « انت لازم تموته » الملك نده لوزيره ، وامره بانه يأخـذ

---

(١) بمالى افعل ما اريـد .

(٢) المال يصنع ويفعل المعجزات .

الولد يدبحه في الجبل، ويجيبله منه فنجان دم .

الوزير خد الولد ، ونزل فسحه في المدينة وفاتوا على دكان العطار والنجار والجزار ، زي ما الولد طلب منه ، ولما سأله ، الولد نطق قاللو : « دكان العطار آخد منه الصبر ، ودكان النجار آخد منه الصمت .ودكان الجزار ، عشان كل دبيحة معلقة من عرقوبها » .

الوزير كتب اللي قاللو الولد في مكتوب، وحط المكتوب في جيبه.

ولما دخلوا الجبل ، الوزير نام وترك بندقيته جنبه . فات طير من فوق راسهم وقال : «كاك» الولد خطف البندقية ، واصاب الطير في مقتله، فالوزير قام من النوم مفزوع، سمع الولد بيقول :

الصمت حكمة والسكات سلامة .

ولولا زعقة الطير، ما كان صابه ندامة.

الوزير قام ملا فنجان دم من دم الطير ، وشووه واكلوه . واخد الولد من ايده ، وخبأه عنده في سرايته . ورجع للملك بفنجان الدم ، وقاللو : « موته والدم آهو » .. الملك سأل « ما تكلمش » الوزير طلع المكتوب، وقاللو : « اتكلم » وعطاه المكتوب الملك قرأه ، وصرخ في الوزير: « اسمع يا وزير اذا ابني ما رجعشى حالا حادبحك » .

الوزير قاللو : « عرفت ان الضنا غالي ياملك » .

وراح رجع له ابنه .

عمايم على فهايم

راجل قاعد على بير ومدلدل رجليه في البير ، وراجل تاني جه من وراه وقال : « سلامو عليكم » فالراجل اللي مدلدل رجليه في البير ، اترجف وقع في البير مات .

اهل الميت عرفوا اللي حصل ، وعملوا حق على اللي رمي عليه السلام، وحكموا عليه بدفع ٤٠ جنيه فدية .

الراجل استأنف الميعاد ـ الحق ـ وقبل الرجالة اللي حاتحكم في الميعاد ما تجتمع ، راح اشترى مترين قماش ، وفصلهم عمه كبيره ولبسها ، ودخل على الرجالة المجتمعين في الميعاد ، لا سلام ولا كلام، ودخل قعد في احسن حته ، وكل اللي قاعدين مندهشين .

وبعدين واحد من اللي قاعدين ، قاللو :

ـ عمايم على بهايم .

الراجل رد عليه وقاللو : « اخرس يا ولد ، دي عمايم على فهايم ».

فكبير الميعاد قاللو : « طيب وانت داخل على رجالة، ارمي السلام على اربعين راجل قاعدين » فرد الراجل عليه وقاللو : « ارمي السلام على اربعين راجل قاعدين في – × – اربعين جنيه ، ادفعهم منين ؟! اذا كنت لما رميت السلام على اللي راح ، عايزين تدفعوني ٤٠ جنيه »

كبير الميعاد قاللو : « عمايم على فهايم .

وطلع الراجل براءة .

النبوت (١)

راجل شقي قتل من الدنيا ميت نفر الا نفر . وفي ليلة دخل الترب بالليل ، لقى واحد بيقطع في جسم واحدة ست ميتة ، قام دخل على الراجل التربة، وضربه بنبوته، أتم المية .

ولما اللي القاتل جا عليه الدور ومات، وزنوا جميع سيئاته ، لقوها تقيلة قوي، لكن لما حطوا قصادها الست الميتة اللي الراجل كان عايز يفعل فيها في التربة وهوا ضربه موته بالنبوت وتم المية ، وزنت الحكاية دي سيئاته كلها ، فدفنوه وغرسوا نبوته على تربته ، في الصبح نبت النبوت وازهر .

باع ابوه وتأله بامه

كان فيه راجل عمده ، عنده ابن وحيد . الولد طلب من ابوه ، قاللو: « استريح انت يابا ، وانا حامسك العمدية بدالك » ابوه قاللو : « انا لازم يا ابني امتحنك الاول » قاللو : « طيب امتحني » قاللو ابوه : « لو جالك اتنين متخاصمين مع بعض واحد عاقل وواحد مجنون ، تطلع العيب على مين فيهم ؟ » ابنه قاللو : « اطلع الحق على العاقل » ، قاللو : « طيب لو كان لتنين المتخاصمين مجانين ، تعيب مين ؟ قاللو : « اراضيهم وان ما نفعش ، اعيب نفسي » ، قاللو : « طيب لو كانوا اتنين عاقلين ؟ » قاللو: « العاقلين ما يجوش عندي » .

ابوه انبسط واداله العمدية ، اصبح العمدة . اول اسبوع طلع ابوه السوق باعه واشترى حصان. تاني اسبوع طلع امه السوق، باعها واشترى سيف (٢) . ركب حصانه في وسع الجبل،جاع،لقى غزالة، اصطادها وشق بطنها بالسيف ، وطلع ابنها من بطنها ، حلله ، ودبحه وشواه واتغدى. وقام ركب الحصان تاني بسرعة، لحد ما عطش، نزل من عليه ، وعصر

---

(١) هذه الفابيولا ، تحولت الى بالاد شعري غنائي مدائحي، جمعت لها اكثر من Version سانشره ضمن الملاحم والسير .

(٢) تقلد بالسيف – او تاله به – كبديل لامه .

عرقه وشرب منـــه . مشى شويـــة لقى مدينـة ، دخلها ، لقـــى ٩٩ راس معلقين على السور ، سأل ايه الحكاية ، الناس دلوه وقالولو : ، بنت الملك بتقول حذر (١) ، اللي يحله يتجوزها ، واللي يعجز يقطعـوا راســـه ويعلقوها » .دخل على بنت الملك ، وقاللها : « انا حاحل الحذر » بنتالملك بصتله وما سألتش فيه ، قاللها : « هاه . اقول انا والا تقولـــي انتي » قالتلو : « قول انـــت » ، قاللها : « طيب » وقال :

- عجبي على راجل باع ابوه - واتأله بامه .
- واكل حي من ضهر ميت
- وشرب ميه لا هي في سما ولا هي في ارض .

بنت الملك لما غلبت ، نزلت لابوها وقالتلو على الحذر ، ابوها جمـع العلمـا وقاللهم ، محدش عرف يحل اللغز . الملك بعت للولد ، والولد حل اللغز ، قاللهم على حكايته واللي حصل معاه . واتجوز بنت الملـك ، خدها ورجع حالا على ابوه وامه واشتراهم ورجعهم من جديد، وبقى عمدة وشيخ عرب ونسيب الملـك .

الغزالـة

كان فيه ملك من ملوك زمان، خلف من الدنيا ولد واحـد، مرضعه(٢) خده وعاشوا في قصر تحت الارض. وجاله ناس تعلمه القراية والكتابة ، وفي يوم لقى نفسه وحده في القصر ، وقرا الورق لقي ان فيه حاجة اسمها الدنيا ، ولقى الورق بيتكلم عـن شجر وسما وطيـور ومخاليق ، الولـد قال :« انا لازم اطلع اتفرج على الدنيا » والده الملك امر بخروجه ، وضربت المزازيك ، والولد ركب حصانه وخد سيفه ومشى في الجبل ، لقى تلاتـة زيه بالضبط ماشيين يتفرجوا على الدنيا ، تعرفوا علـى بعض ، ومشوا سوا، لحد ما قابلتهم غزالة، قالوا : « احنـا لازم نمسكها . الولد قاللهـم « اللي تفوت من تحت حصانه ، نقطع رقبته » والغزالة حاورتهم همـــه الاربعـة ، لحد ما فاتت من تحت حصان ابن الملك ، وجريت في الجبل ، جرى وراهـا بالحصان وفضل وراها ، لحد مـا لقيها بنت جميلة جدا ، بنت رجل عربـي ، اول مـا دخلت خيمتهـا وبقت بنت ، وبصتله بعينها، الولد وقع من على الحصان ، ولحقوه بالمية ، ورشوا على وشه ، لحد مـا فاق ، وقابل امها وابوها ، وطلب منهم انهم يجوزوه بنتهم . وقاللهم انـا

---

(١) لغـز (٢) اي المكلف بارضاعه واطعامه .

ابـن الملـك الفلانـي .

اهل البنت قالولو : « يا ابني احنا منجوزشي بناتنـا الا لولاد عرب زينـا » والولد صمم وقال : « انا لازم اتجوزها » .

قالولو : « طيب روح هات ابوك وتعالا نكتبلك عليها » .

الولد راح حكى لابوه على اللي حصله ، وطلب منه انه يتجوز البنت دي . وعلى ما جاب ابوه وجه ، لقى العرب شالوا من الحتـه اللي كانـوا نازليـن فيها . ولقى البنـت كتباله مكتوب ومعلقاه فـي شجـرة ، قرا المكتوب ، لقى البنت بتقولو : « احنا رحنـا وادي العـراق ، واذا كنت مشتاق تعالا العراق » .

الولد استأذن من اهله ، وخلاهم رجعوا ، وهو مشي على طول على وادي العراق ، نام بالليـل عند واحدة عجوزة ، وسألها على البنـت ، قالتلو : «ايوه عرفاها ، بس دول كتبوا عليها لابن عمها» ، فبعت العجوزة راحت قالت للبنت ، والبنت قالتلـو : « انا رايحه نجع ابن عمي اشوفك في الهـودج » .

راح لبس وعمل نفسه راجل عربي ، وطلع الجمل ودخل الهودج ، وسرقهـا منه وخدها ورجع على مملكة ابوه اتجوزها هناك .

بائـع الكـلام

كان فيه جدع شاب ، ابوه عطاه تلاتين جنيه ، عشان يتجوز . وهو بيدور على بنت يتجوزها، سمع منادي بينادي : « يا مين يشتري الكلام» . قاللو : « انـت بتبيع كلام ؟ قاللو : « ايوه . الكلمة بعشرة جنيه » . الولد اشترى تلات كلمات بتلاتين جنيه .

اول كلمة ــ حبيبك اللي تحبه ، ولو كان عبد نوبـــي ــ والتانية ، ساعة الحظ ما تتعوضشي ــ والتالتة من آمنـك لا تخونه، الله على (١) كل خاين ــ الولد دفع التلاتين جنيه، ومش يدور على مكـان يبـات فيه، لقى واحـد عنده طاحونة ساكنهـا الجن ، واللي يبات فيها ، يصبح الصبح ميت ، صاحب الطاحونة قاللو : تشتغل يا ابني ، قاللو : اشتغل ، ودخل ينـام في الطاحونة ، طلعوا عليه الجن نص الليل ، واحدة بيضه وواحدة سودة ، وسألوه : « تحـب الست البيضة ، والا السمرة » افتكر الولـد الكلمة الاوليـة اللي كـان اشتراها ، قاللهم : « حبيبي اللي احبه ، ولـو كان عبد نوبي » فبنـات الجن سابوه ، انمـا لو كـان فضل ست عــن التانية، كانوا قتلوه، زي ما كان بيحصل مع كل اللي باتو في الطاحونه قبله.

---

(١) كذلك يرد هذا المأثور هكذا « من امنك لا تخونه ، ولو كنت خاين » .

صاحب الطاحونة، جاب الكفن الصبح وراح الطاحونة ، بص لقي الولد صاحي فشغله عنده وبقى يقفل الطاحونة كل ليلة ويرجع ينام في حضن مراته .

وبعدين صاحب الطاحونة ، طلع يحج ، وقال للولد : « خلي بالك من البيت لحد ما احج وارجع ». ولما غاب الراجل ، الست مراته عجبها الولد الطحان وكانت كل يوم تطلب منه انه ينام معاها والولد يماطل ، ويفتكر الكلمة اللي شراها ــ من آمنك لا تخونه ــ .

ولما الراجل رجع من الحج ، مراته جريت عليه عيطت وقالتلو : «انت سافرت من هنا . والولد الطحان طلب انه ينام معايا » .

الراجل نده على السياف ، وقاللو : « روح الطاحونة ، واول واحد تلقاه في وشك بكره الصبح بدري موته وارميه في الطاحونة » .

الولد في الليلة دي، لقى فرح ومزيكه وناس سهرانين ، فافتكرالكلمة اللي شراها « ساعة الحظ ما تتعوضشى » سهر في الفرح لحد الفجر ، ولما نعس نام .

الست مرات صاحب الطاحونة ، قلعت وبدرت الصبح بدري وراحت الطاحونة عشان تشوف اللي حصل للولد ، الطحانين مسكوها وقطعوا رقبتها ورموها في الطاحونة .

ولما صاحب الطاحونة راح يسأل الضحى ، قالولو الطحانين : « احنا عملنا زي ما قلت، اول واحد جانا الصبح رميناه في الطاحونة »، والراجل اتلفت وراه بص لقى الولد الطحان جي ، جرى على الطحانة وسألهم ، قالولو : « اول ما جانا الصبح الست مراتك وموتناها »، والراجل مسك الولد الطحان ، والطحان حكالو على اللي حصل مع الست في غيابه ، وعاشوا مع بعض .

دا من مراته

كان فيه ملك عنده بنت حلوة ، وكان مسكنها في سرايه لوحديها. وكانت بنت الملك تقف في الترسينة ، وكل ما تشوف واحد كويس نضيف ، تقول : دا من مراته . تشوف واحد غلبان هدومه مقطعة ، تقول: دا من مراته .

ابوها الملك اتضايق منها ، نده على الوزير بتاعه ، وقالو : عايزك يا وزير تدور لي على واحد غلبان خالي شغل ، عشان اجوزه للبنت دي، ونشوف حاتعمل فيه ايه .

الوزير دار يسأل ، لحد ما راح محطة القطر ، لقى واحد نايم على القضيب قاللو : يا عم القطر ياكلك . رد عليه الراجل وقاللو : هو القطر عمى حاياكلني. الوزير نده للرجالة شالوه حطوه في القطر . وخده للملك . الملك لقيه راجل كُهنة بارك في الارض ، الملك قاللو : قدم هنا اقعد جارنا يا محمد . رد عليه قاللو : محمد مايقمشي . قاللو : كل، قاللو: لا ما بكلش .

الملك طيب بنته وقاللها : خلاص انا كتبتلك عليه وبقى جوزك ، عايزك بقى تقوميه على حيله وتلبسيه زي الرجالة .

البنت خدته من ايده : تعالا انت كنت مشتلى فين ؟

خدته داخلته السراية ، وقالتله : قوم اتغدى يا محمد ، قال : ما بكلش تطبطب عليه وتحايل فيه وتبوسه ، لحد ما زعل وقال : رجعوني تاني مطرح ما كنت . وهيه بعتت اشترت خمس كرابيج، واستلمتو يوميا تقطع كرباج على جسمه ، لحد ما بقى يقف على رجليه . وهيه فضلت على كده ، لحد لما نجحت في انها تدخله الحمام ودعكته ولبستو جلبيه جديدة، وبعد كده بعتته الشارع. مشى شوية والدم جرى في جسمه.

قالتلو : صحتك بقت عال ، انزل اشتغل وعيشنا . بعتته اشترى شوية حبال وفاس ، وبعد كده جحش وبقى حطاب . وهيه جابت حصاله وبقت تحوش فيها واشترت جحش تاني ، وقالتلو : اركب جحش ، واكري جحش . وهو لبس الجلبية النضيفة وقعد على باب السراية.

وفي مرة واحد خواجا، كان بيدور في الجبل لحد ما عثر على كنز، راح اجر الحمير بتاع محمد اللي بيشتغل عليها فلاح يشيل بالغيط ،الفلاح ملا الغبيط ، وفي السكة عرف ان اللي على الحمير دهب ، قال للخواجا: انت لازم تديني نصيبي ربع الدهب دا ، الخواجا وافق ، مشى شوية وقاللو : حاخد التلت . الخواجا وافق . مشى شوية وبعدين قاللو : حاخد النص ، الخواجا وافق . بعد شوية قاللو : انا حاخد التلاتربع ، الخواجا وافق . بعد كده الفلاح طمع في الخواجا وقاللو : انت يا خواجا خيالك مش قد خيالي، ولا قدمك قد قدمي ، ومسكوا في خناق بعض وضربوا بعض ، ولتنين موتوا بعض في السكة .

والحمير راحت على بيت محمد محملة بالدهب . قلبوا الحمير ، لقوا الدهب ، هيه نزلت من فوق على طول ، وقالت : حاسب يا راجل ، انت بتقلب الدهب في التراب . وبعد ما عبوا الدهب تاني في الزكايب . هيه شارت على محمد وقالتلو : عيب بقه شغلانة الحمير دي . وقالتلو :

الملك(١) أبويا بيقعد على القهوة الفلانية ، روح عظمه ولاعبه القمار . محمد راح لاعب الملك وكسب عشرة جنيه، وتاني يوم راح لاعبه وكسب منه .

وهيه قالتله : خلاص نام في البيت وما ترحشى القهوة ، وابويا حايجيك يطل عليك هنا في السراية .

والملك جه يطل عليه ، ما بقاش يرد على الملك .. الملك حس جسمه وقاللو : انت مش عيان ، انت بس متكبر ، واحنا ملوك زي بعض .

بنت الملك راحت طالعة من الاوضه الجوانية وقالت : يا حضرة ابويا الملك ، دا من مراته .

ومحمد قام عظم الملك وسلم عليه ، قاللو : مرحب نسيبي.

صبي الساحر

كان فيه ولد شاطر بيشتغل حطاب مع جده . ولما كبر جده قاللو : « اخطب واتجوز وانا ادفعلك المهر . الولد قاللو : « انا عايز اتجوز بنت الملك » جده قاللو : « اهي دي اللي انا ما قدرش عليها » . الولد ساب جده وراح اشتغل صبي عند رجل ساحر ـ خواجا ـ والساحر كتبله مكتوب على دراعه ، ورفض ان يعلمه مهنة السحر ابدا .

وفي مرة الولد شاف بنت الملك بتعوم ملط زلط مع حبيبها فيالبحر، بنت الملك خافت احسن الولد يروح يخبض ويفتن لبوها ، ففكت له المكتوب اللي على دراعه ، وعلمته السحر ، الولد سحر نفسه كلب رومي وقال لجده : « بيعني للخواجا . بس اوعى تديله السلسلة اللي في رقبتي ، جده راح باعه للخواجا . وخد الكلب الخواجا . راح البيت يدور على الكلب ما وجدوش ، وبعد كده سحر نفسه حصان من غير لجام ، والخواجا اشتراه ، وبعد كده سحر نفسه جنينه ، وجده قعد على بابها وباعها للخواجا ومارضيش يديله المفتاح ، والخواجا دخل الجنينه بص لقيها حته جبلاية ، وفضل الولد كده لحد ما سحر نفسه خاتم زمرد في صباع بنت الملك ، والخواجا جه يدور عليه ، فهو وقع من صباع بنت الملك في هيئة رمانة ، والخواجا سحر نفسه ديك وراح يلقط فصوص الرمان ، فص فص ، لحد اخر فص تحت البلاطة ، راح مسحور سيف ، وقاطع رقبة الديك .

بنت الملك انبسطت من الولد ، وقالت لبوها : « داللي حاتجوزه » واتجوز بنت الملك ، وجاب جده عمله وزير ..

(١) يلاحظ بالطبع طرافة تعبير « الملك ابويا يجلس على القهوة » ، وعليه فملوك هذه الحكايات ، سذج ، اقرب الى ملوك شحاتين .

لغـة المـاء

واحد قال : « كل شيء في الدنيا له لغة ، ما عدا الماء ، وانا لازم اعرف لغـة الماء » .

والراجل كان غني ومبسوط ، فاعلن ان اللـي حايجيبله لغـة الماء، حايهديه هدية كويسة .

وجميع الناس عجزت عن انها تعرف لغة الماء ، ما عدا راجل طمع في الجائزة ، وفضل ماشي يسأل ، لحد ما راح عنـد عرب العربة (١)، وسألهم : انا عايز اعرف لغـة الماء » .

بنت عرب العربة ، طلعت من جوا الخيمة وقالتلو ، الماء وهو بيجري، بيقـول :

يا اسفي انا اللي بالوادي جريت .
طرح مني العشق ، وبناره انكويت .

الراجل رجع وخد الجائزة .

العنـزة الشؤم

واحد اخد من مراته ريال ، وراح يجيب كيلة غلة من السوق .نسى ودخل سوق الغنم ، بدل ما يدخل سوق الغلة . لقى واحد بيدلل علـى عنزه : « يامين يشتري العنزة بريـال » .. اشتراهـا مـن الراجل ولما رجع البيت ، مراته قالتلو : « روح اشتري اكل للعنزه » . وبعدمـا خرج الراجل ،ولد من ولادها بيتشاقى مع العنزه ، امه خبطته مات في الحال . الراجل رجع عارك مراته وبيقولها : « يا ولية تضربي الولد تموتيه » وعاركوا مع بعض ، هو دفعهـا بعيد عنه ، الولية انقلبت وقعت في البير .

وبعد ما مراته وابنه ماتوا ، الراجل بص لقى نفسه قاعد هو والعنزة، فقاللها « آه ياوش الشؤم ، انا حارميك في البير » وشال العنزة وجه يرميها في البير ، كم جلبيته انشبك فـي قرن العنزة ، خدته ووقعـوا فـي البيـر .

الجمل والحمـار

جمل وحمار كانوا سايبين في جنينة ما فيهاش حد .

(١) اي العرب العاربة

الجمل ياكل وهو ساكت ، والحمار ينهق على الفاضي والمليان .
فات عليهم راجل:راكب حمار هزيل تعبان،لقيهم واقفين واحدهم نزل من على الحمار الهزيل اللي كان راكبه ، وركبه على الحمار ، وركب هوا الجمل ، ومشوا . الحمار شال الحمار العيان ومشى ساكت . فالجمل قاللو : « شيل يا اخي ، ما كنت ساير داير فيها ، وانت اللي نهقت » .

العقل

في مرة البركه والسعد ماشيين في سكة زراعية ، قابلو في طريقهم العقل ، وبصوا جنبهم ، لقوا مضرب طوب ، وراجل فقير بيضرب طوب . السعد والبركة قالوا للعقل : « تعالا معانا نقعد شويه نشرب شاي ونتكلم عند الراجل الطواب ده » .. العقل رفض يروح معاهم ، وقاللهم: « روحوا انتوا » ، سابوه ومشوا .
دخلوا قعدوا عند الراجل . الراجل حاله مشى . وبقى يبيع في اليوم بالف جنيه ، اتغنى وراح يخطب بنت الملك ، الملك قاللو : « تقل(١) بتقل » ، الراجل تقلها ، وراح يجيب المال ، جابوا على عربيات كارو من اللي بينقل عليها الطوب ، وقعد فوقه ، ودخل على الملك ، فالملك اتضايق من تصرفه دا .
وبعد ما تجوز وعملوا الفرح ، الملك ــ نسيبه ــ خده معاه وراحوا زاروا ملك كبير قوي ، وهمه قاعدين بيتعشوا على السفره ، الملك عطاه حتة لحمه كبيرة ، فخدها من ايده ، ولفها في عمته اللي على راسه. والملوك اللي قاعدين اندهشوا وسكتوا .
وتالت مرة الملك جتلو هديه ، تفاحة على غير اوانها ، فاستلمها ، وقاللو : « خد شيلها لما يجي الضيوف وناكلها ». خدها يشيلها قطم نصها واكله . ولما الملوك والوزرا جم واجتمعوا عشان ياكلوا التفاحة ،نسيبه الملك طلبها منه ، لقيه واكل نصها ، الملك انكسف وفض المجلس .
ولما جه يدخل على عروسته بنت الملك، ورمت عليه المحرمة زي عوايد الملوك ، ضربها طفحها الدم .
الملك لما شاف بنته ، اتضايق خالص . وقال : « انا لازم اشنقه واخلص منه بكره الصبح » .

---

(١) اي ياخذ العروس بوزنها ذهبا .

العقل راح قابل البركه والسعد، وقاللهم : « صاحبكم اللي باركتوه وسعدتوه ، جايتشنق بكره الصبح » قالولو : « طيب انجدنا » .

راح العقل عمل جوهره في طريق الراجل قبل الشنق ، الراجل خدها حطها في جيبه . وقبل الشنق سألوه : « نفسك في ايه ؟ » قال « نفسي اعد مع الملك شوية ، اشوفو بس » .. راحوا قالوا للملك ، قال: « طيب » . « وراح قعد معاه وخدوا وادوا في الكلام والعتاب ، والملك قاللو على العمايل الاربعة اللي عملها ، ازاي جاب المال على عربية كارو ودخل السراية قاعد عليه زي الطوب .

رد عليه وقاللو : « يا سعادة الملك خفت على المال من ولاد الحرام ».

الملك قاللو : « طيب يصح واحنا في العزومة الفلانية تحط اللحم في عمتك ؟ » قاللو : « يا ملك اعمل ايه ، دا انت بتعزم عليه بحته لحمه وانا شبعان ، قلت اللي ما تشيلوش معدتي من ايد الملك ، يشيله دماغي من فوق » . الملك قاللو : « طيب والتفاحة اللي كلت نصها » . قاللو : الحقيقة يا ملك انا تشككت في ان التفاحة دي ، تكون مسمومة ، وقلت لنفسي ، انا اكون فدا الملك وخدت منها قطمه » . الملك قاللو : ولما ضربت بنتي وطحتها الدم » قاللو : « دا واحنا مع بعض ، بصيت لقيت الاوضه مليانه جواهر، جيت الحق واجمعها قبل ما تروح ، منعتني ، دفعتها ،ايدي جت في وشها . وما طلتش الا جوهره واحدة اهي « وحط ايده في جيبه وطلع الجوهره ، الملك خطفها منه ، وقاللو : « يا اخي مش كنت تجيب منها كبشه » وخدوا بعض بالحضن ..

السعد والبركه ، قابلو العقل بعد كده ، وقالولو : « براوه عليك » (١).

★ ★ ★

البخت

واحد عربي غلبه الزمن ، فات اهله وبيته ، ومشى في السكة هاجج، اول ما دخل الجبال ، وجد حفرة في الارض ، وفيها واحد مكفى على وشه ، قرب منه وسأله : « يا عم انت راقد كده ليه ؟ » اللي في الحفرة رد عليه وقاللو :« انا بختك وانت لازم تطاوعني وتسمع اللي حاقولك عليه »، العربي قاللو : « قول » ، قاللو : « ارجع بيتك ، موت الكلبه اللي عندك، وطلق مراتك ، وبيع البقرة اللي عندك بالتمن اللي يتقالك عليه اول مرة ».

(١) برافو عليك .

الراجـل رجع ، موت الكلبة ، وطلق مراته ، وخد البقرة وراح عشان يبيعهـا في السوق ، قابله واحـد قراد ماسك قرد ، قاللو : « يا عم انت رايح تبيـع البقرة دي ؟ »

قاللو : « ايوه » قاللو : « طيب خد القرد ده ، وادينى البقرة » . عطاه البقرة ، وسحب القرد ومشي . ولما الليل نزل عليه وهو في السكـة، ربط القرد في شجرة وراح يدور على حاجة ياكلها ، ما لقيش ، رجع تاني للقرد ، لقي القرد قلع الحديدة ، وزحزح الصخرة ، بص وجد تحتيها زلعه مال، خدها ورجع على بلده، اشترى سراية واطيان وعاش مبسوط .

السعد والفقـر

واحد صرماتي (١) قاعـد يشتغل قدام دكانه ، وفات عليه السعـد والفقـر ، رموا عليه السلام ، قام عزم عليهـم : « اتفضلوا » ، قالـوا : «نتفضل فين ؟!» وقعدوا جنبه ، فقام عمل براد شاي وسقاهم ، سألوه : « معاك مال والا استلفت ؟ » قاللهم : « لما ترزق أسد حقه » .

الفقر عطا للراجل حوالي ٢٠ جنيه يتساعد بهم ، ومشوا . الراجل خد العشرين جنيه ، وروح حطهم في بلاص رده وشالهم،(٢) ورجع يشتغل فـي دكانتـه .

فايت راجل بيشتري رده، مراته باعت له الرده اللـي في البلاص، بتلاته صاغ ، وراحوا العشريـن جنيه اللي في الرده .

لما الراجل رجع وعرف الحكايـة ومالقيش الفلوس حزن .

وبعد مدة فات عليه تاني السعد والفقر ، سلموا عليه وقعدوا معـاه، الفقـر سأله : « عملت ايه بالعشريـن جنيه اللي خدتهم مني ، فحكى لـه الحكايـة ، وبعدمـا قعدوا ، السعد عطالو ٢٠ جنيه تانيين ومشوا . .

خد العشرين جنيه اللي عطاهم له السعد ، وراح اشترى جلود وعمر الدكانه ومشى الحال وبقي من اثرياء البلد .

وزاره تاني السعد والفقر . ولما الفقر سأله عـن حاله ، الراجـل قاللو : « يا اخي مـن آمن بك كفر ، والمتداري فيـك عريـان ، شـوف العشريـن جنيه بتوعك من بتوع السعد » وشاورلهم علـى العـز اللـي صبـح فيـه .

---

(١) اسكافي يصلح احذيـة قديمة .

(٢) نخالة الدقيق وعادة ما توضع في الاواني الفخارية .

كان فيه راجل طيب ، مخلف تلات اولاد ، وكان مربى اولاده على الغالي ، ولما المرض مسكه،جمع اولاده التلاتة وقاللهم : « انا قبل ما اموت عايز اورثكم » قالولو « طيب يابا اللي تشوفو اعمله » .

الراجل قاللهم : « انا عندي هنا اوضه ما تعرفوش اللي فيها ، فيها تلات صناديق ، لكل واحد منكم صندوق له مفتاح ، وانا حارمي التلات مفاتيح ، وكل واحد منكم ياخد نصيبه » .

الاب رمى التلات مفاتيح على طول دراعه ، واولاده جروا ، كل واحد خد مفتاح ، وبعد شويه الاب مات .

الاخ الكبير ، فتح سحارته لقيها مليانه مال .

والاخ الوسطاني ، فتح سحارته لقيها مليانه تراب . والاخ الصغير، فتح سحارته لقيها مليانه عضم .

الاخين اللي طلع من نصيبهم التراب والعضم ، اختلفوا مع اخوهم الكبير ، فالاخ الكبير قاللهم : « ابونا قبل ما يموت قال الورث مايردش »، قالولو : « طيب احنا عايزين نروح لعرب العربة ، يشير علينا عن الورث ، واللي حايقولو ، حايسري علينا احنا التلاتة » .

مشى التلات اخوة في الطريق ، رايحين لعرب العربة ، وفي السكة وجدوا جمل كبير مربوط على حجاره وزلط ، ومشوا شوية لقوا جمل ضعيف هزلان ، مربوط على ربيع وبرسيم اخضر ، ومشوا شوية كمان، لقوا شجرة مالهاش ضل .

اتعجب التلات اخوات ، من التلات حاجات اللي صادفوهم .

ولما رسوا على عرب العربة ، لقوهم اربع اخوات ، سلموا عليهم ، واول ما سألوهم ، سألوهم على التلات حاجات اللي صادفوهم فيالسكة، فقالوا لهم : « الجمل الاولاني القوي اللي مربوط على زلط ، دا راجل فقير كريم ، ايده سخية . والجمل التاني الهزيل المربوط على ربيع ، دا راجل غني وبخيل . والشجرة اللي مالهاش ضل ، معناها الدنيا مالهاش امان » .

ولما سأل الاخوة التلاته ، عرب العربة عن الورث . قالو لهم : «ابوكم ورثكم ورث ما يتردش تاني » وفسرو لهم مغزى الورث ، قاللو : « اللي

خد الصندوق اللـي مليان مال ، دا ماله ومحدش يشاركه فيه . واللـي خد الصندوق المليان تراب ، خـد جميع الارض اللي تزرع ، واللي خـد الصندوق المليان عضم ، خـد جميـع المواشـي اللـي في البـر . ودي قسمه ابوكـم » .

الاخوة اقتنعوا ورجعوا بيوتهم .

واخوهم الكبير اللي طلعلو المال ، راح اشترى بالمال ارض ، قد ارض اخوه اللي طلع من نصيبه التراب .

ملك الاسد وقطع دراع الكاتب

كان الملك الاسد ، اغنى ملك في الدنيا ، وكان لا يوجد في مملكتـه لا بيـع ولا شرا ولا مقايضة ، اللي عايز حاجه ياخدها بالصلاة على النبي.

الى ان جاء الهاتف في ليله للملـك الاسد ، وهو نايم ، وقال له : « يا ملك الدنيـا حاتزول عنك » .

قام الملك الاسد الصبح ، ملك اولاده مكانه ، وركب حصانه ، وساب المملكة ومشى ارض الله لخلق الله . وفي السكة لقي بحر الحصان نزل فيه، وكان الحصان ابن ملـك البحر ـ فضل الحصان عايم بالملك ، وفي وسط البحر ، غطس ، والملك مسك عرف الحصان ، فطلع في ايده شعرتين من عرف الحصان . وقال :

« لما تروح تقطع السلاسل ، ولما تيجي تيجي على زبيبه » (١) .

وصبح الملك الاسد ، فقير لا فوقيه ولا تحتيه . مشى شوية لقـي واحد ، بيضرب طوب ولابس شوال ، ، الطواب قلعلو الشوال اللي لابسه، والملك خد الشوال لبسه ، ودخل المدينة واشتغل عند راجل فطاطري ، يولع النار تحت صينية الفطيـر ..

وفي يوم دخل واحد ملـك ياكل فطير ، نزل من على الحصان اللي كـان راكبه وسابه ـ الصبي الفطاطري ـ فالحصان شخ عليه ، فقال :

« اقبلت لما باض الحمام على الوتد ، وادبرت لما شخ الحصان على الملـك الاسد » .

الملك اللي بياكل، اللقمة وقفت في زوره ، فنادى على الصبي ولما سأله حكايته ، قاللو : « انا ملـك الاسد ، والدنيا زايله عني » .

الملك اكل ، ودفع ديته وخده معاه . ولما حاول يساعده ويلبسه لبس

---

(١) المقصود بهذا المأثور هو تقلبات الدنيا ، وعطاءها في الرزق والسعد .

ملوكي ، مارضيش ، وقاللو : «الدنيا زايلة عني » .

مرات الملك ، مكنتش بتخلف ، ولما خلفت ولد ، وعملوا احتفال ،وكل الملوك حضرت الهدايا للمولود ، والملك الاسد راح وقف في وسط الملوك بشواله ، وقال للكاتب : « اكتب يا كاتب ، اذا رجعت الدنيا زي ما كانت، وهبت للمولود عشرين بعير (١) وعشرين جراب دهب ، وعشرين »

الكاتب اللي بيكتب ، اتضايق ورمى القلم ، ولما الملك الاسد سأله . « ليه ما كتبتش » الملك صاحب الحفلة تدخل ، وامر الكاتب انه يكتب، فالملك قاللو : « اكتب . اذا عادت الدنيا مثل ما كانت ، يكون قطع دراع الكاتب » .

★ ★ ★

راحت ليام وجت ليام ، وفضل الملك الاسد ، ماشي في السكة بشواله ، لحد ما راح مملكته ، ومشي على باب الله . اول ما راح عند البحر ، لقى شعر بيقدف على وش المية ، ولما نزل البحر ، وشد الشعر، طلع حصانه وهدومه وكل المهومات بتاعه ، فقلع الشوال اللي كان لابسه، ولبس هدومه من تاني ، ودخل على مملكته ، لقى البيع والشرا بالنقدية(٢)، واتلغى العهد الاولاني .

دخل على المملكة ، وركب كرسيه من اول وجديد ، ودور منادي ينادي : « يا سير من كان في المدينة ، ملك الاسد رجع تاني ، والبيع والشرا بالصلاة على النبي »

ولما اتملك بعت للملك اللي كان عنده ، وحمله نقوط ابنه زي ما هو مكتوب ، وكان السياف واقف ورا الكاتب وهو بيقرا المكتوب ، لحد ما قرا : « واذا رجعت الدنيا زي ما كانت ، يكون قطع دراع الكاتب» .

فالسياف قطع دراع الكاتب .

جلد الكلبه

رجل عنده تلات اولاد، وتلات اوض، قبل ما يموت جمعهم وعطا كل واحد منهم مفتاح اوضة. الاول فتح اوضته وجدها مليانة طوب احمر ، والثاني فتح اوضته وجدها مليانة دهب، والتالت فتح اوضته وجدها مليانة جلة ناشفة .

---

(١) جمل . (٢) اي نقدا بالنقود .

وبعد كده التلات اخوات اتفرقوا ، واحد مات ، والتاني راح قصر الغيلان ، وزعق من غلبة قال : «يا هوه» قصر الغيلان انفتح، فدخل لقى دهب مالوش اخر، قلع عبايته وملاها مال، وروح على بيته، بعت بنته تجيب الكيلة، وبعد ما كيلو المال، ورجعوا الكيلة، بيت اخوه عرفوا انهم كانــوا بيكيلو دهب، اخوه جاله البيت بالليل، وسأله عن الدهب اللي عتر فيــه، جابه منين، فقاللو على قصر الغيلان، فرجع قال لمراته :«انا حاروح اسرق قصر الغيلان .. وقبل ما يروح اخوه قاللو : «بلاش احسن الغيلان تقتلك» رجع على بيته، فمراته شحتته(١)، وقالتلو :« روح هات دهب مــن قصر الغيلان زي اخوك، وما تدخلش فاضي عليه» راح دخل قصر الغيلان كانوا نصبوا له فخ واصطادوه .

اخوه دري، وراح مشي دخل قصر الغيلان وفك جتته وخدها ورجع.

ولما الغيلان رجعت وما وجدتش الجتة، عملوا نفسهم جماعة عرب، ولحقوه في السكة، واستفسروا منه على الميت، وبعد كده راحوا عزوه ، وطلبوا يناسبوه ، واحد منهم قاللو :« جوزني بنتك» فجوزهاله ، والغيلان خدوها على القصر، سابوا العروسة للغول الصغير ، وراحوا يصطادوا في الجبل .

العروسة عطت للغول الصغير كحكة من كحك العرس، ولما اكلها قاللها: «هاتي كمان كحكة» . ولما خلصها قاللها : «هاتي كحكة وانا اقولك»،البنت قالتلو : «قوللي وانا اديلك سبت الكحك كله» الغول الصغير قاللها :«اللي اتجوزك دا هو الغول اللي قتل عمك» ، وعطاها الغول الصغير جلد كلبه ، وقاللها : «روحي قبل ما يرجعوا ويقتلوك، ولما تلبسي الجلد دا تبقى كلبة، ولما تقلعيه تبقي بني ادمة» .

لبست جلد الكلب فبقت كلب ومشيت في السكة، لحد ما وجــدت قصر عالي قعدت جنبه واتمسحت فيه بهيئة كلبة، ابن الملك شافها، دخلها القصر، والبنت عاشت جوا القصر زي كلبة، بالنهار تسمعهم يتكلموا علــى الخبيز ، تقعد تخبز طول الليل، يقوموا الصبح يلاقو العجين عيش.

يتكلموا في النهار على الغسيل، يصبحــوا يلقو الهدوم مغسولــة ومنشورة .

ابن الملك قال : « انا لازم اعرف الحكاية» ونصب بندقيته وتخبى في اوضة الفرن ، لحد ما جا الليل ووجدها بتخبز، ظهر لها وقاللها :« انتي

(١) طردتـه

انس والا جن» قالتلو : «انا انس» بصلها لقيها جميلة جدا، وعرف انها الكلبة ، والصبح قال لاهله : « انا حاتجوز الكلبة اللي عندنا » ودخل عليها واتجوزها .

وفي يوم شافت ابوها جي يزورها، ندهتله ،وكل واحد قال حكاية ، وعرفته نفسها، ولحقته قبل ما يروح قصر الغيلان .

الحرات والزانية والحرامية والفتانة

الملك والوزير طلعوا يتفسحوا في الخلا،فوجدوا راجل حرات بيحرت وحده في غيطة ويغني ، في بطن الغيط ويرقص رقصة ، وفي صدرها يرقص رقصة .

الملك والوزير، اتخبوا ورا نخلتين، وقعدوا يتفرجوا على الحرات المحظوظ، لحد الضهر ما كسر، وجا اوان الغدا، فبصوا لقوا تلات نسوان جايين للحرات، واحدة شايلة قلة مية على ايدها، والتانية شايلة مشنة العيش، والتالتة شايلة طبق الغموس، وقعدوا قدام الحرات، يضحكوا والحرات ياكل من ادين التلاتة .

وبعد ماكل، غسلولو اديه، ومسحوا وشه، ورجعوا، بعد ما تركوه يحرت ويرقص ويغني.

الملك تعجب، وخد الوزير، وراح للراجل الحرات وامره : «ابعت يا راجل هات التلات ستات دول، وان ما جبتهومشي حاقطع راسك بالسيف » .

الحرات بعت جاب نسوانه التلاتة،والملك خدهم وبعت جابله تلات نسوان بدلهم ، وسابهمله ومشي .

★ ★ ★

الحرات خد التلات نسوان، ومشي روح على بيته، وجه عند بحر غويط وخد اول ست منهم شالها على كتفه عشان يعدى بها ، وجابها في وسط البحر، وقاللها: «ان ما قولتليش بالحق، انت كان صفتك ايه عند الملك حاغرقك»، الست خافت وقالتلو : «اقولك، انا كنت حرامية»، فشالها الحرات وعداها على البر التاني .

ورجع شال التانية، وجابها في وسط البحر، وقاللها زي ما قال

للاولنية ، فقالتلو « انا كنت عند الملك زناوية ــ زانية ــ شالها الحــرات عداها للبر التاني .

ورجــع للتالتة ، جابهــا فــي وسط البحــر ، وطلــب منهــا زي اللـــي قبلهـــا ، فقالتلو : « انا كنت عند الملك فتانة ــ نمامة ــ فنزلها عن كتفــه وخنقها وغرقها في وسط البحر ، وسابها وطلع .

خد الست الحرامية والزانية، وروح على بيته .

اول ما دخلهم بيته، خد مفاتيح البيت وعطاهم للحرامية، وفتـــح للزانية كل ابواب وشبابيك البيت ، وقاللهم : «اعملوا اللي انتوا عايزينو».

بعد شوية ايام، الزوجتين اجتمعوا مــع بعض وقالوا : « دا سابلنـــا كل حاجة احنا لازم نتوب» ولتنين تابوا .

واتعودوا بعد كده يروحوا للحرات الضهر بالاكل، ورجع هو يرقص في بطــن الغيط رقصه ، وفي صدرهــا رقصه .

★ ★ ★

وفي يوم رجع الملك تاني وفات على الحرات، فوجده بيرقص ويغني زي الاول، فخبى نفسه، والضهر بص الملك لقى اتنين ستات، واحدة شايلة قلة، والتانية شايلة اكل، وبعد ما الحرات كل، وروحوا، الملك راح للحرات وقاللو : « انت عملت فيهم ايه،دول كانوا تاعبيني قوي » ، الحرات حكاله على اللي حصل، والملك تعجب : وطلب من الحرات انــه يبادله عليهم (١) بنسوانه الاولنيين اللي بعدما خدهم الملك منه، تعبوه،فالحرات ما رضيش.

نعناعــة

كان فيه واحد قاضي، متعود يروح الترب بالليل. في مرة عثر على جمجمة بتقول :

ــ يا ما عملت في دنياتي .

ولسه ياما حاعمل في اخراتي.

القاضي اخد الجمجمة تحت باطه وراح البيت جاب هون وقعـــد صحنها (٢) ودراها في الهوا ..

---

(١) وكما يقول الكاتب العربي فهمي حسين ، فان بنيــة هذه الحكاية الانموذجيــة المحكمة، وعلى مختلف المستويات ، خاصــة في رفض الحراث الاخير لمطلب الملك ، ذلك انه هو الاقوى والمنتصر ، اذ هو الذي يعمل ويكدح ويبني الحياة .

(٢) لكي يتخلص من شرور الجمجمة ،التي تتوعد حتى في عالم الآخرة بالشرور المروعة .

بنت القاضي البنوت(١) سمعت الدق في الهون ، قالت : « اطلع اشوف ابويا اللي بيصحن سكر ويسفه وحده فوق». وميلت على الهون ، خدت لحسة بلسانها (٢) حبلت أتمت سبع شهور ، وبطنها عليت وصبحت حامـــل .

واحدة ست شافتها، راحت قالت لبوها : «انت عمتك بيضة طــول عمرك، والنهارده بنتك بقالها سبع شهور حامل» .

القاضي فضل سهران،وفي التلت الاخير من الليل ،صحا (٣) بنته من النوم وقاللها : «تعالي يا بنتي وضيني برا جنب البحر . وعند البحر سحب سكينة مسنونة ودبحها، وسابها ومشي والعيل بيعيط في بطنها.

واحد فايت من جنب البحر، الصبح بدري، شاف الجتة والطفــل بيعيط، شالهم رماهم في غيط نعناع بتاع الملك .

الملك مر الصبح، لقى الجتة والطفلة، خد الجتة ودفنها، وشـــال الطفلة اداها لامه، وقاللها : «خدي ربيها وسميها نعناعة» .

البنت كبرت وحفظت كـل العلوم ، ولما شافهــا الملك ، انبسط ، واحبهــا وقال « انا حاتجوزها » .

جابو القاضي مهرها (٤)،عشان ما كنشي لها اب ولا ام. والملك كتب عليها واتجوزها . وخلف منها تلات شطار (٥) على تلات سنين . ورابع سنة جا للملك هاتف زاره بالليل وقالوا :« قوم اسعى يا ملـــك انت حاتفتقـــر سبع سنين .. الملك خد الهجين (٦) بتاعه،وجزء من امواله وساب المملكة للوزير بتاعه، وركب الهجين بتاعه ومشي. الهجين جة عند بحر وغطس، قعد الملك يشد في اللجام،لحد ما طلع اللجام في ايده،وهية غطستراحت.

يرجع مرجوعنا للوزير، فضل يعمل في ملاعيب، عشان يتصل بالست نعناعة مرات الملك، اول ليلة قاللها : «مش ناقصك حاجة» ؟ قالتلو : «عندي اللي يكفيني» . تاني ليلة راح لها ، قالتلوا : «ماتجنيش». تالــت ليلة، الوزير قاللها : «بك والا بابنك البكري» ؟ (٧) قالتلو : «بابني البكري» خده موته. رابع ليلة قاللها : «بك والا بابنك الوسطاني»؟ قالتلو : « بابني الوسطاني»،خده موته. خامس ليلة راحلها وقاللها:«بك والا بابنك الصغير؟ قالتلو:«بابني الصغير»، خده موته. ساتت ليلة قاللها: بك والابنفسك؟» قالتلو : «بنفسي» ضربها بالسيف طير بزازها ووراكها، وحطها في قفة ،

---

(١) العذراء . (٢) حملت مـن الجمجمة ، كذكـر .

(٣) ايقظهــا من نومهــا . (٤) حدد مهرهــا .

(٥) ثلاثة ابناء شطار . (٦) جمل ذكر ، او بغل أو حصان .

(٧) اي اضاجعك او اقتلك انت أم اقتل ابنك الاول البكري فاتح الرحم .

وخدها رماها في الجبل. وهو بيحدفها ايدها هبشت في الرمل،لقيت خاتم الملك، قالتلو : «شبيك» خادم الخاتم قاللها : «لبيك» قالتلو : « عايزة ارجع زي ما كنت» تف (١) القطب فيبزازها،رجعت زيما كانت ، وجدت نفسها واقفة في الجبل زي ما هية . طلبت من الخاتم سراية زي سراية الملك ، جنب سراية الملك :

« سرايه حوليها بستان ،
واشجار ترمي على غير اوان ،
وبرج حمام ملوش عددان » ،
وحوليها داير مناير بستان

★ ★ ★

ام الملك (٢)،سحرت نفسها بهيئة نعناعة،بعد السبعسنين ما انقضوا، والملك رجع، والملك نام مع امه على السرير، فاكرها مراته نعناعة، وحبلت واتوحمت على تفاحة، في غير اوان التفاح وقالت للملك : « نفسي يا جوزي يا حبيبي في تفاحة من جنينة الست صاحبة الحمام اللي جنبنا». الملك بعت العبد بتاعه ـ لنعناعة ـ يقوللها . العبد راح قاللها :

يا ست يا ستنا ـ ياللي قصرك جنب قصرنا
وحمامك بيحوم على سطحنا ـ ادينا تفاحة للوحمة اللي عندنا .

طلعت قالتلو :

هيا يا عبد هيا ـ وحمة امك ما جتشي الا علية
يا مقص قص من طرف لسانه شوية
لا العبد يرجع يخبص عليه .

العبد رجع يرطن وبقى اخرس، الملك شافه، ما فهمشي حاجة منه ، راح حاطط شاله على كتفه، وراح بنفسه البستان يطلب التفاحة من صاحبته، قاللها :

يا ست يا ستنا
ياللي قصرك جنبنا
وحمامك بيحوم على سطحنا
ادينا تفاحة للوحمة اللي عندنا
طلعتله وقالتلو :
هيا يا ملك هيا
وحمة امك ما جتشي الا علية

---

(١) بصق في صدرها ، وهي ممارسة سحرية شعائرية ، تتصل بتابو سحر المشاركة .

(٢) احالت ام الملك نفسها متخذة هيئة الزوجة « نعناعة » وتزوجت ابنها الملك وضاجعته.

يا مقص قص من طرف شاله شوية
دا كان في الاول غالي علية .

وفتحت بيبان السراية على اخرها، وحضنت الملك، وبقت تحب فيه من فوق ومن تحت وهوا مش عارفها، وهية تقوللو :

« انا مراتك نعناعة» . الملك قاللها : «نعناعة اللـــي في سرايتـــي وحضني» .

قالتلو :« اللي في حضنك دي امك » . وحكتله على الحكاية ، واللي حصل من الوزير، ومن امه. الملك رجع طير رقبة الوزير، وطير رقبة امه، ورجع الست نعناعة ملكة .

عبيد الغالبة (١)

عبيد الغالبة كان ملك سخي وكريم، كل ما يرسي عليه ضيــوف ، يقدملهم كل اللي يمتلكه، لما ما خلاش حاجة ابدا عنده غير ناقة واحــدة. وكان الشعرا متعودين يزوروه من الحول للحول، في السنة دي ما لقيش حاجة يقدمها لهم، فدبحلهم الناقة الوحيدة اللي حيلته، وبيتهم في المكــان اللي بينام فيه ، وقاللهم : «بكرة الصبح، اللي يصبلكم على اديكم يكــون من نصيبكم» .

وقام الصبح طلى نفسه بنفسه بلون اسود، وراح صب للشعرا على اديهم، فالشعرا سألوه. «سيدك اللي بعتك لنا يا عبد» قاللهم: «انا عبدكم»، ومشى وراهم في هيئة عبد، لحد الشعرا ما عدوا البر التاني، ودخلوا مملكة ــ خال عبيد الغالبة ــ الملك العون .

الملك العون، قال للشعرا حذر عشان يحلوه، قاللهمـ :

«الجودة من الموجود ، والا من الاعود ؟» الشعرا ما عرفوش يحلــو الحذر، ورجعوا على العبد، ضربوه وقالو لو : «انت وشك اسود ووحش».

عبيد الغالبة، قاللهم : «روحوا للملك العون وقلولو ، عبدنا جا يحــل الحذر». راح الشعرا قالوا للملك العون، فالعون طلبه، وهو حل الحــذر وقال قدام العون : « الجودة من الموجود » .

العون عرفه ، واشتراه من الشعرا ،ودفع دينه، وخده دخله الحمام، ولبسه لبس ملوك ، وقاللو : « تعالا يا ابن اختي ».

---

(١) يبدو ان هذه الحكاية، هي بقايا سيرة او ملحمة ـ يتعاقب فيها الشعــر والنثر، موغلة في القدم، الى حد الاندثار . وافترض هنــا ان الملك عبيد ـ الغالبــة ـ هــو بذاته عبيد بن شرية الجرهمي ، اول ملــك عربي ـ جاهلي ـ شاعر كاهــن ، او سادن للكعبة في حدود القرن الرابع قبل الميلاد .

عبيد الغالبة قاللو :
سلم عليه العون ورخى خوامسه (١) .
شرط الفتى بعد السلام يجود .
تحرم عليه يا عون وتحرم مضايفك .
ما عدت اجيلك ولا اخش لك في بيوت .

وساب خاله وطلع جرى، نزل ارض الشام. لقى خيمة منصوبة في الجبل، طلع منها شيخ عرب وسأله : «انت من عبيد مين؟» قاللو : « من عبيد الغالبه »، شيخ العرب سأله:« الغالبة سابشى حد يورثه ؟» قاللو :«أنا الغالبة»، ولما العربي عرفه، قاللو : «كل المال والغنايم والعبيد دي ورثتك من اهلك» وعطالو الورث، والغالبة ساق السعي والاموال ومشى في الجبل .

وكان عبيد الغالبة متجوز اتنين ستات، اول ست رسى عليها بماله وسعيه، اول ما قالو لها «عبيد الغالبة جه»، طلعت طردت الثروة والسعي بعمود البيت، وتقول : «انا ما عرفشي عبيد وابو عبيد»، وطردتهم .

ولما حود على مراته التانية، وقالولها : «عبيد جه» طلعت بمقشتها تدخل في السعي والعبيد، وتقول «يا مرحب يا مرحب»، وعملتلهم الغدا واكرمتهم، فعبيد الغالبة غنى وقال :

ـ يا من عملني حاكم البيض كلهم.
لاحكم بخوف الله وازيح الظلايم .
ادي الهريمة (٢) للهريم اللي زيها .
وادي الفصيحة للرجال الفصايح .
الله يآتيك يا صباغ التياب بنايبه .
ياللي صبغت الشين والزين في دن واحد .
عشان كتر الدراهم
فيهم من تسوي تسعين شايله (٣)
وفيهم من لا تسوي جلد اعود
فيهم من تطرد الغنا بعمود
وفيهم من تدخل الخير بمقشة
وفيهم من تجيب لهوة تقيله لبعلها
لا هو بيفنى ولا هية تموت .

---

(١) اي اصابعه الخمسة .

(٢) اي الكهلة الشريرة ـ الاروبه ـ لمن على شاكلتها

(٣) تسعين ناقة باحمالها وكنوزها

وراح عبيد الغالبة، طلق مراته الردية، وعطا كل ماله وثروته وعبيده لمراته التانية الكريمة السخية .

القاتل والمقتول وموسى

في مره فارس بيميل يسقي الحصان بتاعه من بحر، وقع منه ١٠٠ جنيه. وبعد ما الفارس سقى حصانه ومشى .

جه واحد غنام بيسقي غنمه، لقى الميتجنيه خدهم ومشي .

رجع الفارس يدور على فلوسه، لقى واحد تالت قالع هدومه وبيستحمه،الفارس ظن ان اللي بيستحمهدا هوه اللي لقىفلوسه وناكرها، فأتهور عليه وقتله وركب حصانه ومشى .

سيدنا موسى كان موجود في الحتة دي،وشايف اللي بيحصل ، فراح جبل الملاغاة، ونادى قال : «يارب جيت اسألك» ربنا ظهر لو، وقاللو : «اسأل يا موسى» موسى قاللو : «الفارس وقع منه ميت جنيه، لقاهم اللي بيسقي الغنم واخدهم ، فالفارس قتل اللي بيستحمه » .

ربنا قاللو : «ابو الفارس كان قبل كده ظلم ابو الغنام، وابو اللي بيستحمه قتل ابو الفارس» .

موسى اقتنع .

عشر سنين عسر

سيدنا موسى، فايت في يوم رايح يقابل ربنا، واحد فقير استناه في السكة وقاللو : « يا سيدنا موسى اسألي ربنا ، فلان ابن فلانة ملوش عندك رزق اكتر من كده » .

موسى راح قابل ربنا،وافتكر سؤال الراجل، وسأله ربنا، ربنا قاللو : « فلان ابن فلانة له عندي عشر سنين عز ، وانا باقيهم له وشايلهمله للكبر » ..

تاني مره الراجل قعد استنى موسى،وقاللو : «سألت» ؟ قاللو : «ايوه سألت، ربنا بيقولك انك لك عنده عشر سنين عز، باقيهملك للكبر والعجز» الراجل قاللو : «انا عاوزهم من الوقتي»، موسى راح قال لربنا. ربنا قاللو : «ياخدهم» .

الراجل اتسعد وراح تاجر والخير جاله من كل حتة وعاش في العز.

بعد العشر سنين ما انتهوا، موسى فات لقى الراجل لسة في العز، سابه ورجعله بعد عشر سنين تانية، لقيه لسة في العز .

راح سأل ربنا : «العشر سنين بتوع فلان ابن فلانة إنتهوا من زمان»، ربنا قاللو :« دا راجل صالح،ولو قلل من الحمد ، انا حا اقلل من الرزق، لكن طول ما هو صالح، يفضل في نعيم للممات» .

موسى وقارون

كان قارون ـ صاحب بركة قارون دي، والقصر(١) اللي جنبها ـ راجل فقير على باب الله، اتجوز واحدة ست، تقرب لسيدنا موسى. وكانت الحرمة دي عندها علم بكار الكيميا فعلمتوا شغلة الكيميا دي، وهو مشي فيها وكون منها ثروة ومال كتير، علو الجبل، يسد عين الشمس، وكان سبب زولان الملك عنه، انه خلى موسى واقف بيوعظ في الناس وسط سوق، يقول الزاني يتجلد زي الزانية، ويحرم القتل والكدب والنجاسة.

قارون لما سمع كلام موسى، راح اتفق مع واحدة زانية حامل وقاللها: «اعمليلي فتنة في موسى ، وان نجحتي حاديكي كيلة مال» قالتلو : «طيب» قاللها :« انا حاخليه واقف بيوعظ في الناس ويقطع في نفسه، واواجهه واقوللو : انت بتوعظ الناس وتقوللهم ما تزنوش ، والست الفلانية حامل منك يا موسى، واجيبك تامني على كلامي وتعيطي وتعري بطنك قدام الناس وتوريهم » .

راح وجده في عز الخطبة، وقاطعه وواجهه قدام الناس. موسى بصله وصرخ في وشه : كداب . قارون قاللو : «انا موش كداب، والست اهي، اجيبها قدامك. الناس قالت: هاتها هاتها ، ولما احضرها . موسى حط عينه في عينها وقاللها : «انطقي بالحق» فقالت على الفتنة من اولها لاخرها. وقارون حزن وخزي قدام الناس، وحط وشه في الارض ومشى .

سيدنا موسى شكا قارون لربنا، فربنا ادالو الاذن، وقاللو: يا موسى الارض بتطاوعك وتسمع كلامك. خد بعضة ودخل على قارون سرايته جنب بركة قارون. قاللو : تتهمني وتدعي علية اني زاني ومفسد يا قارون. ولعنوا : يا ارض خديه. قارون يزعق ويتوسل : ارحمني يا موسى. الارض خدته وتاوته لحد وسطه. قاللو : في جيرتك ياموسى، في عرضك، الارض خدته لحد رقبته، وبعد كدة راسه .

موسى والعبد

كان فيه ملك من بتوع زمان، عنده عبد مطيع، لكن الملك كان قلبه قاسي على العبد، وكان رابطة في هودية ـ طاحونة ـ ويعذب فيه ليل نهار .

سيدنا موسى، فات على العبد، اتصعب على الغلب اللي هو فيه، موسى مشى للملك وقاللو :« ارحم من في الارض يرحمكم من في السماء»

(١) راوي هذه الحكاية فعلا يقيم ببلدة قريبة من بحيرة قارون ، وبلدة قصر قارون او اللابيرنف ـ التاريخي ٣ آلاف غرفة كما ذكر هردوت .

الملك ما ردش ـ لم يرد ـ على سيدنا موسى ، والعبد قال لموسى: « سيبه كله حايزول » ، موسى خد بعضه ومشى .

غاب موسى سنة، ورجع يشوف العبد، لقى الملك مات، والعبد تولى الملك من بعده، لان بتوع زمان، كانوا يختاروا سبعة تمن رجالة، ويقعدوهم في حلقة، ويطيروا فوق روسهم طير مكسي بالزمرد وفيه خيط دهب، ويسيبوا الطير يطير ويحوم، واللي ينزل على راسه، هو اللي يتولي الملك، ويبقى الملك .

ولما كان العبد موجود مع الموجودين، الطير نزل على راسه. قالوا للطير : «يا طير ارحل . دا غريب يا طير ، ارحل». الطير طار ونزل تاني على العبد، فبعدما كان العبد خدام، صبح ملك.

موسى وهو فايت، قابل بنتين بيملو مية، ولما سألهم عن العبد ، قالو لو : «اسكت مش الطير نزل على العبد، وبقى هوا الملك». موسى تخفى ودخل على الملك العبد وقاللو : «مبروك عليك المملكة»، العبد قاللو: «كله حايزول»، موسى مشى.

تالت سنة موسى فات على العبد، لقيه مات، فراح القبر بتاعه وقالو: «السلام عليكم يا ولي الله..، العبد نادمه من جوه القبر، قالو : « وعليكم السلام يا نبي الله»، موسى سأله : «وازي حالتك هنا؟» .

قاللو : «حالتي في نعيم لا يزول ابدا» .

ابليس وفرعون

قبل ما ابليس ينطرد من رحمة الله، كان ناصح ومتعبد، وربنا طردوا عشان استكبر وما رضيش يسجد لابونا ادم.

وفرعون انطرد من رحمة الله عشان طغا وعمل نفسه اله، وادعى الالوهية .

وفي مرة ابليس دخل على فرعون ، وقاللو : « انت ادعيت الالوهية، وانا تكبرت، ما تيجي نتنازل لله» ؟

فرعون ما رضيش، وقال لابليس : «انت عايز قومي يسخروا مني ويهزءوني » ابليس تركه ومشى .

وتاني يوم راح لفرعون، وخبط على بابه، ففرعون رد عليه وقال : «مين على الباب»؟ ابليس قاللو : «اخص عليك اله، ما يعرفشي اللي على بابه مين » !

موسى والزانيــة

بنت بكر، بنت ناس طيبين، حملت في الحرام، وراحت وضعت في خلا الجبال، وحرقت المولود ودرته في الهوا . .

وتاني يوم طلعت الصبح بدري، وقعدت في خلا الجبال ، تنتظـر سيدنا موسى. ولما شافته سألته : «رايح فين» ؟ موسى قاللها : « رايـح اقابل ربنا، عندي ميعاد معاه» ، قالتلو : «طيب لما تقابل ربنا اسأله :«البنت اللي حملت في الحرام وولدت، وحرقت ابنها، ودرته في الهوا، تعمـــل ايه؟» . موسى قاللها : «حاضر حاقوللو» . وراح قابل ربنا، واتكلم معـاه، ونسى حكاية البنت دي. تاني يوم سألته البنت ، قاللها : «نسيت» قالتلو: «طيب ما تنساش النهاردة تسأله»، قاللها: حاضر وبعد ما قابل ربنـــا ورجع، انتظرته وسألته، قاللها: نسيت ، قالتلو: «طيب ما تنساش بكره».

تالت مرة ربنا قاللو : «يا موسى لما بني ادم يحملك امانة توصلها الي ليه ما بتوصلهاش» . موسى قاللو «اختشيت يا رب» ربنا قاللو : «انت اختشيت من البنت الزانية دي، وهية ذنبها اخف من ذنب امك»، موسى سأله : «ليه»؟ ربنا قاللو : «يعني نهار ابوك ما مات، بقت دايرة تصــوت وتقطع في نفسها،وتقول :« فايت موسى على مين(١) يا ابو بكر ،ونسيتني انـــا ربها ».

موسى وفرعــون

والد فرعون (٢)كان اسمه مصعب وكان راعي بقر وغنم ، وفي يــوم وهو بيرعــى بقره وغنمه نطقت بقرة وقالت له : « يا مصعب انت حايخرج من صلبك ولد يبقى من اهل جهنم ».

الراجل خد كلام البقرة وحط الخوف في قلبه وروح خايف ومضطرب على مراته حكالها على الحكاية واستحسنها في الليلة دي ونــام معاها . فحملت منه في فرعون ، ولما وضعت ، وضعت ولد سمته عون .

ولما عون كبر ، كان شقي،وكل ما ابوه مصعب يوديه صنعه ، مــا يفلحش فيها، وفضل لما اتعلم لعب القمار . وحــاز مــن القمــار مـــال كتير. فالملك فرعون حاكم المملكة قبض عليه ورماه في السجن، ففــادى نفسه بكل ماله، والملك افرج عنه وسابه فعون قال للملك : «يا ملــك انا

---

(١) اي ان اسم والد موسى ـ كما تحفظ له الذاكرة الفولكلورية : ابو بكر .

(٢) المقصود بهذا الفرعون الذي تصر معظم المصادر العربيــة الكلاسيكية ، وكـــذا الفولكلورية ، على تسميته باسم « مصعب » او الوليد بن مصعب، والمقصود به فرعــون موسى الذي غرق بجيوشه في البحر الاحمر او برزخ السويس .

ما عنديش حاجة اشتغلها، اشتغل ايه؟» الملك قال له : «اي شغلانة يا عون ما عدا لعب القمار» .

راح قعد في الترب ـ المقابر ـ ، وكل ما حد يموت له ميت، ياخد عليه فردة (١) بالغصب والرضا . والناس كانت تراضيه .

وفي يوم ماتت بنت الملك، وجم يدفنوها، العون طلع لهم من التربة وقال لهم : «هاتوا العوايد» .

قالو لو : «ياعون دي بنت الملك »قال : «لازم آخد من الملك» . راحوا قالوا للملك. فالملك بعت خده وقاللو : «انت ليه عملت كدة؟» قاللو : (مجبر يا ملك عايز اكل واعيش) الملك قاللو : «تعالا اوظفك غفير في المملكة» قاللو : «موافق لكن ما يكونشي فيه غفير في مصر غيري ابدا. واقوم بالعمل لوحدي ،وبعد صلاة العشا اللي اطوله واقتله مالوش دية عندي».

خد عليه الشروطات واستلم البلد ، بعد العشا يُمر يلقي كل البيوت مسكره ، فيلزم حتته .

★ ★ ★

وفي ليلة شاف الملك رؤية وهو نايم ، تعبان اسود حنش فاتح حنكه وجي يلهف الملك. صحى خايف من النوم، وطلع جري في السكك ملهوف عشان يجمع السحرة والمنجمين يفسروا له حلمه دا قبل النهار ما يطلع. لحد ما عتر فيه عون وزعق فيه : «مين اللي ماشي. قاللو : « انا الملك » وحكاله على الرؤيه اللي شافها ، فالعون قاللو :« تعالا يا ملك هو فيه تعبان اسود غيري» وسحب السيف وطير رقبته وقلعه هدومه وتيجانه ولبسهم عون وصبح الملك فرعون .

وصبحت الوزرا يصبحوا علىالملك،بصوا لقوه الراجلالشقي،راح مطلع لهم راس الملك،فرعون وهددهم بها وقال:«لازم تسمعوا الكلام، شايفين» قالوا : «طيب يا سيدي اللي يتجوز ستي يبقى سيدي» وكلهم عظموه.

ومرت سنة بعد سنة، قال لهم : «انا ربكم الاعلا، لازم تسجدو لي والانهار والبحور دي بتاعتي» وطلع في الكفر والكبر .

وفي يوم شاف رؤية، واحد بيضربوا بعصايا ويقوللو : « ويلك يا فرعون » . مشى يجري يفسر الحلم عند المعبرين . قالولو : « حايظهر ولد يطاعنك في دينك،وهوا دا سبب الخراب. قال : «لازم الولد دا ما

(١) فردة اي فرض بالقوة والاغتصاب او فدية تؤخذ عنوة .

يظهرشي ولا يكون لو خبر لو انطبقت السما على الارض». واصدر امر بقتل كل ولد يتولد، لحد ما قتل عشرين الف طفل .

سيدنا موسى كان ابوه عمران، وكان عمران دا وزير فرعون وما يفارقشي فرعون ابدا، فلما ان الاوان، ام سيدنا موسى ما كنتشي حامل فيه، وجالها سيدنا جبريل وشالها وداها عند جوزها عمران وزير فرعون وفرعون كان لسه نايم .

عمران قام على (١) مراته ونام معاها، ولما حملت شالها وداها تاني، وفرعون نايم .

حملت وولدت سيدنا موسى، والسحرة قالت لفرعون : «الولد اللي اتولد في الليلادي، هوا اللي حايقتلك» . فرعون امر جيوشه هجمت على جميع بيوت المدينة، ما لقيوش حاجة. ولما جم عند بيت الوزير عمران قالوا لبعض : «لكن دا بيت الوزير» . وبعدين دخلوا على ام موسى، وهية قاعدة بتخبز، فراحت رامية (٢) الطفل في شروقة الفرن في النار . وقالتلهم : «تعالوا فتشوا» دخلوا ما لقيوش حاجة، مشوا. وهية طلعته من النار وهو بيضحك .

ربنا قاللها «ارمي ابنك في البحر وانا حاردهولك تاني ومحدش حايمسه » . لما سمعت الندا ، جابت نجار عمل صندوق على اده ورمته في النيل .

فرعون كان عامل نهر نيل ماشي من داخل قصره، عشان كان عنده بنت عيانة والحكما قالوا : (٣) «ما تخفش الا لما تتغسل في بحر النيل كل يوم» . والصندوق فضل عايم على المية لما دخل في النيل من جوا السراية . بنت فرعون شافت الصندوق فتحته لقت الطفل نايم فيه، اول ما لمسته زال مرضها البرص اللي فيها. طلعت تجري على الست اسيا (مرات ابوها) مرات فرعون .

واسيا مرات فرعون كانت(٤) مسلمة. وكان كل ما فرعون يزورها وييجي ينام معاها، ربنا يمثله جنية زيها بالظبط وينومه معاها .

البنت لما وجدت الصندوق، اخبرت اسيا، مرات ابوها قالت لها: «هاتي الصندوق»، ولما موسى شافها ضحك لها. فراحت قالت لفرعون: «نربيه ونخليه ابننا» .

---

(١) اي اجتمع بها وضاجعها، فحملت . (٢) القت بالطفل في فتحة الفرن .

(٣) لن تخف وتعافى . (٤) اي على غير دين فرعون .

كان فرعون يسمع كلامها . فقال فرعون : « طيب عايزين له مرضعه فجمعوا كل المراضع اللي في البلد، ما قبلشي ولا مرضعه منهـــم . قالوا: «نجيب مرات الوزير ــ عمران ما فيش الا هيةْ اللي ما جبنهاش». بعتوا جابوها واول ما شافته عرفته ، واللبن نزل من بزازها، وبقت رايحه جيه في السراية. وفرعون فرح وبقي يلاعبه ويهشتكه (١)، ولما كبر ابن سنة ، فرعون جا يلاعبه زي عوايده، فنتش شعره من دقنه ، ففرعون زعل وجا يقتله وقال : «الواد دا اللي حايقتلني» .

الست آسيا ردت وقالت : «دا طفل ما يعرفشي التمرة من الجمره » وجابت طشت فيه جمره وتمره .. موسى جا ياخد التمره ، ربنـــا خلاه مسك الجمره وحطها على حنكه ــ فمه ــ فلسعت بقه. وفرعون سكت، وفضل يربيه لما بقي سنة تلات سنين، وكان ينيمه جنبه على السرير .

وفي ليلة صحى موسى وضرب السرير قسمة نصين وفرعون وقـــع على الارض وقال : «هوا دا عدوي اللي حايقتلني» ..

الست اسيا حايلته وقالتلو : «بكرة يكبر وينفعك». موسى قعد لمـــا بلغ من العمر ١٢ سنه .

وكانت طقـــة فرعون جمل بكاملـــه محمـــر ، قعـــد فـــي يـــوم هو وموسى ياكـــلو الجمـــل المشوي المحمـــر فموسى قـــال للجمـــل : « انت مستني لما ياكلك، قوم على حيلك» فالجمل قام على حيله هايج وســـــاب الصنية وجرى ..

فرعون قال : «دا اللي حايقتلني تمام» وموسى هرب من قدامه.

فرعون دور منادين، ينادوا : «اللي يصادف موسى يقتله» .

وفي مرة وموسى طفشان من وش فرعون، لقى اتنين بيعاركو بعض، جه يسلكهم من بعض ، زق واحد غصب عنه فنزل ميت. قال : «يا رب انا ظلمت نفسى اغفر لي ». ربنا غفر لو . وجالو واحد قاللو : « يا موسى فرعون دور منادي ينادي ان اللي يصادفك يموتك ، وانا بانصحك اطلع من مصر . فطلع من مصر هاجج، وفضل ماشي ماشي لحد ما راح بلد اسمهـــا مدين (٢)، جنب جبل الطور، وكان فيها سيدنا شعيب . ولقـــى بير فشرب وقعد جنبها، وكانت البير دي متغطيه بحجر يشيلوه اربعين رجل . فجم بنتين اولاد سيدنا شعيب ومعاهم المواشي مواشيهم، وقعدوا جنب البير يستنظروا لما الناس تيجي تسقي مواشيهم ويكتمل عدد لربعين راجل اللي

---

(١) يدللـه . (٢) سينـاء .

حايشيلو حجر البير. موسى سألهم : «انتوا مستنيين حد»؟ قالو لو : «مستنيين لربعين راجل اللي حايشيلو غطا البير» راح على الحجر ورفعه باديه لتنين وسقاهم، والبنتين رجعوا لابوهم ولما سألهم «جيتو بدري ليه» قالولو على اللي حصل. سيدنا شعيب بعت البنت تندهلو. راحت قالتلو: «تعالا كلم ابويا» قاللها : «طيب انا حامشي قدامك وانت تمشي ورايـا» ولما دخلوا البيت سلم على سيدنا شعيب وكان عجوز وكفيف (١) بصر ، وحكاله على كل اللي حصل مع فرعون .

البنت قالت لبوها : « اكريه (٢) يابويا يرعى لنا المواشي »، فقالو : «انا عايز اجوزك بنتي»، موسى قاللو : «انا فقير ومطرود وما اقدرشـي ادفع مهر» قالوا : «مش عايز منك مهر. تسرحلي بالغنم تمن سنين»،موسى وافق واستلم الغنم، اتناشر الف راس ، واتفقوا مع بعض على خلفة الغنم شعيب ياخد الدكورة ـ الذكور ـ وموسى ياخد النتى ـ الاناث ـ ،والبركة طرحت ولدنيا اتملت غنم ..

سيدنا شعيب كان عنده اوضة ضلمه فيها عصى جميع الانبياء. قاللو: «ادخل خد لك عصا يا موسى» دخل خد عصاية وطلع، قاللو : « دخلهـا وخد غيرها» يدخلها وييجي ياخد غيرها تطلع له هية هية العصا الاولانية.

وبعدين شعيب قاللو : «دي عصاية ادم اللي جبرين نزلو بها مـن الجنة، حافظ عليها يا موسى، دي بالليل تغنيك وتسليك وتنور لـك طريقك وتنصرك على عدوك» .

ولما موسى تم مدته قال لشعيب : «انا سايب اخويا هارون واهلـي وحشوني، قاللو : «خد مراتك وروح. خدها ومشى، وهية كانـت حامل، وجنب جبل الطور جالها الطلق، قعدت في الارض عشان تلد، وموسـى ما كنشي عارف يعمل حاجة، ومفيش لا مية ولا نار، شاف نور من بعيد، سابها ومشى في الجبال، والجن جت عملتلها الاكل وولدتها .

موسى كل ما يقرب من النور، يلقي النور محاوطه من كل حتة. وسمع اللي بيندهله : « يا موسى انا ربك. اخلع مداسك (٣)، وانا حابعتك لعبـد من عبيدي، عصاني وتكبر علية. روح ادعيه للطاعة، واذا ما سمعشـي الكلام، انا حاقتله» .

موسى كان بيلدغ (٤)، من يوم ما حط جمرة النار فـي حنكـه (٥)

---

(١) اعمى (٢) اي استاجـره . (٣) حذاءك .

(٤) يلثغ (٥) فمه

زمان، فقاللو : ابعت معايا هارون اخويا، وحللي عقدة لساني» . ربنا قاللو : «طيب» .. وسأله عن اللي في ايده ، قاللو : «دي عصاية بسوق بها الغنم» ربنا قاللو : «ارميها». رماها فبقت حية كبيرة، وموسى خاف وفزع وجرى، فسيدنا جبريل قاللو : «تهرب من ربنا وهو بيكلمك»، وربنا قاللو : «خدها ما تخفشي» . فمد ايده وخد العصاية .

ورجع على مراته، خدها ورجع وداها عند ابوها وقاللو : « انا جتني الرسالة، خد بنتك». وطلع بالليل على مصر، خبط بالعصاية اللي في ايده على بيبان قصر فرعون، اتفتحت ودخل على فرعون نص الليل لقيه نايم، وهارون اخوه سهران جنبه، قاللو : «انا جتني الرسالة يا هارون وانت معايا» هارون قاللو : «طيب بس بالنهار»، رجع على بيته .

وبالنهار رجع تاني ودخل على فرعون ، فرعون اول ما شافه قاللو: ازيك يا موسى، انت نسيت نعمتي عليك» ، موسى قاللو : « النعمة نعمة ربنا» فرعون زعل وقاللو : «هوا فيه رب غيري»؟ موسى قاللو : « انت مخلوق زيي زيك، ربنا خلقني وخلقك، وانا جتني الرسالة .. فرعون سأله : «فين الاثبات؟» راح رامي العصاية اللي في ايده، ففرعون خاف وجرى وقعد يزعق .. : «ساحر ساحر ساحر» والمملكة جريت وراه.

فرعون كان عنده سبعين ساحر، جمعهم كلهم وكان كبيرهم اعمى وقاللهم : «ان غلبتوا موسى خدوا اللي انتوا عايزينو، وان غلبكم حاقطع ارقابكم واعلقكم على البوابات»، واتلموا جميعا قدام فرعون وكل ساحر رمى عصاته، واتقلبت العصي دي حيات وتعابين وسرحت ملت الارض، وهجمت كلها من كل حتة نوبة واحدة على موسى، موسى خاف، فربنا شجعه وقاللو : «ارمي العصا اللي في ايدك» رماها اتقلبت حية لها اتناشر حنك ـ فم ـ وهجمت بلعتهم كلهم. وبعد ما انفض الجمع، كبيرهم زعقلهم وقاللهم: «عصاية واحدة تغلبكم» وعشان هو كفيف بصر سألهم: «هية منفوخة والا ممدودة؟» قالوا: «مش منفوخة» قال: «يبقى مش فعل ساحر، دا نبي» وخدهم كبيرهم وخلاهم آمنوا بيه .

فرعون عرف وهددهم : «حاقطع اديكم ورجليكم واصلبكم» وقطع اديهم ورجليهم وصلبهم وماتوا على الاسلام .

السيدة اسيا مرات فرعون، وماشطتها، زعلوا على صلب السحرة، وهية قالتلو : ليه يا ملك بتقتل السحرة والكهنة اللي امنوا بالله؟ قال فرعون : «وانتي منهم» وامر جابولو صندوق مليان زيت ، وضع فيه

الست اسيا واولادها وماشطتها وغلاهم في الزيت لما ماتوا، وهمه يقولوا: «امنا بالله» .

ونزل سيدنا جبرين بشر اسيا واولادها، انها حاتكون مرات النبي يوم القيامة، وهية قالت : «الحمد لله ربنا نجاني من فرعون».

وربنا لما غلب من فرعون، بعت طوفان نازل من السما ليل نهار، ففرعون استجار بموسى وقاللو : «ابعد العذاب دا واحنا نآمن بالله » موسى طلب من ربنا، رفع عنهم الطوفان، ولما راح العذاب رجعوا تاني. فسلط عليهم الجراد، فرعون استجار بموسى، موسى طلب من ربنا يبعد الجراد اول ما راح كفروا تاني زيادة. بعتلهم الضفدع، بقي ينزل في اكلهم وميتهم وشربهم، قالو لو: «غيتنا شيل عنا الضفدع» شاله، رجعوا للكفر. قلبلهم البحر دم، المؤمن يشرب يلقي المية مية صافية، والكافر يشرب يلقي دم، غرقوا تاني في الكفر، ولما ان الاوان، سيدنا جبرين جه لفرعون في صورة راجل، فرعون قاللو: «ايش تطلب» ، قالو : «يا ملك اناجي اشكيلك عبد من عبيدك ربيته وهو صغير، ولما كبر عصاني» فرعون رد عليه وقاللو : «جزاء العبد العاصي الغرق، سيدنا جبرين خلاه مضالو (١) على الشرط ده. وجبرين خد الشرط عطاه لموسى وقاللو : « ان الاوان نغرق فرعون خد انت بقى ناسك (٢) وجيشك واهرب، ففرعون جايتبعك ويقول دا هربان ، اضرب البحر بالعصاية اللي في ايدك ، يبقى طريق تفوت منه انت وجيشك، وفرعون ييجي يفوت وراك يغرق» .

موسى نادى على الرحيل، اتلم وراه سبعين تمنين الف، تبعوه ومشوا وراه، وفرعون ماكدبشي خبر، جمع جيشه وطلع وراه. موسى جه عند البحر، وضرب البحر بالعصا،صبح اتناشر (٣) سكة، فات موسى وجيشه فيه،جافرعون وجيشه يمشي ورا موسى، فسيدنا جبريل عمل نفسه فارس خيال من جيش فرعون وخوض وسط البحر المالح قدام فرعون وجيشه، وفي نص البحر، انقلب عليهم البحر. فرعون يصرخ ويقول : «امنت بالله، ارحمني يا رب اسرائيل وموسى» .

سيدنا جبريل ناداه وقاللو : «انت عصيت والنهارده انا حانجيك

---

(١) وقع له على هذا الشرط او الاتفاق .

(٢) الناس التابعين لك .

(٣) وهو رقم ـ قمري ـ اسطوري ، حيث ان حاصل ضربه في ٣٠ يعطينا عدد ايام السنة القمرية ٥ × ١٢ × ٣٠ = ٣٦٠

بزورك، وانت اللي طلبت ومضيت على انك تغرق وآدي صحيفتك آهي».
وبعتله ريح رصراص، فضلت تدفع وتزوف فيه ، احد ما رمته (١) على الشط، وصبح عبره لكل واحد من الناس يفوت عليه، يقول:«ادي الاله اللي كان عامل نفسه اله» ويتركه ويمشي في سكته .

تربية موسى عند فرعون ـ والخروج

ابو سيدنا موسى كان راجل عبيط، ولما موسى اتولد، كان عايز ياخده يسلمه للملك فرعون، اللي كان بيدبح الاطفال .

ام موسى خدت الولد اخفته في جحر في الجبل، ولما كانت تروح تزوره وتطل عليه ، تلقاه بيرضع في صوابعه، صباع يرضع منه لبن، والتاني عسل، والتالت مية .

وجوزها كل ما كان يشوفها رايحاله في الجحر او جياله، يقولها: «حاتودي الطفل لفرعون، والا اروح اقوللو ؟» فكانت تصرخ وتقوللو : «يا كشر انكسف» .

ولما خافت، جابت صندوق وحطت فيه جواهر، ووضعت فيه الطفل موسى، وبرشمته ووقفت قدامه وقالتلو :

ـ يا ضنايا انا استعوضتك لرب البرايا .
ابني من لحمي عرضي وهنايا .
اكشف بذات عيني لا قدامي ولا ورايا .
حياة رب البرايا تحرسهلي يا الله .
وهو ولدي موسى انشالله.
ان كان ابني ومن صلبي .
ومن روح التجلي .
ارد اليه ويرد لية .
لبن الدفاتي يرد لية .
دا ابني لية .
وساقت اليه لبن الحنية .

فالصندوق بقي يرتعش قدامها، وانكتبت الكلمة في السما :

حياة صاحب الطلعة البهية
فقسمت الليل نصين

(١) القت به على الشاطيء، واصبح عبرة ..

الام شالت الصندوق على صدرها يا عين
وفيه الروح الذكيـــة .
ولما رمت الصندوق قدامها في البحر، الصندوق وقف قبالها ومـــا تحركشي، والتيار شديد، فقالتلو :
رايح فين يا اميـــن ؟
اصبر ولا تقلق يا صدري
دا ابني ابني طول ما الماء في صدري .
ويا مين يطمني على غياب العزيز ولدي .
وقفت ساعتين والصندوق لم يتحرك .
ووجدت النهار انكشف والفجر شقشق .
وقالت : يا صاحب العزلان .
يا من عزلت الليل عن النهار .
تطمني حياة فجرك اللي من الشرق شقشق .

★ ★ ★

وسابت ام موسى الصندوق وقالتلو :
مع السلامة يا بيت العطـــا
تحت منـــك شهـــد
وكلمة بسم الله الرحمن الرحيم
فراش لك وغطـــا
يا موسى يا ولدي لا بعتك ولا اشتريتك .
قادر يخلصني من الظالم اللي ساقني حتى رميتك
من كلمة الرعب وخوض جبتك وراميتك . .
يا دمع عيني خف عنـــي بقه .
جفوني شققت وبان الظل فيها .
وطول ما اللبن يجري في صدري
عيوني تلاغيهـــا .
ولما رجعت بيتها، فزعت في راجلها قالتلو «انا رميته» :
رميت الدوا اللي بكره للناس ينعاز .
ويبقى حكمه يسير على كل الناس .
ويبقى منه الدوا ينعاز .

★ ★ ★

جوزها قاللهـــا :

ما تتعينيش يامره ، بكره يجي غيره
بكره يزول دا الحكــم
ويبجي حكم لنـــا ينعاز .

قالتلو :

واحلم بضهري وساعة القمر يطلع .
اسلملو انا صدري .

قاللهـــا :

دا انتي فرحتيني عشان ما يطلعلي سيره لينا
نتبهدل انا وانتـــي ويلعب العيال بينا .

قالتلو :

جاش (١) ييجي يوم
ونشوف قـــوم
يغيروا اللـــوم
ابني ولدتو رميتو ع الكوم
رميت ولدي حشاشات كبدي
اسلمته في وقت والخلق نيام
ويشهد عليه فجر الصبـــاح
قادر ما غيرك قادر
ترد ولدي الى صـــدري
حياة حي على الفلاح .

★ ★ ★

مشى الصندوق في البحر ، ووصل بقوة الحق لقصر فرعون . وقصر فرعون كان مبني في وسط البحر .

ولما فرعون شاف الصندوق بنفسه، نده لمراته ــ ستنا اسيا ــ وقال:

يا اسيا عجبك عليه بشير .
لك ٣٦٠ ضفيرة يعجبو العايقيــن
لقيتلك لقيه عجيبه تدهش الفايبين .

---

(١) صيغة تمنى ، الن ياتي يـــوم .

فآسيا قالتلو :

ـ ايه هيه يا عدو الله يا ظالم ؟

فشاور لها فرعــون وقال :

ـ اهي واقفه في المية مرمية .

انزلي وهاتيهــا

وكان للبحر ٨٠ سلم ، نزلت الست اسيــا لحد ما حصلت الصندوق، وفجت عليهــا الريحــة من الصندوق ، كيف العطر والمسك .

فبشرت بالماء وقالت :

ـ ما انت ما انت ما انت .

فسمعت لغة في ودنهــا بيقوللها :

انا صاحب الحفلة اللي انتــي تعلمي بيهــا

لا يخفيك شوري ولا قولي

انا موسى .

فرفعته على صدرها شجيعه .

لانها كانت بكر صاحبة قوة ومليحه .

رفعت اسيا الصندوق وقالت « يا فرعون احذر من الامانة دي ،دي امانــة حلوة قوي » .

وكان فرعون متجوز ، ست تانية غير ستنا اسيا ، وكان مخلف منها بنية سنها سبع سنين ، وكانت عاجزة رجليــن وادين ، ومبلية بالبراص .

ولما جابو الصندوق ، وفتحوه قدام البنت ، بقدرة قادر ، زال عنها البراص ، وصبحت سليمة ، على وش الطفل الصغير .

ولما شافت اسيا ان البراص زال عن البنت ، قالت لفرعون :

يا ظالم انت جمعت كل الاطبه

حتى اللي دار دار .

لم شفوهــا ولم بروهــا

وعلى الوجه المليح اتبرت بنتك .

فرعون قاللهــا :

ما رأيت يا اسيا احلا من دا ظلام .

انا ادتهلك يا اسيا وانتي تفكري بهذا الكلام

آسيا قالتلو :

نهار عيد ساعة اشوف دا ابني .
بس مفيش غدا ـ غذاء ـ في صدري ينفعلو .
قاللهـا :
امال المدله عندك
قالتللو :
احضر لي جميع المراضع
اللي يشرب منها تستنه عندنـا
ولما يشرب وينام تروح وتصبح عندنا .
بعتوا لجميع المراضع جابوهـا .
اتعرض على كل المراضع ما قبل منهم
آسيا قالتلو :
الولد مش قابل حـد .
فرعون قاللها :
قصى الملك كله ما تخلي منه حد .

★ ★ ★

آخر سنه جت الاميره امه
بعتوا جابوهـا
قالت ام موسى :
يا دمع عيني اختشـي
ما ينـزل منـك شيء
ويا نهر اجري في صدري .
راحو العرب من قبل مني
عزموا العرب بغذاهم .
ما قبل منهم شي .
جينا لوقت الحق .
الهي يا رب ما تكسفني
وعدتني وفيت طلبـك
وآديني جيت لـك .

★ ★ ★

نظر فرعون بعينه، لقى الولد مش قابل بز اي مخلوقه على وجه الارض،

فقـــال لآسيـــا :

امال حانسقيه منين المشيطن ده

آسيا قالتلو :

صلي صلي صلي .

دا وهبه من اللــه .

وجت ع الارض .

فرعون قاللها :

ما احنا قدمنالو كل المراضع

مش قابل ولا واحده .

جت ع الارض .

آسيا قالتلو :

فيه ست برا اخر التصافي

ان ما قبلش بزتها .

يبقى لنا تصاريف في الارض .

★ ★ ★

اول ما دخلت العزيزة امه

رفع بعينه وعاز يقوم ع الارض

★ ★ ★

جريت بنت فرعون اللي كانت مريضه

راقده في الارض

يا ست الغلام

وسلمته لامه .

تشهد بذلك ملائكة الارض .

جر من بز امه في امان الله .

ضحكت اسيا وقالت :

يا ما انت كريم يارب .

اتانا الخبر من عنــدك

وانت اللي عالم يا رب .

راحت لفرعون وقالتلو :

مبروك
قبلت العناية من عند رب البرايا
الفرحة تمت وبان الهداية

★ ★ ★

فرعون ملهى في بنته
ولا يعلم ان دا موسى ابن عمران .
لكن اسيا تعلم وحق الواحد الجبار
قالت آسيا :
يا رب تنتقملي من الظالم فرعون .
ويجعل عمرك طويل يا موسى يا ابن عمران
قعدت في هنا وعدل
فرعون قاللهـا :
انتي تنامي على كل الدلع والهنا .
وتحرص ع الغلام روح العز والعنا .
قالت بنت فرعـون :
بابا انا ما اقدرش انـام .
الاجار الطفـل بس .
يحلالي المنام بابا وانجلى
ريحته ذكيه يابا .
ومنه القلب ينجلي .
ولما الفجر بيحوم
القاه قاعد جاري يصحيني .
يضحك معايـا يابا
واعي وبيسليني
وعلى كل حاجه يوريني .
قام فرعون بنفسه شال الولد حبه
ايم الولد بايده اليمين لدقن فرعون
وهبش خصله من الشعر طلعها بالدم
وكان الولد عنده من السن سبع سنين .
صرخ فرعون في آسيا وقاللها :
الحقي يا آسيا غيتيني دا موسى ابن عمران

آسيا قالتلو :
نعرض عليه الجمره والتمره.
وراحت اسيا لبست واتزينت وبلغت فرعون وقالتلو :
تتشطر على غلام اسيا مربياه
عشان ما انت ليك ست بالمستقر .
لها بنيه تجوز الملك كله وحديها
وحضنت فرعون لصدرها :

★ ★ ★

قالت ام موسى لستنا آسيا :
ما حالك يا آسيا بين العرب .
قالت آسيا :
ما بين الجلسة والجلسه الدم مني هرب .
اني خلقت لعلاج موسى .
علشان منه اكتسب .
قالت ام موسى :
ومالفرد احوزه .
ولما كبر موسى ، وعمل عمايله مع فرعون ، فرعون عرف ان دا موسى ابن عمران ، اللي حايقتله . لحقت ستنا آسيا وقالت لموسى :
ـ اخفا يا موسى لا تبان
وفرعون قال :
ائتوني بعساكري وقومي .
يجيبولي موسى باكبر سراع .
فقالت آسيا لفرعون :
ابعد يا فرعون عن موسى .
واترك العشم منه .
دا موسى قوي العــزم
ولا فيش رجال منه .
اسأل بنتك يا فرعون
تقولك ع اللي حصل منه .

★ ★ ★

وفرعون طلع عساكره وجنده تدور على موسى وتجيبه، لو كان في حضن امه .

وموسى راح جبل الملاغاة
ونادى على باب الجبل وقال :

يا من خلقتني وانت اعلم بحالي .
وما قصدتك الا وانت قبالي .
تقويني على اعداءك من الشركاء
وفيهم العدو الغالي
فرعون اللي بيفعل ولا يبالي
يفرد بطون الحوامل
ويقتل الاطفال
ومنك لا يبالي
دا انا كنت من ضمن الضحايا
وانت اعلم بحالي
فلا تخيب رجائي
يا رب قويني .

★ ★ ★

دوروا على موسى في كل حته ، ما وجدوهش ، وموسى كان عدى وراح عند بني سهل، عند اخوه هارون، فوجده سارح بالغنم . وحكاله على اللي حصل مع فرعون .

★ ★ ★

يوسف وزليخة

سيدنا يعقوب كان عنده من الخلفة والذرية ، عشرة غير يوسف واخوه شقيقه بنيامين .

وكان يحب يوسف قوي ويعزه ويقوللو : انت نور عيني .

وفي يوم اتشاور اخواته وغاروا من يوسف وقالوا :

ـ احنا نشقى ونسرح بالغنم، وابونا ما يحبش حد الا يوسف. احنا لازم نتخلص منه ونموته .

وكان لهم يوم يدخلوا فيه على ابوهم يعقوب . فدخلوا عليه في اليوم دا من غير استئذان .

يعقوب قاللهـم :
ـ ليه داخليـن عليه كلكم من غير استئذان .
قالـوا :
ـ ابدا يابونا . طلع علينا ديب واحنا سارحين بالغنم وهجم علينا، وخطف السعي منا . ولو كنا احنا لتناشر مع بعضنا ، ما كنش الديب هجم علينـا .
يعقوب استعجب وقاللهم :
ـ وعايزيـن ايـه ؟
قالوا له :
ـ عايزين اخونا يوسف معانا .
قاللهـم :
ـ لا
قالوا له :
ـ خليه ييجي معانا ، واحنا نحافظ عليه زي عنينا .
وبعدين يوسف حلم حلم ، اخواته الحداشر ساجدين له واخواته زعلوا وقالولو : انت عايزنا نسجد لك .
وبعد كده حلم حلم تاني ، شاف فيه ابوه وامه مع اخواتـه ساجدين قدامـه .
ولما حكاه ليعقوب ابوه، شتمه وزعقله .
وابوه عمله قميص جديد ملون ، وغزله على ايده ولبسه ومنطقه ، وخلاه مشي مع اخواتـه .
واخوته خادوه في حتة مقطوعة، فيهـا جب . ودبرو له شـوره، وواحد منهم ضربه وحاول يموته، فاخوه شقيقه من الام ابن امه وابوه،حاش عنه وقاللهـم : بلاش تضربوه وتموتوه . ملطوه ملط زلط وارمـوه في الجـب .
ملطوه من قميصه ورموه في الجب ، وجبرين جاله ، ورفعه علـى صخره على وش الميه .
وكان فيه في الجب عقارب وتعابين وحيات . وسيدنا جبرين كان بينزله اكله طقه بطقه . لحد ما فات تلات تيام . وجم اخواته يشـوفـوه فواحد قاللو :
ـ انت ميت والا صاحي .
يوسف نادمه من الجب وقاللو :

ــ لأ صاحي .

وجم يضربوه بالصخره ، ويسدو الجب عليه . فاخوه شقيقــه قاللهــم :

ــ لأ . بــلاش .

جابو عنزه ودبحوها ، وغرقوا قميصه بالــدم . واصطادوا ديب عجوز . حاوطوه ومسكوه . ورجعوا على ابوهم يعيطوا ويندبوا ويقطعوا في هدومهم ويقولو :

ــ اخونا يوسف اكله الديب منا . وآدي قميصه وآدي الديب.

يعقوب خد القميص وقلب فيه ، مالقيش فيه ولا قطع .

جاب الديب وسأله وقرره . فالديب قال :

ــ انا مكلتوش .

قام نظر يعقوب غاب ، وصبح اعمى .

ويوسف فضل جوا الجب ، لحد ما جا جماعة عرب رحل عشان يشربوا من البير ، فلقوه .

قالو لو :

ــ انس والا جن .

قاللهــم :

ــ انس من خيار الانس .

فطلعوه لقوه جميل الصورة . قالوا : نبيعه للملك بتاع مصر العزيز.

وخدوه وجوا على مصر، ونزلوا بسوق الدلالة . والعزيــز اشتراه منهم ، وروح قال لزليخه مراته : اكرمي الولد دا .

وفضل العزيز يربي فيه، لحد ما كبر وكان جميل الصورة. فزليخه استحسنته وعشقته وطلبت منه ان ينام معاها . وفضلت تعافــر معــاه كل يوم عشان يفعل فيها. لحد ماهم انه يفعل ، فسيدنــا جبرين نزله في صورة ابوه يعقوب وشبيته، وقاللو :

ــ اياك يا يوسف اياك .

ففلت منها وطلع يجري وهيه وراه بالمشوار ، تمســك فيــه وتشد فيه، ومن كثرة المعافرة، قطعت القميص من ورا ضهره .

ولما جا العزيز عيطت وقالتلو :

ــ العبد اللي ربيته في بيتك ، هجم عليه وطلب منــي ان يفعل فيه.

الراجل زعل وقاللو :

ــ كده يا يوسف .

يوسف نكر وقال : دي هيه اللي طلبت ، وقاللو :

ـ حتى اسأل الطفل الصغير اللي بيرضع ده . ابن الداده . اللـي سنه سبــع تيــام .

الطفل نطق وقال :

ـ شوف قميصه . اذا كان اتمزع من قدام ، يبقى هوا اللي عايــز . واذا كان من ورا ، يبقى هيه .

العزيز شاف القميص، لقى القطع من ورا، وعرف .

زليخة صممت في نفسها، انها لازم تمشي اللي في بالها مع يوسف.

والكلام والحديث ملا المدينة : ان زليخه عاشقة يوسف . وهيــه زعلت واتقهرت وانذلت في نفسها، وبعتت لجميع الستات الزوات اللــي في المدينة ، وكانوا ستة وتلاتين . وقعدتهم وادت لكل واحدة سكينــة وتفاحــة .

ودخلت لبست يوسف وهيئته وزوقته . وقالتلو :

ـ انت ما طوعتنيش في نفسك . لكن لازم تطاوعني في اللي اقولك عليه . اطلع علــى الستات اللي برا بالزينه دي .

ولما اتفتحت لبواب ، وطلع عليهم . كلهم بصولو . وبقوا ياكلو في نفسهم ، وبدل ما يقطعوا التفاح اللي في اديهم بالسكاكين عشان يأكلوه. كانوا يقطعوا في اديهم وصوابعهم ، ودمهم يشر ، ويصرخـــوا ويقولــوا: يوسف يوسف .

ـ بكيت زليخه وقالت :

ـ عشت في الذل لمتوني .

ـ في حب يوسف بن يعقوب .

ـ لمتونــي .

ـ الا وجولها البيض في اوان عصر

ومالوا وقالولها :

ـ فين يا زليخه اللي عليه البيبان سكين (١) ؟

ـ ما فتحت لهم زليخه الباب

ـ ما خرطت يدهم سكين .

ـ قالتلهم آهو يا مساكين اللي عليه .

ـ لمتونــي .

---

(١) مسكوكين او مقفليــن .

زليخه قالت لنفسها : ان ما كنتش حانول اللي في بالي حاسجنه.
وبعد كده دخل السجن .

وفي السجن لقى طباخ الملك والسقا الخصوصي بتاعه، كانـوا عامليـن فتنه ويحطوا السم في أكل الملك وشربه ويموتوه .

وبعد ما اتفقوا ، كل واحد منهم قال لنفسه : انا اروح احذر الملك واكبر فـي عنيه .

وجت دخلتهم على الملك مع بعض . الطباخ قال : حاسبب يا ملـك السقا حايسمك .

والسقا قال : حاسب من طباخك يا ملك .

★ ★ ★

ابراهيم والملك النمـرود

كان سيدنا ابراهيم ابن آزر، ابوه آزر على مدة الملك النمرود ، وكان النمرود ملـك ظالم كافر ، في مرة وهو نائم حلم حلم شاف فيه ان ولد حيتولد وحيقتله، فأصدر امر بقتل كل ولد ذكر يتولـد ، لما بلـغ اللـي قتلوهم من الاطفال عشريـن الف طفل .

ابراهيم كانت امه حامل فيه وآزر ابوه كان خدام عند الملـك يعبـد الاصنام . امه وهي حامل فيه ، خافت عليه وراحت ولدته جوا غار ، وسدت عليه باب الغار وتراعيه من بعيد لبعيد عشان ترضعه فكان يكبر في اليوم مقدار شهر . وفي يـوم دخلت عليـه الغار وجدتـه بيرضـع صباعه مسكت ايده لقت ان فيه صباع بينزل لبن ، وصباع بينزل عسل وصباع بينزل ميـه .

ولما كبر سال امه قاللها : « اماه ربي مين ؟ » قالتلو : « ربك امـك انـا » قاللها : « ورب امي مين ؟ » قالتلو : « ربي ابوك » ، قاللها : « ورب ابويا ميـن ؟» قالتلو : « رب ابوك الملـك النمرود » ، سألها : « ورب النمرود مين ؟ » قالتلو : « رب النمرود الاصنام » قاللها : « وربالاصنام ميـن ؟ قالتلو : « اسكت احسن النمرود يبعت يموتنا » .

ولما كان ابن سنه ، شاف النجوم بتنور في السماء قال : دا ربي. غابت ، قال : لا دا مش رب . القمر طلع قال : « دا ربي ، غاب قال : لا دا مش رب .. الشمس طلعت بدري ونورت السما ، قال : « دا ربي، آخر النهار غابت ، قال : لا ربي لا يتحول ولا يزول .

طلع من الغار ، وجبرين مشى قدامه ودله على بيت امه وابوه ،دفع الباب ودخل عليهم ، ابوه قام واقف ،وقال : « مين ده ، امه قالت : دا

ابراهيم ابنك ، وانا كنت خايفه من النمرود احسن يقتله .

وهو اول ما دخل على ابوه عرفه وقاللو : يابا مين ربك ؟ « ابوه قاللو : النمرود ربي ، قاللو : ومين رب النمرود ؟.

ابوه خاف وطلع يجري، دخل على الملك النمرود ، وحكاله على اللي حصل من ابنه ابراهيم ، وطلب منه الامان . والنمرود بعت جابه وسأله: يا ابراهيم مين ربك قاللو : الله . قاللو : « وفيه رب غيري ، اسجد لي يا ابراهيم . قاللو : « لا ينبغي السجود لغير ربي المعبود . النمرود زعل وصقف طلب اثنين ، وقاللو : « انا اقدر احي واموت . ساب واحد وسيف رقبة التاني ، وابراهيم قاللو : الشمس بتطلع من الشرق، هاتها من الغرب . النمرود زعل وقاللو : يا آزر خد ابنك وامشي ، خده وطلع. وهو تاني يوم راح اشترى شوية اصنام ، ودار ينادي بيها في البلد : يا مين يشتري اللي لا ينفع ولا بيضر .

★ ★ ★

النمرود كان عامل قصر كبير، وحاطط فيه اصنام وكل سنه يعملوا عيد كبير للاصنام ويدبحوا دبايح ، ويمدوا الاكل والطبالي . والنمرود طلب من آزر انه يحضر العيد ويجيب ابنه معاه . راح ابراهيم مع ابوه ، لقيهم حاطين الدبايح قدام الاصنام ، والشياطين تدخل بطونهم وتاكل اكلهم . وهمه يقوموا يسجدوا ويصلوا قدام الاصنام ، لحد ما خلصت الحفلة وناموا .

ابراهيم جاب فاس ، ونزل تكسير في الاصنام ، وبعد كده علق الفاس في رقبة الصنم الكبير فيهم .

همه جم الصبح، زعلوا واتحسروا ، وقالوا : مين اللي عمل كده؟ واحد منهم قاللهم : دي عملية ابراهيم . جابوه وسألوه : ليه عملت كده؟ قاللهم : اسألوهم، قالولو : هيه الحجارة بتنطق ، قاللهم : يبقى اللي عمل دا كبيرهم .

★ ★ ★

ودي كانت اول مرة يكذب فيها سيدنا ابراهيم ، وعشان ما قالشي الحق ، وعشان كده ما قدرش يقابل ربنا .

والكفار اتشاوروا مع بعض ، وقالوا : احنا لازم نحرقه .. ولموا الخشب والحجارة ، وعملوا حريقه عالية في السما ، ومسكوا ابراهيم

وقلعوه ملط زلط ، ورموه في وسط النار ، وهو عمال يضحك ويقولهم: انا بردان . وهمه لما شافوه طالع من النار زي ما هوه ، مسكوه من ايديه لتنين وطلعوه م البلد .

مشي راح ارض مكه ، واتجوز ستنا ساره ، وبعد كده هاجر ، وبنى الكعبة والحرم .. وبعد كده كبر وشاب ، والغلا والقحط ملا البلاد ، والناس كانت بتاكل لحم بعضها .

والملك النمرود كان يدي‌للي يسجدلو . وراح سيدنا ابراهيم يجيب غله من النمرود قاللو : اسجد لي وانا اديك . قاللو : السجود لرب المعبود . النمرود قاللو : طب روح خللي ربنا يديك غله .. وقاللو : « يا ابراهيم خللي ربنا بتاعك ييجي يحاربني ، وقام النمرود على حيله عمل له تابوت خشب، وكان مربى عنده اربع نسور شديده معلوفة عال. والتابوت كان عامل زي البيت، فدخل وقعد فيه وحوليه الوزرا بتوعو، وربط النسور في التابوت ، وامرهم بالطيران ، طارت النسوره في‌الجو، بالتابوت في السما فوق ، والنمرود سمع نداء من فوق : رايح فين يا عدو الله ؟ وبينك وبين السما خمسميت عام .

النمرود افتكر ان دا رب ابراهيم ، سحب الحربة بتاعته ، وضربها في الجو ، جت في سمكه كبيرة ، والسما نطرت دم ، فالنمرود فرح وهلل : افرحوا قتلت رب ابراهيم ودمه اهو في كفي .

سيدنا جبرين صرخ صرخة ، فالنسور داخت ، والتابوت وقع بيهم في البحر ، الوزرا ماتت من الخوف ، والنمرود طلع من التابوت وسط البحر شايب وشعره ابيض . بعت جاب ابراهيم ، وقاللو : هاتلي ربك قدامي هنا يا يغلبني يا اغلبه . ربنا قال لسيدنا ابراهيم : اطلب من النمرود يختار اي حاجة تحاربه حتى الطيور .

النمرود قال : انا اختار الناموس .

ربنا بعتله الناموس، وبقى الناموس طاير في الجو وفرحان ، وكل ناموسه تقول للتانية : الحقي عندنا فرح النهارده عند النمرود .

والنمرود لم جيوشه وصفهم ، وضرب في النفير ، والحرب اشتغلت ، الجيوش تحت والناموس فوق يقرص الواحد منهم القرصة ، يطب ميت مكان ما هو واقف ، لما كل لحمهم وهضمهم .

النمرود واقف وحديه ، وجت ناموسة ضعيفة جناحها مكسور ، وراحت داخله منخيره ، وفضلت تنخب في مناخيره ، لحد ما طلعت على فوق على مخه ، فهو بقى زي المجنون ، والناموسه بتاكل في مخه ،

وخلى الخدم اتلموا عليه ، واللي في رجله صرمه والا جزمه قلعها ونزلوا ضرب على دماغه لما فلقــوا دماغه واترمى في الارض ، وهو بيموت طلعت الناموسه من دماغه وقالتلو : فتك بعافيه ومات النمرود .

وملك سيدنا ابراهيم الكعبة ، هو وابنه البكري اسماعين .

★ ★ ★

العنقاء وسيدنا سليمــان

سيدنا سليمــان ، كان مكشوف عنه الحجاب ، شاف ان بنت ملك حاتتولد الليلة دي ، وحايفعل فيها ابن وزير الملك في الحرام » .
جمع الطيور والوحوش وقاللهم حذر « هل الحذر يمنع القدر » ؟ فجميع الطيور والحيوانات والريح والصجر ، قالوا « لا » ، فيما عــدا العنقاء ، اللي قالت : « ايــوه الحذر يمنع القدر » .
ولما العنقاء اتمسكت برايهــا دون عن الجميع ، سيدنـــا سليمــان قال للعنقــاء : « طيب ــ نشوف » .

★ ★ ★

مرات الملك ولدت البنت في الليله دي، وعملوا الفــرح ودبحــوا الدبايح، ولما العزومة خلصت ، دخلت العنقاء من شبــاك السراية ، شالت بنت الملك المولودة بلفتها ، وراحت حطتها في اعلا شجره عالية في الجبل اللي برا المدينة . وبنت لهــا عش كبير ، وبقــت تأكلهــا وتسقيهـــا ، والبنت تكبر ، وكل يــوم تنتظرها زي امها اللي ولدتها ، لحد ما كبرت وبقت عروسة جميلة، ولانزلتش ابدا من على الشجرة .

★ ★ ★

ولما ابن الوزير كبر ، ركب الحصان وطلع يصطـــاد فــي الجبــل، الحصان عطش فراح يسقيه من بحر صغير تحت الصجرة دي ، وميل يسقى الحصان ، شاف في الميه الرايقة ، بنت جميلة قوي ، رفع راسه، لقيها فوق الصجرة ، عماله تطل عليه وتشاورلو . قال : « ايه اللي طلع البنت الحلوة دي فوق الصجرة العاليــة دي ! » « وسألها : « مين اللي طلعك فــوق ؟ » ، قالتلو : « انا فتحت عنيه لقيتني هنا » ، قاللهــا : « وانتي بنت مين ؟ » قالتلو : « بنت امي » ، قاللها « امــك ميــن ؟

قالتلو : « العنقاء » .

ولما البنت عجبته ، قاللها : « طيب انا عايز اتصل بيك وانام معاك» قالتلو : « طيب ادبح الحصان ، واسلخ جلده ، وخيط الجلد ، وادخل جواه ، وانا اخللي امي العنقاء ، تجيبك عندي وتتصل بيه .

راح الولد عمل زي ما قالتلو ، ولما رجعت العنقاء للبنت ، وجدتها بتعيط وتقطع في شعرها الطويل ، وتقول : « انا وحيدة ، وحافضل طول عمري وحيدة » ، العنقاء قالتلها : « طيب وايه اللي اقدر اعمله » ، البنت قالتلها : « عايزة جلد الحصان المرمي تحت الصجرة ده ، يونسني والعب بيه » ، طارت العنقاء ، ونزلت على الجلد ، رفعته وابن الوزير فيه ، وحطته جنب البنت على الصجرة ، وهيه طارت من هنا ، والولد طلع من الجلد ، ونام مع البنت وخد بكارتها .

★ ★ ★

جمع سيدنا سليمان الطيور والوحوش ، وكرر عليهم الحذر «هل الحذر يمنع القدر ؟ » جميع الطيور والحيوانات ردت قالت « لا » والعنقاء اتمسكت وقالت « ايوه » ، سيدنا سليمان طلب منها وقاللها: « طيب روحي هاتي الامانة » . راحت العنقاء جابت البنت وجلد الحصان اللي فيه ابن الوزير ، وحطت لتنين قدام سيدنا سليمان .

نادى سليمان على البنت والولد ، البنت قامت واقفه ولقوها حامل ، بطنها لقدام ، والولد فتح جلد الحصان وطلع منه ووقف ساكت جنب البنت .

العنقاء انكشفت وقالت صحيح « الحذر لا يمنع القدر » . ومن يومها سابت العنقاء سكن اعلا الشجر ، وسكنت الجبال .

داود وأوريه

سيدنا داوود كان متجوز واحده ست ، اسمها ـ مأمورة بنت هنداوي ـ خلف منها اربعين ملك .

ولما لربعين ملك دول اتجوزوا اربعين زوجة ، وعملوا الفرح ، كانت كل الناس مبسوطه وفرحانة ، ما عدا الست مأمورة امهم . كانت مغمومه وحزنانه ، وتقول : « يا رب داحلم والا علم » .

واللي شافته الام ، لقيته تاني يوم الفرح الصبح . راحت تصحي

اولادها من النوم، لقيتهم كلهم متمددين مسبلين ميتين .
الام زغردت وجريت فرحانة على جوزها داوود ، وقالتلو : «قوم صاحب العوض موجود » ، داوود صحي من النوم ، وسألها : « فيه ايه ؟ » قالتلو : «لربعين عريس ولربعين عروسة ماتوا »، داوود قام طل في وشوشهم وجسدهم ، لقيهم مغسلين ومكفنين » .
واجتمع المسلمون من كل حته ، عشان يشوفوا ايه اللي حصل ، وحضر القطب المتولي واولياء الله ، شالوا الميتين ، دفنوهم في ترب سيدي اسماعين .
وقت دفن الميتين، حضرت الملوك اللي داود كان مناسبهم . ومجوز بناتهم لاولاده ، وطلبوا من داوود ، انهم يأخذوا جثث بناتهم الميتين ، داوود قاللهم : « يعني انتو حاتخدوهم تصحوهم » سابوا الجثث مشيت ورا بعض ، والصبر عم الجميع .
الام طلبت من ربنا شوية صبر ، فنزل جبرين وصبر داوود ومراته على البلوه ، اللي لاحصلت ولا حاتحصل بعد كده :
ـ لكن شوف لتنين تحملوها
فرقوها على بعض وشالوها .
ولما جت الناس تعزي داوود ، قاللهم : « ايش يعمل الحاسد في الرازق » .
ربنا بعد كده عوض على داوود بسليمان ، يطيعه اهل الارض ، والجن والريح والطير ، وكانت لبساه عافية اهل السما واهل الارض.
ولما كبر سليمان وامه سألته :« ليكشرحد في الدنيا يا سليمان؟» قاللها : « ليه ، التمانين اخواتي ونسوان اخواتي ».
وفي يوم شاف سليمان ، ملك الموت رايح لابوه داوود فسأله: « على بيت مين رايح يا امير ؟ » قاللو : « رايح بيتكم ضيف يا سليمان راح قال لامه : «ابويا عاوز يزور اخواتي ، ساعته (١) مش زعلان » .
سليمان راح قال لامه : « ابويا عاوز يزور اخواتي ، ساعته جت » .
امه قالت : « يا رب كفاية اللي راح، ما بقي الا جملي» (٢) .
ولما داوود مات ، اخفت الام نفسها ، وما شفتش مشهده ابدا،

---

(١) اي حانت ساعة موته . (٢) رجلها داوود .

وخافت لتغلط وتعيط .

وطلع اهل الارض والجن والبهايم والوحوش ، يحضروا دفنة الملك داوود ، صفوف صفوف ..

سليمان حط نعش ابوه الميت ، وما رضيش يخللي حد يدفنه. فالارض من نفسها ، تحركت وطبقت عليه ..

وما رضيش سليمان ، ياخد عزا في ابوه ، وقاللهم :

حبيب قابل حبيبه يا اهلي افرحولو

ممنوع البكا ومد الايد ولحبيبكم افرحولو

الخضر والصياد

راجل كبير واقف يصطاد بالليل سمك من البحر ، وكل ما يرمي الشبكه في البحر ، ويطلعها ، تطلع فاضيه .

رجل تاني عجوز شافه بيصطاد بالليل ، فوقف وراه يتفرج عليه، وبعدين جه جنبه وقاللو : « يا عم حد يصطاد سمك نص الليل ؟! »

ـ الصياد قاللو : «امشي في سكتك» .

قاللو : « يا عم قوللي على حكايتك » ، الصياد قاللو : « انا لفيت الدنيا حته حته ، ادور لي على صاحب ، مالقيتليش صاحب في البر، فبدور في البحر على صاحب » .

الراجل قاللو : « طيب ، نصاحب بعض » ، الصياد لم شبكته ومشوا سوا، طلعوا الجبل ، عطشوا وجاعوا مع بعض ، ولما الليل دخل عليهم ، قالوا : « واحد ينام والتاني يحرسه » .

الصياد نام . والراجل التاني قعد صاحي ، عطشان وجعان ،شاف واحدة ست بيضه جميلة جاية عليه ، شايلة قلة ميه على ايد ، وعلى الايد التانية ، صنية فيها من كل ما تشتهي النفس ، وتحت باطها سيف ، وقربت منه .

الراجل الصاحي ، قاللها : « ياست قربي شويه واسقيني » قالتلو : «انا كلي لك ، جسمي لك، والاكل دا كله لك ، والميه الباردة لك ، بس عايزه منك حاجه بسيطة تعملها لي ، تاخذ السيف دا وتقتل صاحبك اللي نايم جنبك » اعطت له السيف ، هو سحب منها السيف، وقام وراها ، وجا يضربها بالسيف ، السيف فات فيها ، وبص ما لقيهاش ولا لقى السيف .

ولما اللي كان بيدور على صاحبه في البحر ، استكفى وقام من

النوم ، والتاني نام .
الصاحي بص في الضلمة لقى الست البيضا الجميله ، جايه عليه، ملى اديهـا الاكل والشرب ، ولما قاللها : « اديني بق ميـه » وقالتلـو : « انا كلي لك » وطلبت منه انه يقتل صاحبه بالسيف ، وعطته السيف ، واتلفت عشان يضرب صاحبه اللي نايم ، قام اللي نايم ومسك دراعـه وصرخ في وشه : « بص وراك » ، « بص ما لقيش حد ابدا .
اللي نايم قاللو (١) «غرت بـك» ، الصاحي سأله : « ميـن؟ » قاللو: « الدنيـا » ، الراجل اللي كـان بيدور على صاحب في البحر ، قـال: « دي الدنيا » ، قاللو : « ايـوه » ، قاللو « وانت مين ؟ » قالـلو : « انا الخضر » .
واللي كان بيدور على صاحبه في البحر ، بص لقى نفسه وحديه في وسع الجبـل .

خطيـة داوود

سيدنا داوود كان متجوز تسعة وتسعين واحده ست . وربنـا اداله الملـك وعلمه صنعـة الحديد . وكان جعل الحكم تلات ايـام فـي الاسبوع ، يوم للحكم ويوم لاجتمـاع الحريم ويوم للعبادة . يوم للحكـم ويوم لاجتمـاع الحريم ويوم للعبادة ويوم للحكم .
وفي يوم وهوا بيتعبد دخلت عليه المعبد حمامه . وكان القائد بتاعه « اوريه » متجوز واحده ست حلوة . فداوود بعته الحرب . وفي اليوم دا ، كانت الست مرات اوريه بتستحمه وتسرح شعرها . فداوود شافها وقال : « لازم اطولهـا وانام معاها » .
اوريه فتح المدينة اللي بيحارب فيهـا وبعت قاللو « خلاص انتصرت يا سيدنا الملك » رد عليه وقاللو اتقدم قدام الجيش وشيل الرايـه وافتح مدينة غيرهـا . وفضل كده لحد ما اوريه مات في الحرب . واندفن في المدينة البعيدة اللي مات فيهـا . وداوود اتجوز مراته ودخل عليهـا . فربنـا استمحنه (٢) ، بعتله جوز ملايكة في هيئة رجلين متعاركين مـع بعض. دخلوا عليه وشتموا بعض وعاركوا بعض . وقالولو : « احكـم بينـا يا مـلـك » .
الاول قال : اخويا دا عنده ٩٩ نعجه وانا عنـدي نعجه واحـدة. فاخويا يصح ياخدها .

---

(١) اي ان الدنيـا اغرته . (٢) عمل له امتحانا او اختبارا .

داوود زعل وحكم بان دا ظلم وان اللي خد النعجه يجلـد من قمعه لضفره ويتقتل .

فالملاك قاللو الحكم دا يسري عليك وانت اللي لازم تنقتل .

داوود لما سمع كده فضل يعيط لحد مانبت العشب من دمعه ،وربنا سمعو بينهنه ويعيط قاللو : « اطلب السمـاح من اوريه وانا اسامحك».

داوود قال : « لكـن دي المدينة اللي مات فيهـا اوريه بعيدة فـي آخـر الدنيـا » .

وراح لحد هناك على رجليه وقعد على قبره وقاللو : « سامحني يا اوريه » . اوريه نادمه من جوا القبر : « مين اللي بينده ؟ ».

قاللو : « انا داوود عايزك تسامحني عشان انا قتلتـك . قاللـو : « دا انت دخلتني الجنه وانا سامحتك » .

داوود اكتفى بكده وما قدرش يقوللو انا اتجوزت مراتك ، ورجـع تاني على المملكـة.

ربنا ظهرله تاني وسأله : «عملت ايه يا داوود؟»

وربنا سأله : «اخبرته انك موته عشان تتجوز مراته؟»

قاللو : « لأ ما قولتش » .

قاللو : «ارجع تاني لاوريه وقوللو على اللي عملته فيه» .

فرجع تاني واعد على قبر اوريه وقاللو : « يا اوريه انـــا تعمدت موتك علشان اتجوز مراتك » .

اوريه سكت وما ردش عليه . فقعد يعيط ويعيط سبع سنيـن على قبر اوريـه ليل نهـار .

وربنا ظهر له وقاللو : « قضيتك يوم القيامة قدام اوريه يا داوود، واذا اوريه سامحك انا حاسامحك » .

قاللو : «يا رب انقشلي خطين على كفي . فربنا نقشهاله . وكـان كل ما ييجى يعمل حاجه يشوف خطيته في كفه ويعيط .

وخلف من الست مرات اوريه اللي اتجوزها سيدنا سليمان .

★ ★ ★

وسليمـان بعد ابوه ما مات تولى الملك بعديه . وطلب قال : «يارب اوهب لي ملك ما يكونش لحد من بعدي » .

وربنا سحرله الانس والجن والعفاريت وحيتان البحر والهوا والنار والطير والنمل ،كله تحت ايده . والطيور تخليه قاعد وتيجي من فـوق

راسه وتضللو ، وهو كان يعرف اللي حاضر من اللي غايب . وفي يوم بص على الهدهد ما وجده، سأل « فيــن الهدهــد » قالـــو لو : « مش موجود » قال : « اذا ما جاش الهدهد حا ادبحه واعذبه » وهو في القول ومتله بص لقى الهدهد جى . سأله : « كنت فين » : الهدهد قاللــو : « يا سليمــان انا جيتك من سبأ بنبأ . انا كنت في بلاد اليمــن وشفــت هناك ملكه اسمها بلقيس ، بتحكم على اتناشر مملكة وبتعبد الشمس مــن دون الله » .

سليمــان قاللو : « انا حاكتبلك مكتوب يا هدهد وروح وديه لها، ان آمنــت بالله آمنــت ، وان رفضت حاحاربها » .

كتب المكتوب واداه للهدهد وقاللو : « استخبى واسمع الكلام وتعالا قوللي » . الهدهد خد المكتوب وراح وجدها نايمة اسقط المكتوب عليها، ولما قامت وقرته، جمعت الوزرا وقرته عليهم . « مــن الملــك سليمان،ما تعدوش عليه وتعالوا مسلمين » . وسألتهم : « نعمل ايــه ؟ ف قالــوا : « نحارب وراك » . وبعديــن قالت « انا حاروح اشوف بنفسي » . والهدهد سمع الكلام وراح قال لسليمــان ، فسليمــان قال : « ما دامت جيه بجيشهــا واحد يروح يجيب قصرهــا لحد هنا » جنى قاللو : « قبل ما تقوم من مطرحك يا سيدنا . يكون القصر هنا » . سليمــان قال : « لأ اسرع من كده » جنى ثاني قاللو : « قبل ما تغمض عنيك » غمض عنيــه وفتحهم لقى قصرهــا جنب قصره وامر الجن تفحت خندق حواليــن قصرهــا وعمل الخندق بالازاز .

وهيه اول ما دخلت بجيوشهــا المدينة ، عمل لها التكريــم اللازم، وامر جيوشه انها تدخلها قصرها تتفرج عليه .

دخلت القصر وجدت مملكتها هيه هيــه . اتعجبــت وقالت : « دا قصري هوه بعينه » وقالت : « انا اسلمت على اديك انا وجيشي ، قــال لهــا : « انا حاتجوزك» وبص في رجلها لقيها كلها مشعره (١) . فالجــن عملت له بودره لحلق الشعر، ودخل عليها في الحمام .

★ ★ ★

(١) مغطاة بالشعــر .

الفهرس

الاهــداء ٥
مقدمة اولى : مدخل لدراسة الحكايات العربية الشعبية ٧
مقدمة ثانية : نقطة بدء لحركة احياء لفلكلورنا العربي ٣٣
مقدمة ثالثة : الجمع الميداني البارد للخرافات وممارساتها ٤٧
الفصل الاول
الحكايات العربية الشفهية .. والليالي ٥٣
الفصل الثاني
منابع الحكايات العربية اللاسامية الاولى ٦٠
الفصل الثالث
حول قصص الخلق والخطيئة الاولى ، ودانة الانثى ٧٩
الفصل الرابع
العلاقة التاريخية والتراثية بين الساميين العرب والفـرس الآريـين ٨٦
الفصل الخامس
الالهة البركة وتوابعهـا ١٠٠
الفصل السادس
حكايات الحيوان الطوطمية العربية ١٠٥
الفصل السابع
الحذور والالغاز والحكايات العربية ١٢١
الفصل الثامن
الابطال اللصوص والشطار النزقين والمكارين ١٣٥
الفصل التاسع
تحولات ابطال الحكايات الخرافية، وسخطهم الى حيوانات ١٤٤
الفصل العاشر
علاقات قرابية وزواج ١٥٢
الفصل الحادي عشر
خوارق الجان وخرافة الآله الحمار سعدالدين ١٥٦
الفصل الثاني عشر
« نوح وزوجته والشيطان » ١٦١
الفصل الثالث عشر
موسى ١٦٨
الفصل الرابع عشر
النصوص ــ نمــاذج ــ ١٨٣